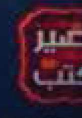
أرض زيكولا 2

أماريتا

AMARETA

رواية

عمرو عبد الحميد



أرض زيكولا ٢

أمـــــاريتا

أرض زيكولا ٢

أمـــــاريتا

رواية

عمرو عبد الحميد



الجزء الأول

حياةٌ جديدة

(١)
بيجانا

فجر يوم زيكولا :

أُغلِق باب زيكولا، وتوقفت الحركة تمامًا خارج المدينة، وأصبحت الطرق خاوية أمام سورها، ليس إلا من جواد أسود كان ينطلق كالسهم بعيدًا نحو الشرق، تمتطيه أسيل بفستان حريري أبيض دون أن توجهه، هو يعلم طريقه نحو بلدها بيجانا، لم يكن يشغل بالها سوى ما حدث خلال الساعات السابقة، وتغمض عينيّها إن جال بخاطرها مشهد ذبح خالد، وتتمتم بكلمات تتمني بها نجاته، قبل أن تجذب لجام حصانها، وتقلل من سرعته حتي توقف، فاستدارت به لتنظر إلى زيكولا نظرة أطالتها، كانت توقن أنها الأخيرة .

***

كانت بيجانا تُعرف بالمدينة الساهرة، و مُيّز سورها عن غيرها من المدن بأبراجه المنيرة الشاهقة التي تناثرت علي امتداده حولها، والتي

عُرفت بأبراج بيجانا المشتعلة بعدما قيل أن هناك ألف شعلة زيتية تشتعل بكل برج ليل نهار لتجعلها أكثر المدن إنارة ودفئًا .

وحلّ الليل، واكتمل القمر بالسماء حين وصلت أسيل إلى المدينة وسط تعجب حراسها الذين اعتادوا قدومها وخروجها قبل إغلاق باب زيكولا، ثم دلفت بحصانها تمضي قدمًا بين شوارعها، والجميع ينظر إليها في دهشة، وهي تكمل طريقها تتساقط جفونها من التعب، حتي وصلت إلى بيت من طابقين أمامه فناء صغير أحاطه سور من قوائم حديدية، وترجّلت عن حصانها ودلفت إليه، فأسرع إليها شاب مرحبًا بها، فربتت علي كتفه، وأعطته لجام حصانها، وسألته :

- هل جاءت أخبار عما حدث بأرض زيكولا اليوم ؟

فقال الشاب :

- لا أدري سيدتي، لم أترك البيت قط ..

فقالت :

- أريدك أن تتحرك بين أهالي بيجانا لعل أحدهم قد علم بما دار هناك، وتأتي لتخبرني بما علمته، سأنتظرك حتي تعود يا صفي .

بعدها واصلت طريقها إلى داخل بيتها فانحنت لها فتاة عشرينية كانت تقف علي بعد خطوات من باب البيت قائلة : مرحبًا سيدتي، سأعد الطعام علي الفور ..

فردت أسيل :

- لا أريد طعامًا الآن أيتها الجميلة، فقط حين يأتي صفي ادخليه علي الفور.

ثم صعدت سلمًا خشبيًا إلى غرفتها العلوية، واتجهت إلى شرفتها لتنظر إلى السماء شاردة لدقائق، ثم عادت وجلست علي سريرها، وأخرجت أوراق خالد من حقيبتها الحريرية ووضعتهم بجوارها دون أن تقرأ أي منها، قبل أن تُغلَق جفونها المرهقة ويغلبها النعاس، لم يوقظها إلا صوت الخادمة حين سمعتها تقول: سيدتي لقد جاء صفي، فنهضت، وسألتها أن تدخله علي الفور.

***

دلف صفي إلى الغرفة، وانحني أمامها ثم قال :

- سيدتي لقد نجا ذبيح زيكولا اليوم قبل أن يطيح السياف برأسه ..

فابتسمت أسيل، وأخرجت زفيرًا مريحًا كأن جبلًا انزاح عن قلبها، ثم أكمل :

- لكن هناك خبرًا سيئًا سيدتي .. لقد أعلن حاكم زيكولا خيانتك أمام أهل زيكولا جميعهم ..

فأومأت أسيل برأسها، وقالت :

- كنت أتوقع ذلك، لا يهم، أخبرني، هل جاءت أخبار أخرى عن

الغريب الناجي من الزيكولا ؟

أجابها :

- لا أعلم سيدتي، ولكني أرى أن تتركي بيجانا علي الفور ..

فسألته في تعجب :

- لماذا ؟!

فأجابها :

- إن حاكم بيجانا أكثر الحكام موالاة لزيكولا، وقد بدأ خبر إعلانك خائنة لها في الإنتشار، وسيصل إليه أسرع مما تتخيلين ..

فقالت :

- يكفي زيكولا أنني خرجت منها تاركة كل شئ وعدت إلى بلدي، ما شأن بيجانا بذلك ؟!

قال :

- لقد اختلفت بيجانا كثيرًا مع حاكمنا الجديد، لم تعد بيجانا التي عهدتها من قبل، إن خُيِّر حاكمنا بين كسبٍ ضئيل من زيكولا وبينك، سيكون من الصعب أن تكوني الرابحة .

فصمتت قليلًا ثم قالت باسمة :

- ليفعل القدر ما يشاء، لقد اخترت طريقي، وعلي أن أتحمل عواقبه .

فقال باسمًا :

- حسنًا سيدتي ساكون بالخارج، إن أردتي شيئًا فقط أخبريني .

وغادر، بينما ظلّت أسيل مكانها يشغل بالها ما قاله، و كلّما جال بخاطرها ما قد يفعله حاكم بيجانا أغمضت عينها وتحدثت إلى نفسها :

ليفعل قدرك ما يشاء يا أسيل، ليفعل ما يشاء .

***

(٢)

خائنون جدد

كان أسبوع قد مر علي يوم زيكولا حين وقف يامن أمام جماعة من العمال بالمنطقة الشرقية، وسألهم :

- أتريدون أن تعلموا كيف نجا صديقي من الذبح ؟

فالتفتوا إليه في ترقب، فأكمل مازحًا :

- حسنًا، كم تدفعون من الذكاء مقابل إخباري لكم ؟

فتابعوا عملهم مجددًا دون أن يعيره أحدهم اهتمامه، فضحك واتخذ مكانًا عاليًا، وأكمل جالسًا :

- سأخبركم أيها البخلاء، لقد ابتاعت الطبيبة أسيل أغلى قبلة في تاريخ زيكولا من صديقي .

فارتسمت علي وجوهم دهشةٌ رآها كثيرًا خلال تلك الأيام كلما أخبر أحدهم عن قبلة أسيل إلى خالد، وتساءل عامل متعجبًا :

- قبلة ؟!!

فأجابه :

- نعم، قبلة، لقد أحبت الطبيبة خالد، ولم تشأ أن يكون الذبيح، فأعطته تلك القبلة ليحدث ما حدث أمامكم جميعًا.

- إنها ليست خائنة كما تظنون، كانت محقة بشأن اختيار خالد للزيكولا، كان صديقي أكثرنا فقرًا بالفعل .

فقاطعه عامل آخر في تبرم :

- لا يا صديق. إنها خائنة، إن قوانين زيكولا تمنع أن يتعامل أحدهم مع فقير اختارته الزيكولا، إنها مخالفة صريحة، وجميعنا يعلم ذلك. والطبيبة كانت تعلم ذلك أيضًا .

فواصل يامن :

- وإن كان!، أردت فقط أن أوضح لكم ما فعلته الطبيبة. لقد تركت كل مجدها من أجل حبها.

فصاح عامل ثالث به :

- إنها خائنة، وحاكمنا محق بأمرها، وإن كان قولك صادقًا. لابد أن تنال عقابها ومعها ذلك الحارس الذي سمح لها بزيارة الغريب قبل ذبحه .

وكاد يامن يجيبه فسمع صوتًا يأتي من خلفه ويهمس إليه :

- أنت .. أنت .

فالتفت فوجد فتاة غطت رأسها بوشاح قماشي أسود كان كافيًا ليخفي ملامح وجهها، وقالت حين نظر إليها :

- تعال .

فنهض واتجه إليها متعجبًا :

- أنا ؟

قالت :

- نعم، أنت صديق خالد، أليس كذلك ؟

- بلي ..

فتابعت :

- إنني من سكان المنطقة الشمالية، أنا من أخبرت خالد عن هلال الذي قتل أباه ولم يرث إلا كتابًا .

فقال بصوت عال :

- العاهرة ؟!

فأجابته ببرود :

- نعم ..

فسألها:

- و ماذا تريدين ؟ ولماذا تغطين رأسك ؟

فكشفت وجهها، وقالت :

- لم تعد الطبيبة وحدها الخائنة، لقد أبلغ أحد تجار المنطقة الغربية عن نفق ببيته يتجه نحو سور زيكولا، واعترف خادمه بأن الغريب وأصدقاءه استأجروا منه البيت حتي يعود سيده، وأقر صاحب البيت بأن هناك شابًا استأجر بيته ليلتين مقابل مائتي وحدة من الذكاء ..

فأحمرّوجه يامن محدّثًا نفسه بصوت سمعته الفتاة :

- تكاسلوا عن إغلاق النفق بعد رحيل خالد ؟!! لقد أخذوا أجرهم مقابل ذلك ..

ثم سألها :

- من أخبرك بهذا ؟

فقالت :

- إن أخبار زيكولا جميعها تجتمع كل مساء علي أسرّة المنطقة الشمالية، لقد أخبرني جندي سكّير بهذه الأخبار منذ ساعات .

فسألها :

- ولماذا أتيتِ لتخبريني ؟ ما مقابل هذا ؟

قالت :

- لقد أضاف الجندي أن محققي زيكولا انتشروا في كافة مناطقها يعدّون قائمة بمن أدلي الخادم بوصفهم، وأرسل قائد الحرس مكتوبًا إلى كافة مناطق زيكولا بصفات خالد، وأمر قائد كل منطقة بإحضار كل من رُؤي مع الغريب أكثر من مرة واحدة، ثم أخبرني أن تلك القائمة شملت الطبيبة أسيل، وشابًا يدعي يامن من المنطقة الشرقية، وآخر يدعي إياد من المنطقة الغربية، وفتاة تسمي نادين وشي بها شاب يدعي هلال حين أمسكوا به، وأخبرهم أنها من دلّته عليه وكانت تساعده، وأنه ليس له شأن بل يتمني له الذبح هو وأصدقائه .

ثم أخرجت زفيرا حانقًا، وأكملت :

- لم يعرف الجندي أنني هي .. نادين، ثم تمكنت منه الثمالة، فأخبرني أن أمرًا مكتوبًا عاجلًا قد طار إلى بيجانا لاعتقال الطبيبة إن كانت هناك، وأن الباقين سيكونون نزلاء سجون زيكولا خلال

ساعات كمجرمين من الدرجة الأولى، وغاب في سبات عميق، فلم أجد إلا أن آتي إلى هنا وأخبرك بذلك ..

فاضطرب وجه يامن، ونظر إليها وقال في ارتباك :

- إنني أشكرك أيتها الفتاة، لا تعلمين كم أقدّر تعبك هذا من أجلي، إنني أدين لكِ بحياتي، ثم هم ليغادر سريعًا.

فأوقفته وقالت :

- انتظر، هل تظن أنني قطعت تلك المسافة كي أسمع هذه الكلمات.

فتعجب يامن :

- ماذا تريدين ؟ لا تقلقي لن أشي بكِ، لا أجد تفسيرًا لما فعله هلال معكِ، ولكني أعلم أنكِ بريئة .

فقالت :

- لن يسمع لي أحد بعدما وشي هلال النذل بأنني ساعدتِ خالد، ولن أجازف بحياتي بين أن يصدقونني أو لا يصدقونني، ليس هناك وقتٌ لاختبار عدلهم، وليس لدي النية أن أكون ذبيحة لزيكولا .

ثم أردفت بعدما حدّقت بعينيه :

- لم يعد أمامي أحد أثق به بهذه الأرض سواك، فمنذ هذه اللحظة لن تخطو قدمك خطوة إلا وقدمي بجوارها.

ثم غمزت إليه بعينها قبل أن تقترب من أذنه هامسة :

- إن كنت ستختبئ بعيدًا عن الأنظار، فلن تجد أفضل مني رفيقة لك أيها الخائن .

في ذلك الأوان، كان سوق بيجانا مزدحمًا عن آخره حين دلفت به أسيل تركض وراء رجل قصد بيتها متوسلًا إليها لتنجد زوجته التي سقطت بالسوق فاقدة وعيها، ولما انتهت من إفاقتها كان الزحام من فوقها قد صار هائلًا فرفعت إليهم رأسها وابتسمت وهي تجلس على ركبتيها، قبل أن ينحسر الزحام من حولها سريعًا ويتحول صخب السوق إلى صمت مفاجئ عندما ظهر أمامها قائد عسكري مع جنوده، قال لها:

- لقد صدر أمرٌ نافذٌ باعتقالك سيدتي واقتيادك إلى السجن الغربي حتى تفتح زيكولا بابها بعد سبعة أشهر.

***

(٣)

عهد مينجا

كان السجن الغربي أكبر سجون بيجانا .. قسّمه مهندسوه إلى قسمين ؛ أحدهما بناء حجري من طابقين مقسمين إلى زنازين ضيقة متجاورة للرجال والنساء أمامها ممر واسع، يفصله سور حديدي عن قسمه الآخر تلك الساحة الواسعة التي عُرفت أنها للسجناء الأكثر خطرًا، أحاطهما سور صخري تجاوز ارتفاعه ثلاثين قدمًا، تراص عليه جنود كثيرون بسهامهم علي مسافات متقاربة .

وفي زنزانتها شبه المظلمة جلست أسيل لا تحرك ساكنًا، تدور أيامها السابقة أمام أعينها دون توقف ولايكف عقلها عن الضجيج، تشعر أن الزمن قد صار عدوّها منذ دلفت إلى هذا المكان، لتمر دقائقها كساعات وساعاتها كسنوات مكثت بها جميعًا تحملق بالفراغ المظلم أمامها، ثم فتّح باب زنزانتها مع بزوغ النهار، وظهر أمامها جندي حاملًا لطعام ردئ، وقال أن بابها سيظل مفتوحًا حتي غروب الشمس فأومأت برأسها دون أن تنبس بكلمة، وغابت في شرودها من جديد .

***

يوم بعد يوم صارت أيامها متشابهة، لا تغادر زنزانتها إلا قليلًا ثم تعود لتمكث بأحد أركانها وسط شرودها وذكرياتها، لا تتحدث إلى أحد، ولاتأكل من الطعام إلا مايسكت بطنها الصارخة جوعًا، قبل صباح

ذلك اليوم حين استيقظت على جلبة لم تعتدها منذ وجودها بهذا السجن، ثم فُتح باب زنزانتها وخرجت لتري ما يحدث ففوجئت بساحة السجن الكبري قد امتلأت بالكثيرين من البشر رجالًا ونساءً، شبابًا وشيوخًا، يتجاوز عددهم المئات، مبتلة ملابسهم وشعورهم بزيت لمع مع آشعة الشمس، واجتمعوا جميعهم داخل دائرة جيرية حُددت وسط الساحة الواسعة، ونظرت إلى الجنود أعلي سور السجن فوجدت أعدادهم قد تضاعفت عن أيامها السابقة، ثم سمعت صوتًا يحدثها :

- إنها المرة الأولى التي تتركين بها زنزانتك في هذا الوقت المبكر..

فالتفتت لتجد رجلًا أربعينًا أشيب الشعر ابتسم حين التفتت إليه قائلًا :

- لا تقلقي، أنا جارك هنا .

وأشار إلى زنزانة مجاورة مفتوح بابها فقالت أسيل :

- مرحبًا سيدي ..

ثم نظرت بعيدًا إلى باب السجن الضخم الذي كان يمر منه صف من السجناء ليقف كل منهم لثوانٍ فيسكب عليه جندي تواجد أعلي الباب قدرًا من الزيت ثم يكمل مروره بعدما يأمره جندي آخر بذلك ليأخذ سجين آخر مكانه أسفل الزيت المسكوب، فسألت أسيل هذا الرجل بجوارها في دهشة :

- ماذا يحدث ؟! ولماذا سُجن كل هؤلاء ؟!

فأجابها الرجل هادئًا :

- إنه عهد مينجا.

فقال في تعجب :

- عفوًا، لم أفهم ..

وأكملت :

- سامحني، لم آتِ إلى بيجانا إلا منذ أيام قليلة .

فابتسم الرجل وقال :

- أعرف من أنتِ، جميع الأخبار تأتيني هنا، إن لي فضلًا علي كثير من الجنود هنا ..

وأردف :

- سيدتي الطبيبة، إن بيجانا قد أنهكت بالحروب التي خاضتها، وعوضًا عن اهتمام حكامنا باصلاح ما اتلفته الحروب اهتموا بتعزيز سلطانهم دون غيره، فرحل حرفيوها وأذكياؤها إلى بلاد أخرى، وعام تلو الآخر لم تعد هناك سلعة تنتجها بيجانا، حتي ما تنتجه من زيوتٍ أصبحت بالكاد تكفي أبراجها وسجنائها إن احتاجت لذلك ..

وأشار بعيدًا إلى سجينة .أسفل باب السجن أُغرِقت ملابسها وشعرها بالزيت بعدما سُكِب عليها قدر من أعلي، ثم أشار إلى جنود متراصين بسهامهم.أعلي السور .. وأكمل :

- هؤلاء من تزايدوا فقط، الفقراء والجنود ..

ووثب قلب أسيل حين رأت سجينًا شابًا ينطلق بغتة خارج الدائرة التي حُددث لهم، ويركض نحو السور الحديدي الفاصل بين قسمي السجن ليتسلقه، ثم فوجئت بسهم مشتعل أُطلق من أعلي ليخترق جسده ويشعله بالكامل دون أن يقترب منه أي سجين آخر خشية أن

تطوله النيران حتي سقط جثة هامدة، فصرخت في ذهول، فقال الرجل:

- أظن أنكِ رأيتِ لماذا يبتل هؤلاء بالزيت، من يخرج عن الدائرة يحترق ..

ثم تابع :

- لقد رأي حكامنا أن الطريقة المثلي لإطعام خمسمائة ألف بيجاني تتمثل في السمع والطاعة لغيرها من الأقوياء، وأن نستدين حتي يأتي يوم ويصبح حالنا أفضل فنرد هذا الدين .

وكما تعلمين، زيكولا لم تكن لتعطينا ثمرة واحدة، فاكتفينا منها بالسمع والطاعة، في الوقت الذي رحبت بنا أماريتا، وأصبحت تديننا كل شئ منذ سنوات عدة، حتي قيل أن بيجانا تحتاج تلالًا من الذهب كي ترد تلك الديون ..

وأشار إلى سجناء الساحة وقال :

- وقد جاء وقت السداد ..

فسألته أسيل غير مصدقة :

- بشر؟!!

فأومأ الرجل وقال :

- نعم، لقد امتلأت سجون بيجانا بالفقراء بعد رحيل رسول أماريتا الذي جاء إلى بلادنا قبل أيام، وجميعهم الآن في طريقهم إلى هذا السجن كي يُرَحلوا إلى أماريتا غدًا ..

لقد قرر الحاكم أن يضحي بفقراء بيجانا حتي يعيش باقي أهلها،

ووافق علي انضمام بلادنا إلى عهد مينجا، أو مايسمي في بلدان أخرى اتفاقية البشر مقابل الديون ..

ستسدد بيجانا ديونها إلى أماريتا ألف فقير يُرّحلون إليها كل عام ..

فقالت أسيل :

- يريدون أن تسري بين الناس لعنة الخوف من الفقر مثل زيكولا ؟!

أجابها الرجل :

- نعم، أمام فقراء بيجانا أن يعملوا ويكوّنوا ثروة أو يدخلوا هذه الدائرة مُبتلين بالزيت بعد عام .

***

(٤)

فتاةٌ خائفة

في زنزانتها، جلست أسيل تفكر بما قاله جارها السجين وبهؤلاء الفقراء الذين صاروا عبيدًا بغير حق، تمتلئ عيناها بالدموع كلّما تذكرت نظراتهم الواهنة، وتضع رأسها بين كفيّها إن شمّت رائحة لحم يحترق، كانت تدرك جيدًا أنه لفقير حاول الهرب، ثم خرجت مجددًا أمام زنزانتها لتجد الساحة قد امتلأت عن آخرها بفقراء كسا الضعف والوجوم وجوههم مع اقتراب غروب الشمس، ووقع بصرها علي فتاة شاحبة بينهم امتلأت عيناها بالخوف، وقالت في نفسها وهي تنظر إليها :

- أيتها الجميلة، إنكِ أفضل حالًا من سجينة تعلم أنها ستذبح بعد أشهر، فلا تدري هل تسأل أيامها أن تسرع أم تبطئ من مرورها، اللعنة علي بلد باعت أبناءها .

ثم عادت إلى زنزانتها وأغلق الحارس بابها، وانسدل ظلام الليل لتهدأ ضجة الساحة الخارجية ويشتعل ضجيج تفكيرها ..

***

وكان السجين الأربعيني يجلس بزنزانته في صباح اليوم التالي حين فوجئ بأسيل تدلف إليه فأعتدل في جلسته مندهشًا، فابتسمت والأمل يملأ وجهها عن يومها السابق، وجثت علي ركبتيها بجواره وقالت :

- لقد سألت نفسي بالأمس لماذا تستسلم فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ؟!

رغم أنها أحبت شابًا لم يعرف طريقًا للاستسلام قط حتي وصل إلى مبتغاه ، كأنه أعطاها درسًا مسبقًا عما هي فيه .

فقاطعها السجين متعجبًا وفرحًا بسعادتها الظاهرة :

- سيدتي .. ماذا تريدين ؟!

فاقتربت برأسها، وهمست إليه :

- أريد أن أعبر السور الحديدي إلى فقراء بيجانا..

فسألها مُندهشًا :

- تريدين الذهاب إلى أماريتا ؟!

أجابته باسمة :

- نعم ..

فسألها مازحًا :

- هل سيلحق بكِ فتاكِ الذي تحدثتِ عنه إلى هناك ؟

قالت :

- لا .. لقد رحل، ولكنه لو كان هنا لما تركني أنتظر يوم ذبحي وهناك فرصة واحدة لنجاتي،

وأردفت :

- لا أحد يعلم مصير هؤلاء الفقراء في أماريتا، لذا لم يهدأ تفكيري طوال الليل، قد يكون مصيرًا أفضل من الذبح أمام أهل زيكولا .

وتابعت وهي تنظر في عينه مباشرة :

- لقد أخبرتني بالأمس أنك تعلم الكثير عن الحراس هنا، بل يدين أكثرهم إليك بأفضالٍ، أريد أن يدخلني أحدهم إلى الدائرة، ووسط هذا الزحام لن يدري أحد بوجودي .

ثم أخرجت سوار ذهبي كان يحيط معصمها حين دلفت إلى السوق يوم أُعتقلت وظل معها، وقالت :

- قد يفيد هذا مع بدء الخوف من الفقر..

فنظر الرجل إلى سوارها صامتًا ثم هز رأسه وقال بعد لحظات :

- حسنا، اتركيني الآن .

***

مُرت ساعات قليلة، كانت أسيل تنتظر بها أن يأتيها السجين بالرد، وصار قلبها يدق أملًا للمرة الأولى بالسجن الغربي، وجال بخاطرها فجأة خالد حين جلسا سويا أمام البحيرة يحلّان لغز كتابه معهم يامن .. فابتسمت وحدّثت نفسها ؛ لن أستسلم يا خالد، ثم نهضت في حماس وكأنها لا تطيق الانتظار، وتحركت إلى زنازين مجاورة فوجدت سجينة في حجمها ترتدي معطفًا قديمًا مبطنًا بالفراء ذا قلسنوة، يتدلي من أسفله فستان قديم مُرقّع بهتت صبغته الرمادية، فدلفت إليها وسألتها:

- هل لي أن أبدّل ثيابي معكِ ؟

فدُهشت السجينة، ونظرت إلى فستان أسيل الثمين الذي لم يؤثر السجن علي رونقه، ونظرت إلى ثيابها البالية وسألتها :

- هل أنتِ جادة ؟!

فهزت أسيل رأسها وقالت :

- نعم .. هل توافقين ؟

فأجابتها السجينة :

- بالطبع .. وكادت تنزع معطفها ..

فقالت أسيل باسمةً :

- ليس الآن .. أريدك أن تأتي إلى زنزانتي قبل أن تُغلق الأبواب مع غروب الشمس .

فأومأت السجينة فرحةً وغادرتها أسيل، ثم وقفت برهة بالطرقة أمام الزنازين، ونظرت إلى الساحة الممتلئة عن آخرها بالفقراء، كانت الدائرة الجيرية قد اتسعت لتصبح حافتها ملاصقة للسور الحديدي الفاصل بين قسمي السجن، ثم تحركت إلى زنزانة الأربعيني فلم تجده بها، فاتجهت إلى زنزانتها في انتظاره، ومرت ساعات أخرى دون أن يظهر، غيرأن صاحبة الثياب البالية لم تخلف ميعادها .

***

أغلقت الأبواب مع غروب الشمس، ولم يظهر جارها السجين، فجلست صامتة بفستانها الرمادي البالي، وأسندت رأسها إلى الحائط واضعة يدها علي معطفها المتسخ المكوّم بجوارها، وحدّثت نفسها في خيبة أمل :

- سيغادرون الليلة .

ثم مضي وقت قليل فنهضت واقتربت من النافذة الضيقة المُغلقة بقوائم حديدية رفيعة، ونظرت عبرها إلى السماء وأطالت نظرتها، قبل أن تتسارع دقات قلبها حين مرت غيامة أخفت معها نجوم السماء إلا نجم واحد ظل يلمع بقوة دون غيره، فنطقت في ذهول :

- أسيل النجم !! خالد !!

و لم تكمل كلماتها حتي سمعت باب زنزانتها يصدر صريره ويُفتح ويظهر رأس حارس لم تره من قبل، وهمس إليها :

- مستعدة للرحيل ؟

فأجابته علي الفور :

- نعم ..

فأكمل :

- أين ذلك السوار الذهبي ؟

فدسّت يدها بمعطفها المكوّم، وأخرجته وأعطته له :

- ها هو..

فلمعت عيناه وقال :

- لا تعلمين مدي حاجتي إليه.

ونظر إلى ملابسها :

- تعجبني ثيابك.

ثم مسح يده المتسخة بوجهها فتركت أثارًا سوداء علي خديها، وأكمل :

- تبدين مُترية مثلهم الآن، عليكِ أن تسرعي ..

فالتقطت أسيل معطفها وارتدته، وغطت رأسها بقلنسوته الكبيرة، وأسدلتها علي جبهتها فأخفت ملامح وجهها ثم سارت خلف الحارس مطأطاة الرأس، ونظرت إلى الزنزانة المجاورة فوجدت جارها السجين يبتسم خلف نافذة بابه الحديدي، ويلوح لها بيده مودعًا، ويشير إليها أن تكمل فحثّت من خطاها، ثم اقترب الحارس بها من ثلاثة أشخاص آخرين معهم حارس آخر، وتحدّث إليه باكتمال الأربعة الذين أمر بهم قائد الحرس أن يُرّحلوا مع سجناء الساحة إلى أماريتا، وانتهى من كلماته ففوجئت أسيل بقدر من الزيت البارد ينسكب فوقها، بعدها سارت مع الثلاثة الآخرين نحو باب صغير بالسور الحديدي الفاصل، وما إن عبرته وأغلق من خلفهم حتي كُبلت يدها بيد فتاة أخرى حين أبصرت ملامحها بطرف عينها وجدتها نفس الفتاة التي رأت الخوف بعينها يومها السابق، ثم شعرت برعشة جسدها وسمعت بكاءها مع حلول وقت الرحيل، فمدت أسيل يدها اليسرى لتمسح دموعها عن وجهها، وهمست إليها :

- ستعودين يوما ما يا رفيقتي .

فالتفتت إليها الفتاة، وحدقت بملامحها التي ظهرت فجأة مع إزاحة الهواء لغطاء رأسها قليلًا، ونطقت في دهشة :

- الطبيبة أسيل ؟!! ماذا جاء بكِ إلى هنا ؟! أتدمين معنا إلى أماريتا؟!

فأجابتها هامسة بعدما غطت رأسها :

- نعم ..

فأكملت الفتاة بصوتٍ خافت :

- ولكنك لستِ فقيرة مثلنا ! ..

فصمتت أسيل برهةً ثم سألتها :

- هل لكِ أن تكتمي سرًا ؟

فأومأت الفتاة إيجابًا دون أن تتحدث فقالت أسيل :

- إن أماريتا سبيلي الوحيد الآن إلى سرداب فوريك .

***

(٥)

القافلة

كان وقت ترحيل السجناء إلى أماريتا قد حان، وأمام باب السجن تلاصق مئاتُ من الجنود بخوذهم وسيوفهم ودروعهم مانعين أي من أهل بيجانا الذين تجمعوا خارج السجن أن يقترب من بابه الخارجي، ومفسحين الطريق لعرباتٍ خشبية ضخمة كان يجر كل عربة منها ثلاثة أزواج من الخيول يقودهم جندي يشق سوطه الهواء، وفي صناديقها الخشبية ثُبتت أغلال حديدية علي مسافات متساوية . .

وحين توقفت العربة الأولى أمام باب السجن أسرع إليها ثلاثة من الجنود، اعتلي اثنان منهم صندوقها بينما وقف الثالث مجاورًا لسلم فولاذي ثبّته بمؤخرتها، بعدها أمر قائد الحرس أن يتحرك السجناء فأُطلق بوقًا أعلي سور السجن..وبدأ السجناء يتحركون أزواجًا مُكبلة اليدين والقدمين بين صفين من حراسٍ تراصوا بدروعهم ورماحهم صانعين ممرًا طويلًا بين ساحة السجن والعربات بالخارج، وكان الجندي الذي يقف عند مؤخرة العربة يسجّل بأوراقه علامتين مع كل زوج يصل إليه من السجناء، قبل أن يلتقطهما الجنديان الآخران أعلاها ويكبلا أغلالهما بأغلال العربة المثبتة، ثم يشيران إلى جندي الأوراق كي يمرر إليهما زوجًا آخر ليكبّلاهما كما كبّلا سابقهما، حتي امتلأت العربة الأولى، ورفع أحد الجنود راية بيضاء، فحمل جندي الأوراق السلم الفولاذي متجها إلى عربة أخرى بينما ظل الجنديان

الآخران مع السجناء أعلي العربة التي تحركت إلى الأمام لتحل محلها عربة أخرى .

***

امتلأت العربات عربة تلو الأخرى، واصطفت في صف واحد علي امتداد سور السجن في انتظار العربات الباقية. ثم تقدمت أسيل مُكبلة يداها اليسرى وقدمها مع الفتاة الخائفة، وسارت مطاطأة الرأس تخفي وجهها يغطي رأسها قلنسوة معطفها، ووصلتا إلى مؤخرة عربة، وكادتا تصعدان سلمها الفولاذي فصاح جندي الأوراق بأسيل :

- لماذا تخفين وجهك ؟

فأسرعت الفتاة ونظرت إليه، وتحدّثت في دلال متجاهلة سؤاله لأسيل :

- أنظر ماذا فعلت قيودكم بقدمي ..

ثم كشفت عن ساقها وفخذها كاملًا فلمعت عيناه، وكاد يمد يده ويلامسه فصاح به قائده كي يسرع فسجل بأوراقه علامتين حانقًا، ثم التقطهما جنديا العربة وكبّلاهما بقيد حديدي مُثبت بجانبها، وأسرعا إلى سجينين آخرين، فهمست الفتاة إلى أسيل ضاحكة :

- الرجال هم الرجال .

ثم تابعت :

- قمر، اسمي قمر..

فابتسمت أسيل، وهمست إليها :

- أدين لكِ بحياتي الآن يا قمر..

فقالت الفتاة مازحةً:

- عليكِ أن تتذكري هذا لاحقًا ..

ثم رُفِعت الراية البيضاء أمام العربة بعدما امتلأت، فتحركت قليلًا للأمام لتحل محلها عربة نقل السجناء الأخيرة التي انتهت هي الأخرى مع منتصف الليل ..

بعدها امتطي قائد الحرس جواده ودار حول العربات وتفقدها بعينه سريعًا، وصاح بصوت رخيم بأن يستعد الجميع للرحيل، فرُفِعت راية سوداء كبيرة بالعربة الأولى، وأطلقت الأبواق مجددًا، وأغلِق باب السجن الرئيسي، وامتطي الجنود خيولهم، والتفوا حول العربات ليكوّنوا إطارًا بيضاويًا مزدوجًا بأجساد خيولهم. تفصل بينهم أقدام قليلة، وأمسكت يد كل منهم سوطًا هوي علي جسد من اقترب من أهل بيجانا دون أن يفرّق بين شيخ أو طفل أو امراة، وبدأت العربات تتحرك رويدًا رويدًا، تحتشد كل منها بأجسادٍ مُكبلة، تنظر إلى بعضها البعض وإلى سماء بيجانا التي بدأت تمطر حزنًا مع بكاء سجيناتها ووجوم سجنائها ونحيب نسائهم وشرود نظرات أطفالهم، وغادرت القافلة بيجانا في لحظةٍ كانت الأكثرقسوة في تأريخها.

***

سارت القافلة في إتجاه الجنوب، عشرون عربة خشبية، كانت مقدمة كل منها تحمل شعلة زيتية، وأحاط بهم مئات من الجنود علي جيادهم، يحمل بعضهم شعلاًمماثلة، وكانت أسيل تجلس بالعربة قبل الأخيرة وبجوارها قمرالتي قالت لها:

- اكشفي وجهك إن أردتي، لقد تركنا بيجانا، وهذان الجنديان ومن معنا من فقراء العربة ليسوا من المنطقة الغربية، لا أعتقد أنهم

سيعرفونك ..

فكشفت أسيل رأسها، ولامست وجهها قطرات من المطر، فسألتها قمر:

- هل تعرفين أماريتا تلك ؟

- لا .. إنني لم أعرف إلا بيجانا وزيكولا .

- أنا أيضا لا أعرفها، إنني لم أترك بيجانا قط، سمعت أنهم يقولون أنها بعيدة للغاية ..

- نعم، سمعتُ هذا أيضًا ..

- هل تعلمين ماذا سيفعلون بنا في أماريتا ؟

- لا ..

ثم نظرت أسيل إلى السماء بعدما انتهت أمطارها وعاد صفاؤها فوجدت أسيل النجم، فابتسمت وقالت لقمر فرحةً :

- أنظري إلى هذا النجم اللامع ..

فردت قمر متعجبة من فرحتها :

- ماذا به ؟!

- لقد سماه حبيبي أسيل، وها هو يرافقني ..

فضحكت قمر:

- هناك حبيبٌ إذن ..لابد أن أعرف القصة ..

فقالت أسيل باسمة :

- لا تتعجلي .. يقولون إن طريقنا طويل، لن يكون لدينا أكثر من الحديث .

فقالت قمر في خيبة أمل :

- إنني لم أحب بعد .. تجاوزت العشرين ولم أحب، مأساة أليس كذلك ؟!

فابتسمت أسيل وأكملت حديثها إليها ..

ومر مزيد من الوقت أكملت معه القافلة مسيرتها نحو الجنوب، وزادت برودة الجو فتلاصق السجناء مرتجفين رجالًا ونساءا، يستعيرون دفء بعضهم البعض، ولم يتوقف صفير الرياح عن دويّه وسط ظلام الطريق، تراقصت معه نيران المشاعل لتظهر وجوهًا ذابلة كساها التعب، وشفاه مشققة آثرت أن تصمت، وجفون مرهقة غلبها النعاس فسقطت، عدا أسيل التي ظلّت تراقب نجم السماء دون أن تفكر بشئ آخر، بينما نامت قمر علي كتفها .

***

كانت الرياح قد هدأت مع بزوغ فجر اليوم التالي وسطوع شمسه، وملأت أسيل صدرها بهواء مُنعش كان قادمًا من مسطح مائي رأته عينها علي امتداد بصرها، ودق قلبها حين قال أحد الجنديين للآخر:

- انظر.. إنه بحر مينجا، لن تراه كل يوم .

وواصلت العربات تقدمها في طريقها إليه، ثم اقتربت منه فانحرفت لتسير موازية لشاطئه فأبصرت أسيل سفينة كبيرة انتصب بأوسطها صارٍ طويل لُف ثلثه الأعلي بشراع قماشي كانت تقف مجاورة لجسر

خشبي طويل شق ماء البحر متعامدًا عليها، وعلى شاطئ البحر اصطف عدد من الجنود الغرباء كان مماثلًا لمرافقي قافلتها، يتقدمهم قائد شاب تقدم إليه قائد الحرس البيجاني ما إن رآه، ثم تبادلا أوراقهما، بعدها تفقد القائد الشاب العربات بجواده ثم أشار إلى جنوده الذين أفسحوا الطريق لتتحرك العربة الأولى إلى الجسر الخشبي في إتجاه السفينة، وعبرت لوح خشبي سميك مائل ثُبِت بينه وبين السفينة لتأخذ مكانها أعلاها ثم خُلّت خيولها، وعاد بهم قائدها مع جنديَ العربة، لتتحرك عربة أخرى وتأخذ مكانها بجوار العربة الأولى، وتعود خيولها إلى الشاطئ مع قائدها وجنديها هي الأخرى.. ثم نهضت قمر وتلفتت حولها في دهشة بعدما وجدت ذلك البحر وتلك السفينة، وسألت أسيل :

- أين نحن ؟

- إنه بحر مينجا، كما سمعت ..

- إنها المرة الأولى التي أرى بها بحرًا.

ثم أشارت إلى السفينة العملاقة:

- ما هذا ؟

- إنها السفينة التي ستحملنا إلى أماريتا .

- هل ستحمل القافلة جميعها ؟!!

- يبدو كذلك .

أجابتها أسيل شاردة كأنها لم تتوقع أن تكون أماريتا بعيدة إلى هذا الحد، وظلت تنظر إلى العربات التي تتحرك إلى السفينة فتعود الخيول وحدها مع جنودها، ثم حركت عينيها إلى البحر الذي لا تظهر له نهاية.

واكملت شرودها حتي لسع قائد العربة خيول عربتها بسوطه. فتحركت بهم تجاه السفينة، وعبرت اللوح الخشبي ثم توقفت أعلاها مجاورة لعربات أخرى محملة بسجناء آخرين، وقفز جنديا العربة، وعادا بخيولها مع قائدها، ثم تبعتها العربة الأخيرة، فانتشر الجنود الأماريتيون حول العربات وثبّتوا عجلاتها بحلقات معدنية كبيرة تناثرت بسطح السفينة، وأزيل اللوح الخشبي بين السفينة وجسرها، وبأعلي السفينة وقف القائد الأماريتي الشاب، وودع قائد الحرس البيجاني الذي اصطف بجنوده علي الشاطئ، قبل أن يلتفت إلى العربات المتراصة حول صارى السفينة، ويصيح بصوته إلى رجاله :

- فلترفع الأشرعة إلى أماريتا .

***

(٦)

أماريتا

أشرقت شمس اليوم الخامس، وكانت سفينة السجناء لاتزال تشقّ بحر مينجا، وزادت أسيل تعبًا بعدما أصابها دوارٌ لم تشعر بمثله من قبل،كانت تسمع عن دوار البحر لكنها لم تدرك أن يكون بهذه الشدة، وبكت امتعاضًا بعدما تقيأ عليها أكثر من سجين وأُغرِق شعرها ووجهها ومعطفها بقيئهم ورائحته العفنة، هي وقمر التي استسلمت للنوم دون أن تعبأ بتلك الرائحة أو رائحة البول المنتشرة بالعربة، ثم أيقظتها أسيل حين ظهرت هضاب ريكاتا في الأفق ..

كانت هضاب ريكاتا الحصن الشمالي الحقيقي لأماريتا، غابة من هضاب كثيرة انتصبت عمودية وسط بحر مينجا لتصنع بينها ممرات مائية متشعبة ومتداخلة عُرفت بمتاهة ريكاتا، بينها ممر وحيد آمن يتبدل مع الطقس، لايعرفه إلا قادة أماريتا وبحاروها، مَن يضله مصيره الغرق لا محالة حيث دوامات مينجا العنيفة التي تظهر وجهه الغاضب،كما هو الحال خارج تلك الهضاب، أما سفن التجارة الغير أماريتية فكانت ترسو بمرفأ أنشئ عند الهضبة الأولى، وتبادل تجارتها مع سفن أماريتية تجوب تلك المتاهة من وإلى أماريتا ..

***

دلفت السفينة نحو الهضاب، وقلّت سرعة إبحارها بعدما نُكِّس شراعها الرئيسي وأُسقِطت مجاديفها إلى الماء، وعبرت أولى هضابها لتنحرف شرقًا وتعبر عددًا من الهضاب والممرات المائية الضيقة المقاطعة، ثم دارت ببطء حول هضبة كانت أقل طولًا من مثيلاتها لتنحرف وتتخذ ممرًا متعرجًا بين هضاب أخرى في إتجاه الجنوب الغربي، ثم عبرت غيرهم وانحرفت في إتجاه الجنوب الشرقي، وكانت أسيل تتشبث بمن حولها وبأخشاب العربة التي اهتزت مع انحرافات السفينة، ومعها قمر التي تكوّمت والتصقت بها، ونظرت بطرف عينها في خوف إلى الهضاب الشاهقة المتناثرة وسط الماء، ثم اقترب منهما بحار عجوز اعتلي العربة بوعائه ليسقي سجناءها، وحين رأي خوفهما انحني وهمس إليهما :

- لا تخافا، إنها متاهة ركاتا ..

فقالت قمر:

- أشعر أننا ندور في الدائرة ذاتها، ماذا لو لم نستطع عبور المتاهة ؟

فضحك العجوز وقال :

- إن بحارى أماريتا يعلمون طريقهم إلى بلدهم، وتابع :

ستعلمان لاحقًا أن هذا الممر أحد أسرار قوة بلادنا، وأردف :

- لا أحد يعرف هذا الممر جيدًا غير قادتها وبحاروها، حتي هؤلاء الجنود علي السفينة إن تركتهم هنا لن يستطيعوا إكمال طريقهم ..

فقاطعته أسيل :

- ربما لأنهم أغبياء ..

ونظرت إلى سجناء العربات الأخرى المحدقين بأعلي الهضاب، وأكملت :

- كان عليكم أن تغمضوا أعيننا، لقد رأي الجميع كيف تمر هذه السفينة، وقد يفشي أحدهم هذا السرحين يغادر.

فضحك العجوز مجددًا :

- يغادر؟! لا أحد يغادر..

ثم تابع وهو ينهض :

- سيتبدل هذا الطريق بحلول الليل ..

***

عبرت السفينة هضاب ريكاتا، وواصلت إبحارها لأربعة أيام أخرى ليظهر أمام أعين السجناء شاطئ أماريتا ومعه الكثير من مراكب الصيد التي رست بالقرب منه، ثم اقتربت من جسر خشبي شق طريقه من الشاطئ إلى الماء مثل جسر الجانب الآخر، وأبطأت لترسو متعامدة عليه، ورفع بحاروها مجاديفهم، وثبّتوا حبالها السميكة بمرساها بعدما ألقي آخرون غطاسها بالماء فاستقرت تمامًا، ثم ثُبت لوح خشبي مائل بينها وبين الجسر.

وكان القائد الأماريتي قد أمر بتحرير أغلال السجناء فصعد كل عربة زوج من الجنود وحرروا أغلالهم، ثم ترجلوا وتحركوا مصطفين نحو اللوح الخشبي، واحتشدوا علي شاطئ البحر محاطين بفرسان أماريتا، ثم بدأوا في تقدمهم نحو المدينة علي أقدامهم، وبينهم أسيل التي حدّقت بباب المدينة المغلق أمامهم وسورها الصخري الضخم علي جانبيه، فاشتعل عقلها بأسئلته إليها: إن كان قرارها صائبًا بمجيئها

هنا، وإن كان سجنها مدي الحياة خلف هذا الباب أفضل حقًا من ذبحها علي منصة زيكولا، ولم يشغل بالها ذلك السجين الذي أغرقها بقيئه مجددًا، ولا قمر التي تشبثت بذراعها وظلت تثرثر خائفةً عن مصيرهما المجهول ..

***

كان باب أماريتا أكبر من بابي زيكولا وبيجانا معًا، بابٌ فولاذي نُقشت عليه رموز لم تستطع أسيل أن تفسرها ما إن فُتح من الأسفل إلى الأعلي حتي اندلعت علي وجهها الدهشة بعدما استحالت صحراء الشاطئ خلفه إلى ساحات شاسعة من الخضرة والبساتين علي الجانبين، بينهم طريق واسع ممهد امتد إلى مبانٍ بدت أكثر تناسقًا مما رأته في أي بلد آخر.

وسار الجميع ورحيق زهور البساتين يُنعش صدورهم، لوحة من الجمال رسمتها خضرة البساتين والطيور المحلقة فوقها اكتملت بالمباني التي تلوّنت بألوانٍ مبهجة أمام أعينهم وأهل تلك المدينة الذين خرجوا إلى جانبي الطريق يرحبون بهم ترحابًا كان مفاجئًا، فكان الجميع يلوّحون إليهم بأياديهم، وما إن تقع عينا سجين علي أحدهم حتي يسرع بقوله "مرحبًا" ، وامتلأت النوافذ برجال ونساء وأطفال كانوا يصيحون مُرحبين ما إن تمر المسيرة أمام بيوتهم ثم يسرعون إلى الشارع ليسيروا بجانبهم، فبدأت الإبتسامة تظهر علي وجوه بعض السجناء وبينهم قمر التي تعجبت من تهامس فتيات تلك المدينة وإشارتهن إلى بعض رجال بيجانا، ثم بدأت الموسيقي تدوي في الأرجاء بعدما انضم عازفون إلى مسيرتهم، وتراقصت معها بعضٌ من فتيات أماريتا وبدأن في الغناء مرحبين بالسجناء ..

كان الجميع يتحركون سويا، لا يفصل بين غرباء بيجانا وأهالي أماريتا إلا قلة من الفرسان تواجدوا من أجل تنظيمهم فقط دون أغلال أو قيود يقودهم القائد الشاب علي جواده أمامهم، أما أسيل فاختفت بسمتها بعدما جال بذهنها تشابه تلك اللحظات مع يوم زيكولا الذي طالما بدأ بالغناء والرقص وانتهى بذبح أحدهم، ثم قاطعت شرودها قمر حين حدّثتها بصوت عالٍ : انظري، وأشارت أمامها إلى قصر ضخم ذي شرفات عدة لمعت واجهته الرخامية مع آشعة الشمس، أمامه ساحة واسعة أُحيطت بسور من ألواحٍ رخامية رفيعة تراصت بين أعمدة صخرية نُحتت علي مسافات متساوية. كانت المسيرة في طريقها إليه .

***

وصلت المسيرة إلى باب ساحة القصر ودلفت إليها، وعلت الموسيقي بعدما التف العازفون حول تمثال رخامي توسط الساحة كان لمحارب بارز العضلات ترفع يده اليمنى سيفًا شق نصله الهواء، وتتدلي بجواره يده اليسرى ممسكة برأس منحوت دون جسد، فزادت همهمة السجناء، ثم أمرهم القائد الأماريتي أن يتقدموا الصفوف الأمامية بالقرب من القصر بينما مكث أهل أماريتا بالصفوف الخلفية، ثم أُغلق باب الساحة، وتحركت ألواح السور الرخامية الرفيعة حركة ربع دائرية في تناسق لتغلقه، فعُزِلت الساحة عن خارجها، وصمتت الموسيقي بعدما أُطلق بوقٌ من إحدى شرفات القصر الجانبية صمت معه الجميع علي الفور، ثم ظهر بالشرفة الوسطي شاب طويل القامة قوي البنيان قصير الشعر يرتدي ثيابًا عسكرية، فصاح أهل أماريتا هاتفين بحماس شديد لدقائق فحياهم بيده اليمنى باسمًا، و أدركت

أسيل أنه الصورة البشرية للتمثال الذابح لأحدهم مع همسات قمر إليها بأنه الملك، ثم هدأت الساحة في انتظار حديثه إلى فقراء بيجانا .. فقال :

- أعلم أنكم منهكون للغاية، لا تقلقوا لن أطيل عليكم، أردتُ فقط أن أرحب بكم كملك لهذا البلد، وأخبركم بأمور لابد أن تعلموها في يومكم الأول ..

كان صوته يصل واضحًا إلى الجميع مع إغلاق الألواح الرخامية، وتابع :

- منذ عبوركم هضاب ريكاتا، وأصبحت أماريتا بلدكم تخضعون لقوانينها، لستم عبيدًا، إنما أنتم أهلنا الجدد .

بعد حديثي سيحلّ كل منكم ضيفًا علي أماريتي لمدة ستة من الأشهر يتدبر بها الأماريتي لضيفه مأكله ومشربه ..

بعد أشهركم الستة الأولى لن يحق لأماريتي أن يستضيف أيًا منكم، وإلا سيعاقب، ولن يطعمكم أحد، المنحة من غير الملك جريمة .

سينال كل منكم رقمًا موشومًا علي كتفه طبقًا له سيُحدد مضيفه وعمله، لا يسمح لأحد بعمل آخر غير الذي حُدد برقمه ..

بعد عام من اليوم ستدفعون ضرائبكم إلى أماريتا مائة قطعة نحاسية، من يدفع ضرائبه يكمل حياته حرًا ومن لا يدفع يصير عبدًا يُباع في سوق العبيد وتنال أماريتا ثمنه، فليسعَ كل منكم إلى حريته .

سترحلون عن أماريتا بعد عشرة أعوام كما جئتم اليوم .. دون مال، ولن يرحل أحد قبل ذلك، ولا رحيل للعبيد، ولاحقوق لهم .

ثم نظر إلى أهل أماريتا بالصفوف الخلفية، وقال :

- أهل أماريتا فلتكرموا ضيوفكم، لقد عانوا كثيرًا في بلدهم .

فهتفوا باسمه وطال هتافهم، وتعجبت أسيل حين وجدت نظرة الرضا قد علت وجوه فقراء بيجانا بل انضم بعضهم إلى هتاف أهل أماريتا .

***

(٧)

ألشميل

غادر الملك شرفة قصره، ثم أمر القائد الشاب جنوده بأن يقسموا غرباء بيجانا إلى جماعات، ومر بينهم يتفحصهم بعينه ومعه مساعديه، واختار عددًا من أقويائهم أخبرهم أنهم سينضمون إلى جنود أماريتا فتنحّوا بعيدًا عن باقيهم، ثم مر بينهم ثلاثة رجال آخرون يرتدون عباءات ثمينة، وتفحصوا الفقراء عن قرب، وأدركت أسيل أنهم يهتمون بالنساء فقط، وإن لفتت إحداهن أنظارهم اختاروها، وسمعت أحد الجنود يقول لفقير خلفها أنهم رجال قصور الملك، من يختارهن كُتِب لهن الرغد في هذا البلد، ثم اقترب أحدهم، وسأل قمر أن تنظر إليه ومسح خدّها المتسخ بإصبعه فنظرت إلى الأرض خجلًا، وسرت بجسدها رعشة شعرت بها أسيل الملاصقة لها، فأمرها أن تتحرك للأمام، ثم اتجه بعينه إلى أسيل ومعطفها المتهالك، واقترب برأسه منها، وهي ثابتة تبتلع ريقها، قبل أن يبعد رأسه عنها ممتعضًا من رائحة رأسها ومعطفها اللذين كُسيا برائحة قئ السجناء، وابتعد عنها مغمغمًا بكلماتٍ غاضبة عن رائحتها الكريهة، واتجه إلى أخريات في صفوف مجاورة، وتحركت قمر مع فتيات أخرى مبتعدة نحو جندي كان يجلس ليسجّل من اختارهن رجال القصر، وكانت تتلفت بين لحظة وأخرى إلى أسيل كأنها تناجيها أن تلحق بها، لتجدها واقفة بمكانها شاهقة الرأس تلتمع عيناها بدموع أبت ألا تفارقها .

أما أسيل ومن تبقي معها فقُسِموا إلى خمس مجموعات تفاوتت أعدادها لتُوَزع علي مدن أماريتا الخمس ؛ ألشميل، بؤما، مساقيا، بيسانا، وأماريتا - منطقة الحاكم التي يتواجدون بها – ووقف أمام كل مجموعة شاب أماريتي أخبرهم بالمدينة التي سيتجهون إليها، قبل أن تتقدم كل مجموعة إلى عدد من الرجال والنساء الجالسين بأركان الساحة الأربعة، وانتظم الرجال في صفين أمام أربعة من الرجال، وانتظمت النساء في صفيّن آخرين أمام امرأتين، وجاء دور أسيل فسألتها المرأة أن تكشف عن كتفها، وأخبرتها مبتسمة بأنها ستضع وشمًا صغيرًا برقمٍ علي كتفها الأيسر، كان أربعمائة وأربعة عشر، وأردفت إليها بأن تلك الأرقام الموشومة هي طريقة إحصاء أماريتا لأهلها كما أنها تحدد عملها ومضيفها، وأن مادة هذا الوشم غير ضارة يزول أثرها تمامًا بعد عام فيجدده صاحبه مع دفعه لضرائبه، وطالما وُجِد هذا الوشم كان حامله حرًا، لا أرقام للعبيد، فهزت أسيل رأسها إيجابًا دون أن تتحدث، ثم صرخت بألم بعدما وشمتها المرأة بآلة معدنية صغيرة، فاعتذرت منها، ودوّنت بأوراقها رقمها مع غيره من أرقام دُوّنت بتاريخ ذلك اليوم بصفحة كُتب أعلاها ألشميل، المدينة التي سترحل إليها أسيل مع رفاقها، ثم تحركت لتأخذ مكانها امرأة أخرى، تردد بينها وبين نفسها؛ أربعمائة وأربعة عشر!!

***

كانت الشمس تقترب من المغيب حين غادرت العربات إلى ألشميل تحمل فقراء بيجانا، بينهم أسيل التي غلبها النعاس، ولم تفتح عينها إلا مع وصولهم باب تلك المدينة المفتوح علي مصراعيه مع شروق الشمس، والذي صُممت جوانبه كساقين ضخمتين لمحارب يُمَر بينهما

إيابًا وذهابًا، لو أغلق ذلك الباب لفصلها عن باقي مدن أماريتا بعدما أحيطت بسور صخري مرتفع ..

ودلفت العربات في تتابع إلى المدينة التي لم تختلف كثيرًا عن أماريتا، وتلاصقت بيوتها ذات الإرتفاع الواحد تفصلها شوارع معبدة بقطع صخرية، ثم انحرفت العربة التي تحمل أسيل إلى شارع جانبي منفصلة عن باقي العربات، وسألهم الشاب الأماريتي الذي صاحبهم بعدما توقفت العربة أن ينظر كل منهم إلى رقمه الموشوم، وأشار إلى بيت مجاور كُتب علي بابه رقم وقال:

- يُطابق كل رقم من أرقامكم رقم أحد بيوت هذا الشارع، سيكون ضيفًا لأهله ستة أشهر من اليوم .

عليكم أن تنالوا قسطًا جيدًا من الراحة بعد عناء رحلتكم، اليوم وغدًا منحة من الملك ..

وسألقاكم هنا صباح بعد غد لإخبار كل منكم بعمله الجديد ..

وأمرهم أن ينطلقوا، فترجلت أسيل تحمل معطفها، وتحركت تبحث عن الباب الذي يحمل رقمها وسط غيرها من غرباء بيجانا الذين انتشروا أمام البيوت، وبدأ أهل المدينة يظهرون تباعًا أمام بيوتهم مُرحبين بهم، قبل أن تجد بيتًا يحمل رقمها، أربعمائه وأربعة عشر، لم يظهر أمامه أحد .. فطرقت بابه، وبعد دقائق أجابها رجل مسن متجهم الوجه، دقّ قلبها خوفًا حين أبصرته للمرة الأولى .

***

(٨)

عجوزٌ غريب الأطوار

وجدت أسيل البيت الذي يحمل رقمًا مطابقًا لرقمها الموشوم، وطرقت بابه بعدما لم تجد أحدًا أمامه في استقبالها كباقي أهل المدينة أمام بيوتهم، وبعد دقائق فُتح لتجد مسنًا في عقده السادس سقيم الوجه مُصفر بياض العينين، بدا أنه نهض توًا من نومه، فكشفت له عن كتفها وأخبرته أنها ضيفته لستة أشهر طبقًا لخطاب الملك، فأشار إليها بالدخول دون أن يتحدث فدلفت من وراءه، ودق قلبها قلقًا حين لمحت زجاجات خمر فارغة تناثرت بكثرة علي أرضية ردهته، ونظرت في صمت إلى أثاث بيته المتهالك وستائره البالية المُغطاة بالأتربة ، وجلست علي كرسي أمامه في انتظار أن يقول كلمة واحدة فلم يفعل، ثم نهض فجأة وتحرك إلى إحدى الغرف وعاد ووضع أمامها قطعة من الجبن ورغيف خبز، وهمّ بالمغادره مجددًا إلى الغرفة، فنطقت بعدما تحرك خطوات :

- اسمي أسيل ..

وسكتت، فالتفت إليها، وقال باقتضاب :

- ليس لدي غيره من الطعام ..

وأشار عن يمينه إلى باب غرفه مجاورة، وأردف :

- هذه غرفتك ..

ثم أكمل تحركه، فقالت أسيل باسمة :

- شكرًا سيدي ..

وتابعت :

- كنت أظنك أبكم ..

ثم سألته :

- ألا توجد امرأه هنا ؟!

فتجاهل سؤالها، ودلف إلى حجرته ولم يخرج مجددًا، وأدركت أنه غاب في سباته، فتحدثت إلى نفسها :

- كان خطاب الملك بأن يساعدني هذا الرجل، يبدو أنه مَن في حاجة إلى المساعدة .

ثم نهضت ودلفت إلى غرفتها التي أشار إليها، فوجدتها أفضل حالًا من باقي بيته، وابتسمت حين لمحت بأحد أركانها حوضًا للاستحمام وُضعت بجواره أوان مُلأت بالماء، وبجانب آخر من الغرفة رقد سرير نظيف بدا أنه أعد سلفًا لضيف هذا البيت من غرباء بيجانا. فأغلقت بابها بإحكام وأسندت ظهرها إليه وأغمضت عينها للحظات قبل أن تفتحها وتلقي بمعطفها جانبًا وتنزع فستانها وتسرع إلى حوض الإستحمام .

***

في اليوم التالي، استيقظت أسيل من نومها مع شروق الشمس، وابتسمت حين وجدت نفسها قد نامت منذ ظهيرة يومها السابق، وكادت تغادر فراشها فتذكرت أنها عارية بعد أن غسلت ثيابها بحوض الإستحمام قبل نومها، ثم أبصرت بنطالًا وقميصًا علي كرسي مجاور لمرآة الحجرة لم تلحظهما يوم أمس، وكأن صاحب البيت لم يتوقع أن يكون ضيفه امرأة، فنهضت وارتدتهما بعدما تحركت إلى حوض الماء وغمرت وجهها بمائه، وضحكت حين نظرت إلى المرآة ووجدتهما واسعين للغاية، فأمسكت ببنطالها كي لا يسقط، وتفقدت فستانها فوجدته لم يجف، فجلست علي الكرسي أمام المرآة، ثم سمعت حركة مفاجئة أمام باب الغرفة فحبست أنفاسها وتحركت ببطء نحوه مُمسكة ببنطالها وتوقفت ملاصقة له، حتي ساد الصمت أمامه ففتحته بحذر فوجدت طبق الطعام الذي تركته بالأمس قد أُضيف إليه قطعة من الدجاج ووُضع علي الأرض أمامها، فنظرت إلى الردهة باحثة عن المسن فلم تجد أحد فمدت يدها وأخذته ثم أغلقت بابها ..

***

مرت ساعات وأسيل تجلس بغرفتها، وكان فستانها قد أوشك علي الجفاف وأصبح مبتلًا قليلًا حين بدّلت ثيابها وخرجت لتجد صاحب البيت جالسًا علي كرسي ممسكًا بزجاجة خمر فارغة في شرود، فتنحنحت ثم اتخذت كرسي بجواره وجلست، وساد الصمت قليلًا، ثم نطقت :

- ألم يكن هناك بنطالٌ أصغر حجمًا ؟

فرد الرجل دون أن ينظر إليها :

- كان عليكِ أن تسمني قبل أن تأتي إلىَ هنا .

فضحكت وقالت :

- وجهة نظر أيضًا .

- ما اسمك سيدي ؟

قال :

- سيمور ..

قالت :

- ولماذا تتجاهلني سيد سيمور ؟

فلم يجبها، فأكملت :

- حسنًا، عليك أن تتحملني، ملككم من قال أنكم ستساعدوننا بأشهرنا الأولى،

فنظر إليها وقال عابس الوجه :

- لقد كان حظك بائسًا باختياري مضيفًا لكِ ..

فقالت باسمة :

- لا عليك، أؤمن أن الحياة لا تعطي كل شئ ..

فقال الرجل :

- أرى أن تعودي إلى غرفتك، وتغلقي بابك، لقد نفذ خمري، ووقت قليل وسأصبح أسوأ مما تتخيلين .

قالت :

- سيقتلك هذا الخمر..

فأشار إليها محذرًا كي تصمت، ثم أشار إلى غرفتها، فحاولت أن تنطق، فألقي بزجاجته إلى الأرض فجأة، وصرخ بها غاضبًا :

- عودي إلى غرفتك .

فانتفض جسد أسيل ونهضت مضطربة الوجه، لكنها لم تتجه إلى الغرفة بل اتجهت نحو باب البيت، وغادرت إلى شوارع المدينة .

***

كانت ساحة الاحتفالات بالمنطقة الشرقية لزيكولا محتشدة بأهلها بعدما تجمعوا ليشهدوا ذبح خائنة بلادهم كي تكون عبرة لأي من يقترب من سور زيكولا، ووسط صياح الكثيرين منهم لوّح السياف بسيفه في الهواء قبل أن يهوي علي رقبتها مطيحًا برأسها المُغطي بغطاء قماشي أسود ليسقط متدحرجًا علي منصة الذبح، وينكشف عنها غطاؤه ويظهر وجه نادين العاهرة ساكنًا شاحبًا تنساب من أسفله الدماء بغزارة، ثم صعد قائد الحرس الزيكولي ليمسك شعر ذلك الرأس بين أصابعه، ويرفعها عاليًا صائحًا بمن أمامه من أهل زيكولا :

- إنه عقاب من يقترب من سور زيكولا، إنه عقاب الخيانة ..

ونظر إلى جُنده وقال :

- فليُمزق هذا الجسد ويُوزع علي مناطق زيكولا، أما هذا الرأس فلن أتركه حتي يخبرني بمكان الباقين

وتحدث إليه في صرامة :

- عليكِ أن تخبريني أين ذهب الباقون وإلا سأمزق هذا الوجه الجميل بخنجري ..

ففتح الرأس عينيه، وتحدّث خائفًا :

- سأخبرك سيدي، سأخبرك ..

- تخبري من ؟!

سألها يامن ضاحكًا، فتحركت إليه عينا نادين الناعسة، قبل أن تتحرك بعيدًا عنه في دهشة لتنظر إلى الشعلة التي تضئ الغرفة من حولها، وإلى الغطاء الذي تنام بأسفله، ثم نظرت إليه مجددًا، وقالت :

- كابوس لعين .

- تذبحين ؟

- نعم.

ثم أكملت بعدما نهضت لتجلس علي سريرها :

- سيُمزق جسدي ويُوّزع علي مناطق زيكولا

وأضافت ساخرة :

- يبدو أنه قدره، لطالما كان ملكًا لزيكولا وأهلها.

فقاطعها يامن :

- سيصبح كل شئ علي مايرام .

فثارت ساخطةً :

- سنذبح لا محالة، إلى متي نختبئ ؟!، إلى متي نستطيع أن نكمل حتي ؟!، لم يمض سوى شهر وأصبح حالنا بائسًا، أخبرني إلى متي ؟!

فأجابها هادئًا :

- سيأتي يوم زيكولا وسنخرج حين يُفتح بابها،

- تبعد سبعة أشهر؟!،

ثم نهضت وتركت فراشها ووقفت بقميصها العاري :

- أخبرني كيف نكمل حياتنا هكذا إلى يوم زيكولا. انظر إلي، لقد أصبحتُ بائسة بين جدران هذه الغرفة بسبب صديقك، عليه اللعنة، أخبرني كيف نكمل ؟

ثم غمغمت :

- حتي أنت لا ترغب بجسدي، اللعنة عليك أنت الآخر.

قبل أن يُفتَح باب الغرفة ببطء، ويدخل إياد مُغطي رأسه بغطاء رأس، فأكملت في تذمر:

- ها قد جاء البائس الثالث .

فقال إياد متجاهلًا حديثها :

- لديَّ أخبار جديدة .

فنظرا إليه مترقبين، فقال :

- سيجتمع المجلس الزيكولي الأعلي ليضعوا قانونًا جديدًا بشأن خيانة زيكولا، لقد أوصاهم الحاكم بقانونٍ لايفلت منه خائن .

فنطق يامن في شرود :

- المجلس الزيكولي الأعلي ؟!!، .. يكون أشد قسوة بكل تأكيد ..

***

(٩)

أيامٌ صعبة

كان الصخب يعم الأرجاء حين غادرت أسيل بيت المسن إلى شوارع ألشميل، وسارت تستكشف تلك المدينة وأهلها الذين تنوعت ملامحهم وألوان بشراتهم كأنهم جُمّعوا من بلاد كثيرة بهذا العالم. وأبصرت عربات مجرورة انتشرت بشوارعها تحمل صناديق خشبية كبيرة مجيئًا وذهابًا، وابتسمت ابتسامة مرة حين وجدت عربة تشبه عربتها بزيكولا، وواصلت تحركها دون أن تتحدث إلى أحد، قبل أن تتوقف بجوار عربة ناداها قائدها متسائلًا:

- أنتِ من غرباء الأمس ؟

فالتفتت إليه، ووجدت بجواره فقير بيجاني كان علي العربة ذاتها التي حملتها إلى ألشميل، فأومأت برأسها إيجابًا، فتابع الرجل باسمًا:

- ما رأيك في جولة بمدينتنا قبل بدءكم العمل غدًا ؟

فابتسمت وأشارت بيديها الخاليتين بأنها لا تمتلك مقابلًا، فقال ضاحكًا:

- لا عليكِ، تستطيعين استغلال كرمي اليوم.

فصعدت إلى العربة التي تحركت لتخرج من الشارع الجانبي إلى طريق أكثر اتساعًا، ولم تتوقف عيناها عن التلفت إلى جانبي الطريق

المُحاط بالمباني المتماثلة، يعجبها نظافة المدينة وشوارعها وطرقها المعبدة بقطع صخرية مستوية والأشجار وحيضان الورد التي تراصت على جوانبها، وأخبرها قائد العربة بأنه مضيف من بجواره من غرباء بيجانا، وبدأ يتحدث عن عظمة أماريتا، وعن قوة جيشها، وعن أرضها التي تخرج لهم كل شئ، وجبالها المليئة بالثروات ومناجم المعادن خاصة الذهب، غير بحر مينجا الذي يعطيها مايكفيها، ثم سكت !! وجدها تراقب المدينة من حولها كلّما مضت العربة للأمام. وسألته بعدما لاحظت كثرة العربات التي تحمل صناديق خشبية :

- ماذا تحمل تلك الصناديق ؟

فأجابها :

- سيوف، رماح، دروع، مصنوعات معدنية، إن ألشميل المنطقة الصناعية الأولى في أماريتا ..

وتابع :

- أماريتا بلد صناعي وتجارى كبير، ستجدين تلك العربات بكل أرجائها تحمل صناديقًا ..هنا تحمل السيوف والرماح والدروع والمصنوعات المعدنية كما أخبرتك، وفي بيسانا تحمل خضروات وفاكهة ومحاصيل زراعية متنوعة، وفي بؤما تحمل صناديقها أسماك وخيرات بحر مينجا، تجوب تلك العربات أنحاء أماريتا دون توقف، ويتبقي فائض كبير تحمله سفن بحر مينجا إلى بلاد أخرى كثيرة، لا يترك ملكنا قدمًا بهذا البلد لا يستغل ما تجود به أرضه ..

فقالت :

- أرى أنكم تحبون ملككم كثيرًا ..

قال :

- نعم، لقد كان نقطة فارقة في تاريخ هذا البلد. معه أصبحت أماريتا أقوي البلدان .

فقالت أسيل :

- يبدو أنك لم تسمع عن زيكولا.

***

أكملت العربة طريقها إلى الجنوب ووصلت إلى منطقة ألشميل الوسطي، وشقّت طريقًا صخريًا واسعًا، بُنيت علي جانبه قلعة ضخمة، قد تحتوي آلافًا من البشر داخلها، وعلي جانبه الآخر ظهرت في الأفق بحيرات قال الرجل أنها بحيرات ألشميل العذبة، ثم وصلت العربة إلى مشارف المنطقة الجنوبية لألشميل مع منتصف النهار، منطقة سكنية كانت تشبه المنطقة التي يسكنها العجوز الغريب، وانتفض قلب أسيل حين وجدت أشخاصًا عرايا يجرّون عربات صغري تحمل رجالًا ونساءً يبدو علي ملابسهم الثراء، وتحمل أياديهم سياطًا تشقّ الهواء لتسقط ممزقة الجلود العارية دون رحمة، فقال الرجل بعدما لاحظ تغيّر وجه أسيل ومن معه :

- ستعتادان هذا المشهد ..كان عليهم أن يتحاشوا هذا المصير، لقد جاءوا إلى هذا البلد أحرارًا، وأعطتهم أماريتا فرصة لم يستغلوها وتكاسلوا، ولم يستطيعوا دفع ضرائبهم، فأصبح من حق أماريتا أن تبيعهم عبيدًا يفعل بهم سادتهم ما يشاؤون، وإن عصوا أمرًا واحدًا تكفّلت الجنود بتقطيعهم إربًا أمامنا جميعًا ..

وأردف:

- للغريب هنا فرصة عام كامل، إن أصبح عبدًا سيظل عبدًا حتي يموت..

وأشار إلى عربة تجرّها امرأة نحيلة:

- رجلًا كان أو امرأة..

لا كرامة لعبد هنا، هو من أضاعها بيده، فاحذرا أن تقابلا هذا المصير..

فسكتت أسيل في قلق وسكت من معها، وتابعت العربة تحركها إلى الجنوب لتعبر هذه المنطقة السكنية وتظهر أمام أعينهم سلسلة من الجبال المتجاورة، فقال الرجل: جبال الريميوز، جبال الثروات والمعادن، وكاد يتخذ طريقًا رمليًا متعرجًا يمتد نحوها، فسألته أسيل أن يعود بها إلى شمال ألشميل حيث ركبت معه، ووافقها البيجاني الآخر علي ذلك..

***

توقفت العربة أمام بيت العجوز، وهبطت أسيل بعدما شكرت صاحبها، وتمنت للبيجاني الآخر حظًا موفقًا بيومهم التالي، ودلفت إلى البيت بعدما لم يكن بابه مُحكم الإغلاق، ووجدت العجوز جالسًا علي الطاولة بمنتصف الردهة يتجرع خمره، وأبصرت في تعجب زجاجات جديدة ممتلئة أسفل طاولته، فقالت:

- لقد عدتُ سيد سيمور..

فلم يقل شيئًا ولم ينظر تجاهها، وواصل تجرع كوبه، فأكملت تحركها إلى غرفتها، ولم تغادرها إلا صباح يومها التالي..

صباح اليوم التالي، كانت عربة الشاب الأماريتي الذي رافقهم إلى الشميل قد أحيطت بغرباء بيجانا بينهم أسيل ينظرون إليه في ترقب بعدما وقف أعلاها يحمل أوراقًا. وبدأ ينادي أرقامًا متتابعة يتبع كل رقم أحد أماكن الشميل، ومر قليل من الوقت ثم نادي أربعمائة وأربعة عشر. فانتبهت أسيل، قبل أن تُجمد تعابيروجهها فجأة حين تابع :

- جبال الريميوز.

ثم انتهى، فُوزعت كل جماعة من الأرقام علي عربات وفقًا للأماكن المتقاربة، وصعدت أسيل إلى عربة اتخذت الطريق ذاته الذي سلكته يومها السابق .

***

وصلت العربة إلى جبال الريميوز، ثم انحرفت لتسير بطريق رملي موازٍ لها. ونظرت أسيل عن يسارها لتجد أسراب العاملين ينتشرون بأعلاها رجالًا ونساء وشبابًا وعجزة. ألوف من البشر تجمعوا في هذا المكان، قُسموا إلى جماعات عدة انتشرت علي امتداد بصرها، غير مئات من العربات الخشبية كانت تصعد وتهبط طرقًا ممهدة ومتعرجة تحمل صناديق وعمال لفحت وجوهم آشعة الشمس ..

وتوقفت العربة بالقرب من إحدى جماعات العمال، وترجّل الشاب الأماريتي، وتحرك إلى رجل سمين قصير مدور الوجه كان في انتظاره، وأخرج أوراقه وسلّمها إليه. ثم التفت إليهم وأمرهم أن يترجلوا جميعًا. وبدأ ينادي أرقامهم مجددًا من أوراق أخرى، وبينهم أربعمائة وأربعة عشر. فأشارت أسيل بيدها عن وجودها، ثم انتهى فاقترب منهم السمين، وتحرك بينهم وتفحصهم بعينه، وقال بصوت مزعج سمعه الجميع :

- لقد طلب منا الملك إنهاء العمل في هذا المنجم قبل نهاية العام الحالي، أريدكم أن تبذلوا قصارى جهدكم إذن ..

ستنضمون إلى باقي عمالنا، وستجنون أجرًا مثلهم، لا فرق بينكم وبينهم، للثلاثة أيام قطعة نحاسية، للشهر عشرة قطع .. من يعمل بجد سيجني أجره كاملًا، من يتكاسل يومًا واحدًا فلا يسألني أجر خمسة عشر يومًا، وليسدد ضرائبه صخورًا .

ثم قال عابسًا :

- إن لم تعمل ساكون أنا طريقك إلى العبودية .

وتحرك أمامهم وقال :

- ستحملكم العربات كل يوم من شمال ألشميل إلينا مع الفجر، وستعود بكم مع غروب الشمس، لدينا أقل من عام لنخرج خير هذا المنجم، الرجال سيكسرون الصخور، والنساء سيحملنها إلى العربات لتستخدم في صناعات أخرى بعيدة عنا ..

ونظر إلى أسيل، وألقي إليها وعاءً قماشي لحمل الصخور، وقال ساخرًا :

- سيقوي هذا الجسد الضعيف مع العمل .

ثم نظر إلى الباقين وصاح بهم :

- أهل أماريتا الجدد فلتبدأوا عملكم .

***

بعد هذا اليوم ومرت الأيام جميعها ثقيلة متشابهة، عربات خشبية تنتظر مع حلول الفجر بناصية أحد شوارع ألشميل، يسرع إليها العمال

ويصعدون إليها، لتتلاصق أجسادهم الهزيلة، وتتحرك بهم جنوبًا في طريقها إلى جبال الريميوز لتصل إليها بعد شروق الشمس، فيبدؤون عملهم، ومعهم أسيل التي فقدت مع أيامها الأولى جزءًا ليس بالقليل من وزنها، واختفت نضارة وجهها وجف جلده وتشققت شفتاها..

كانت تتحرك حافية القدمين تحمل علي ظهرها وعاءً قماشيًا قويًا مليئ بصخور مقحلحة لتفرغه بإحدى العربات القريبة ثم تعود لتملأه من جديد، وإن تباطئت ناداها السمين الذي لايكف عن التنقل بينهم: أربعمائة وأربعة عشر، أسرعي وإلا لن تنالي أجرك. فتكمل طريقها إلى من يكسّرون الصخور بباطن الجبل، دون أن تتحدث وتملأ وعاءها من جديد وتتجه به مجددًا إلى عربة الصخور، وتنزلق قدماها بين حين وآخر وتسقط صخورها فتعيدها إلى وعائها وتنهض وتكمل عملها ..حتي ينتهي يومها فتعود بها العربة إلى بيت مضيفها. فتجد المسن البائس يجلس بردهة بيته ثملًا أمام مصباح ناري. لا يتحدث ولا يشعر بشئ من حوله، يتناول خمره فحسب. فتجلس لتأكل قليلًا من طعام ردئ وضعه لها قبل مجيئها، قبل أن تدلف إلى غرفتها في صمت. وتلقي بجسدها المرهق إلى سريرها حتي فجر يومها التالي فتنهض وتسرع إلى عربة العمال وتكمل عملها كيومها السابق. لا يناديها أحد باسمها. الكل يناديها بأربعمائة وأربعة عشر. وصارت تتحرك بين جماعات العمال لا ترفع رأسها، تحمل صخورها وهي تنظر إلى موضع قدميها كي لا تنزلق كعادتها. وإن أصابها تعب أبطأت من حركتها، ونزلت علي ركبتيها لتلتقط أنفاسها، قبل أن تنهض وتتابع عملها وتخبر من حولها أنها بخير، وإن جُرحت قدمها ضمدتها بقطعة قماشية مزقتها من فستانها البالي.

•

تتحرك من فوقها شمس أماريتا من الشرق إلى الغرب تحمل آشعتها

الملتهبة كل يوم عناء لم تشعر به من قبل وجرح جديد مؤلم بقدمها، فتحدث نفسها دون توقف:

- سيمر هذا العناء، لن أصبح عبدة في هذا البلد الملعون، لن يمتلكني أحد..

وتحمل وعاءها وتتحامل علي نفسها وتواصل عملها، حتي تغيب الشمس ليتوقف التعب مؤقتًا، وتعود بهم العربات ليلًا، فتجلس بإحداها مسندة ظهرها إلى صندوقها الخشبي شاردة لا تتحدث، وإن أبصرت العربات الصغرى التي يجرها العبيد حين تمر بمنطقة الشميل الجنوبية أبعدت عينيها ونظرت إلى السماء، قبل أن تضحك بألم هي والباقون إن ألقي أحدهم بمزحة عن السمين، متناسين آلامهم للحظات.

***

تتكرر أيامها ولياليها دون جديد، نهار شاق بطئ، وليل تهرول ساعاته، ثم جاء ذلك اليوم حين اشتدت حرارة الشمس من فوقها، وتصبب منها العرق بغزارة، وحملت صخورها في إتجاه العربة، ثم ابطأت من حركتها بعدما شعرت بالأرض تهتز فجأة من أسفلها، وتوقفت، فناداها السمين بأن تسرع للعربة، فتحركت، فاهتزت الأرض من أسفلها مرة أخرى فتوقفت مجددًا، فصاح بها السمين غاضبًا، فنظرت أمامها فوجدت ما حولها يدور بها، وزادت هزة الأرض من تحتها فسقطت علي وجهها وسقطت معها صخورها، وانغمس رأسها بالرمال وأغمضت عينها وكأن الحياة توقفت لا تشعر بشئ مما حولها، ولا بصوت السمين الذي ظل يصيح بأن تنهض وإلا لن تحصل علي أجر هذا اليوم ومعه أجريومين آخرين، تسمع دقات قلبها التي نبضت بقوة،

وأصوات أنفاسها التي تعمقت، ثم فتحت عينها ببطء إلى الفراغ أمامها فذُهلت حين رأته بعيدًا يقطَع الصخور، كان جسده العاري يلمع مع آشعة الشمس بعدما لف قميصه حول خصره كعادته، قبل أن يلتفت ويسرع إليها لمَا وجدها قد سقطت، وجثا علي ركبتيه بجوارها، ومد إليها يده باسمًا، وقال :

- حبيبتي، انهضي ..

فمدت يدها إليه بصعوبة، وابتسمت شفتاها الجافة المشققة حين قبّل يدها.. ثم أرقدها علي ظهرها، ومسح الرمال عن وجهها ..وقال مجددًا وهي تحدق به دون أن تنطق : حبيبتي، انهضي ..

فلم تستطع أن تتمالك نفسها، وانزلقت دموعها علي وجهها، وارتعشت شفتاها وقالت باكية :

- لستُ بتلك القوة، لم أعد أستطيع يا خالد، لم أعد أستطيع ..

فابتسم إليها ومسح دموعها عن وجهها بيده وهو يقول:

- ستستطيعين يا أسيل، ستستطيعين.

ثم قبّل رأسها ونهض، وخطا خطوات للخلف مبتعدًا عنها دون أن يعطيها ظهره، وهي تحدّق به ورأسها ثابت علي الأرض، حتي اختفي عن نظرها، فأغمضت عينها في طمأنينة، قبل أن تشعر باهتزاز جسدها، وصياح كثيرون من حولها ؛ أربعمائة وأربعة عشر، انهضي، ثم شعرت بماء يغمر وجهها، ففتحت عينها فوجدت العاملين يحيطون بها وبينهم السمين، وسألتها فتاة أخرى :

- هل أنتِ بخير؟

فأجابتها أسيل بتعب :

- نعم ..

فصاح بهم السمين كي يكملوا عملهم، وأن تنهض هي الأخرى ويكفيها ما أضاعته من وقت، فنهضت بصعوبة وحملت وعاءها وملأته بصخوره المبعثرة، وتحركت نحو العربة، تجرّ قدميها المضمدتين، تعبر بهما الأرض الصخرية المكسرة من أسفلها، وتنظر إلى أمامها في بأس، وتخطو في طريقها خطوة وراء خطوة .

***

(١٠)

هذيانٌ مفاجئ

مضت أيام أخرى بعدها، كانت أسيل تكمل عملها وتعود إلى بيت المسن مساءً فتغمر جسدها وفستانها بالماء ثم تتركه ليجف مع شروق الشمس، وإن جلست أمام مرآتها تحسست وجهها الهزيل الذي ضمرت وجنتاه وبرزت عظامه، ونظرت إلى رقمها الموشوم علي كتفها كأنها تندب حظه الذي أوقعها في هذا العمل وهذا المسن الذي يسهر ليله وينام نهاره، حتي طعامه الذي كان يعدّه أيامها الأولى لم تعد تجده في أيامها الأخيرة، ثم تأوي إلى فراشها فيمر ليلها سريعًا لتنهض وترتدي فستانها المبلل، ويبدأ يوم جديد لا يختلف عن سابقه شيئًا .

***

كان ذلك قبل تلك الليلة، حين انتهت من عملها، وعادت بهم العربات إلى شمال الشميل، ودلفت إلى بيت المسن فلم تجده بردهته كعادته، فلم تعطه بالًا واتجهت إلى غرفتها وكادت تدلف إليها فسمعت صوتًا بغرفته فتوقفت ثم التفتت إلى طاولته الخشبية فوجدت زجاجة خمره مغلقة لم ينقص منها شئ، فاندهشت ثم تحركت ببطء تجاه غرفته، وانقبض صدرها حين وجدت دماء داكنة ممتزجة ببقايا طعام تناثرت علي أرضية الردهة أمام باب غرفته، ودفعت بابه بحذرفوجدته مُلقي علي وجهه يهذي بكلمات متقطعة وقد أُغرقت ملابسه بدماء

متجلطة ..فأسرعت إليه، وحدثته : سيد سيمور ..فلم يجبها، فهزت جسده وصاحت به، ثم نهضت وأحضرت إناء ماء وسكبته فوق رأسه فلم يحدث جديد ..فأدركت أنه غير واعٍ، وأن تلك الدماء الممزوجة بقطع من الطعام ليست إلا قئ دموي، فحاولت أن تحمله إلى سريره فلم تقوَ، فارقدته علي جانبه، وأسرعت إلى الخارج لتحضر طبيبًا يساعدها بينما بدأ يهذي من جديد بكلمات متقطعة، كانت أكثرها وضوحًا :

- كان يجب ألا أبحر تلك الليلة .

فتوقفت قدماها للحظات ..ثم أكملت طريقها راكضة إلى الخارج .

***

كانت شوارع المدينة مزدحمة بالمارة حين ركضت أسيل بينهم تسأل من تقابله أين تجد طبيبًا، فدلّها أحدهم إلى مشفي قريب، فأسرعت إليه وعادت بطبيب شاب إلى بيت المسن الراقد مُغيبًا علي أرضية غرفته، فحملاه إلى سريره، وحدّثت الطبيب بأنها اعتادت أن تجده يجلس كل يوم بردهة بيته يتناول شرابه الذي يدمنه، وأنها فوجئت هذه الليلة بهذيانه فظننت أنه ثمل، قبل أن تجد قيئه الدموي فأدركت أنه مصاب بغياب لعقله، وأن هذيانه هذا بداية لإغماءة لقصور كبده، فاندهش الطبيب وسألها كيف علمت بذلك، فلم تخبره أنها طبيبة، وأخبرته مضطربة بأنها قد رأت حالة شبيهة من قبل كانت عيناها مصفرة مثله، دمّر الخمر كبدها، وحدث معها مثلما حدث مع سيدها، فقام بفحصه لدقائق ثم انتهى، فهز رأسه معجبًا بذكائها، وأشار إليها بأنها صائبة تمامًا، وأن قيئه الدموي هو ما أدخله في إغمائته، وتمني أن يكون نزيفه الداخلي قد توقف، بعدما لم تكتشف طريقة بعد لاكتشاف مدي هذا النزيف، وإن كان قد توقف أم مازال ينزف إلى

لحظتهم تلك، ليس بوسعهم إلا الانتظار، و إمداده بسائل مغذي مُنقي عن طريق أوردته قام بتصنيعه علماء أماريتا من عصاره الخرشوف البري حتي يستعيد كبده نشاطه ويستعيد جسده عافيته، ووعدها بأنه سيرسل مساعده لإعطائه هذا السائل وإفراغ أمعائه مرتين باليوم علّه يساعد جسده في إفراغ سمومه، فشكرته أسيل ثم حدّثته خجلة بأنها لا تملك مقابلًا بعد، فابتسم الطبيب و أخبرها أن أماريتا ترعي مُسنيها، ولا ينال الأطباء أجرًا مقابل علاجهم خاصة وإن كانوا من بحاري أماريتا مثل السيد سيمور، ولن ينال مساعده مقابلًا هو الآخر، فشكرته مجددًا، ثم غادر، وجلست هي بجوار المسن، وأمسكت بيده وهمست إليه :

- أتمني أن تنجو أيها البحار.

***

كانت تلك هي المرة الأولى التي تمكث بها أسيل بغرفه المسن، ولم تكن الأخيرة، وجلست بجواره تراقب تفاصيل وجهه الشاحب المريض وحركات جسده العصبية اللاإرادية المفاجئة وهذيانه بكلمات غير مفهومة بين حينٍ و آخر، لم تغادر غرفته إلا مع مجئ مساعد الطبيب لإفراغ أمعائه ثم عادت إليها بعدما انتهى، وجلست بجواره علي سريره تمسك بذراعه مقيدة حركاتها اللاإرادية بعدما ثُبّت بأحد أوردتها أنبوبُ معدنى رفيع تدلي من انبعاج معدني صغير موصول بزجاجة داكنة اللون كانت تمتلئ بسائل مُنقي، وعُلقت علي حامل معدني بجوار سريره، ثم غادر المساعد متعللًا بأن لديه مرضي آخرين فأخبرته بأنها ستعتني به، وظلت بجواره ممسكة بذراعه طوال الليل تقاوم بجسدها الضعيف عنف حركاته المفاجئة، لا يغمض لها جفن، تنظر إلى تفاصيل غرفته وأثاثها العتيق من حولها، وإلى زجاجات خمره الفارغة

المتناثرة بكل مكان، ثم تبصر قدميها المضمدتين بقماش متسخ، وتحرك أصابعها بألم كأنها تتيقن أنها مازالت بخير، حتي حلّ الفجر، وهدأت معه حركاته وهزيانه، فأغمضت عينها في سكون، وأخرجت زفيرًا مريحًا، ثم نهضت بحذر، وأزالت سن الأنبوب المعدني المدبب عن ذراعه، وضمدته بقطعة قماشية نظيفة كان قد تركها مساعد الطبيب، وجلست بجواره مجددًا، ومرت بضع ساعات قبل أن يفتح عينه متعبًا، وتعجب حين وجد ذراعه مضمدًا وأسيل بجواره، فسألها في إعياء شديد :

- ماذا حدث؟

فابتسمت وأجابته :

- أخبرتك أن الخمر سيقتلك، ولكن يبدو أنك نجوت هذه المرة .

فأغمض عينه للحظة ثم فتحها بثقلٍ، وسألها :.

- هل أشرقت الشمس ؟!

فأجابته:

- نعم ..

سألها مجددا:

- ألم تذهبي إلى عملك ؟!

- لا، لم أذهب اليوم ..

- لماذا ؟

- كان لابد أن أرعاك حتي تنهض ..

- ألا تعلمين أن عدم ذهابك يومًا سيكلفك أجر خمسه عشر يومًا ؟!

- أعلم هذا، لكني خفت أن أتركك فتسوء حالتك دون أن يدري أحد ..

فنظر السيد سيمور إلى سقف غرفته، وقال :

- كان لابد أن تذهبي ..

فقالت :

- لم أعتد أن أترك أحد يموت كان باستطاعتي مساعدته .

فقال :

- فقدتي خمسة قطع نحاسية من أجل ألا تدعيني أموت ! ستندمين أيتها الفتاة، إن هذا الزمان ليس لأصحاب القلوب الرقيقة ..

فقالت :

- لا تضع لندمي بالاً سيدي ..

ثم نهضت، وبدأت تلملم زجاجات الخمر المتناثرة بأرضية الغرفة، وقالت باسمةً بصوت عالٍ سمعه :

- لا خمر بعد اليوم ..

فقال بصوت سمعته :

- أنكِ تحلمين .

فاقتربت من سريره تحمل زجاجات الخمر الفارغة بين ذراعيها، وقالت :

- إنني أتحدث بجدية، لقد كنت طبيبة زبكولا الأولى، وكما قلت لك، لم أعتد أن أترك أحدهم يموت كان باستطاعتي أن أساعده .

وأكملت :

- سأبذل كل جهدي كي يستعيد كبدك وجسدك عافيته ..

ثم توجهت إلى باب الغرفة بعدما أغمض المسن عينه، وكادت تغادرها فقال في إعياء :

- علمتُ منذ رأيتك للمرة الأولى أنكِ لستِ فقيرة . ما الذي جاء بك إلى أماريتا أيها الطبيبة ؟..

فاقتربت منه مجددًا، وجلست بجواره على مقعد خشبي، ووضعت زجاجاته جانبًا،وقالت :

- إنه القدرسيدي ..

ثم أردفت :

- يضع أمامنا طرقًا شتى، ويوحي لنا بأننا نملك اختيار طرقنا، ثم نكتشف نهاية الأمر أنه من اختار لنا طريقًا ساقتنا إليه أقدامنا باختياراتنا نحن .

وُلدتُ في بيجانا، ثم انتقلتُ إلى زيكولا بين العبيد حين كنت طفلة، ثم اشتراني رجل حكيم علمني الطب، ثم اعتقني لأصبح أمهر أطباء زيكولا، ثم وضع لي قدري حبيبًا من عالم آخر كان اسمه خالد، ارتطم به حصان عربتي، وأنقذ طفلًا من الغرق قبل قدومي إليه، أحببتُ اختلافه عن باقي أهل زيكولا البلهاء، علم أنه لن يستطيع العيش بعالمنا فظل يبحث عن مخرج إلى سرداب بلده ..وأنا معه خطوة بخطوة، ومع كل خطوة وضع لنا القدر أناسًا و أشياءً لم تكن في حسابنا ثم تدخّل وقدّم فجأة يوم مولد ابن حاكم زيكولا، في وقتٍ فقد من أحببته ذكاءه، فاختير بين فقراء زيكولا ..ثم جاء دوري لأحدد الأفقر بينهم، فكان هو الأكثرفقرًا يومها ..

ولم أعتد أن أظلم أحدًا، فخاض منافسة الزيكولا، فاختاره قدره ليكون ذبيح عيدنا ..

ثم ابتسمت والتمعت عيناها بالدموع، وأكملت :

- أتدري سيدي، لم أخبر أحدًا من قبل عن تلك الليلة بعد اختيار الزيكولا لخالد، لم أمرّ بليلة أقسي منها ..

أن تسأل نفسك في الليلة ألف مرة، لماذا لم تساعديه وتعطيه من وحدات ذكائك منذ البداية، لماذا تركتيه ليصل إلى هذا المصير ويصبح ذبيح هذا البلد، لم أكن أدرك أن تكون أقسي لحظات الحياة حين تجلس ليشتعل رأسك بأسئلة جميعها لماذا ..

ثم قررت أن أزاحم القدر تلك المرة رغما عنه وأغيّره بيدي، وأعطيته من ذكائي ثروة تجعله ينجو من الموت، ضاربة بقوانين زيكولا عرض الحائط، وتركت زيكولا وكل شئ حققته، وأعلنت خائنة لذلك البلد لأعود إلى بلدي فيضع لي القدر اتفاقية البشر مقابل الديون، وآتي إلى هنا، وأوشم برقم يضعني بهذا البيت ..

حلقة تسلّم أخرى ..لو فُقدت حلقة واحدة بين تلك الحلقات، حلقة واحدة فقط، لما كنت أحمل صخورًا بهذا البلد، أو أجلس بجوارك الآن في هذه الغرفة،

ثم تابعت بعدما صمتت برهة :

- كنت أظن أن القدر سمح لي بمنافسته لإنقاذ خالد ..ولكنه في الحقيقة تركني أصنع بيدي حلقة من حلقاته أكمل بها طريقي الذي اختاره لي ..

كان خالد إحدى حلقات قدري ..كما كنت أنا إحدى حلقات قدره، وقد أكون إحدى حلقات قدرك لأكون بجوارك وأنت في إغمائتك، وأحضر لك طبيبًا ينقذ حياتك، ويؤكد لي أنك من بحاري أماريتا بعدما سمعت هذيانك عن ندمك لإبحارك ذلك اليوم ..

فسألها :

- هل قلت ذلك ؟!

قالت :

- نعم ..

فصمت، وابتلع ريقه ثم أغمض عينه، وفتحها بعد لحظات، وقال :

- ليتني أستطيع أن أفكر كيفما تفكرين .. عشرون عاما قضيتهم داخل جدران هذا البيت لا أفكر إلا بشئ واحد، لماذا أبحرت تلك الليلة ؟ ليتني لم أبحر..

لم أجد حلًا إلا الخمركي أتناسي ذلك اليوم ..

ثم قال بصوت مرتجف :

- كانت جميلة، بيضاء كالثلج، ناعمة كالحرير ..كنت أقوي علي بحر مينجا بشوقي إليها، أبحر لأرى وجهها بالسماء، في أمواج مينجا، في كل شئ من حولي، فأتحدث إليها، لم تكن زوجة فقط ..كانت رياحي التي تحرك شراعي، ثم كبرت بطنها ..وعلمنا أن مولودًا في طريقه إلينا فزادت معه أحلامنا، ووعدتها بأننا سننتقل يومًا إلى

حقول بيسانا لأبني لها بيتًا كبيرًا تحيطه حدائق مثمرة تتدلي من أشجارها حبات الكروم الذي تحبه ..

ثم مركل شئ سريعًا، شعرتُ بمدي تعبها فأردتُ أن أبقي بجوارها فأخبرتني أنها بخير، وسألتني ألا أتكاسل وأن أواصل عملي، فأخبرتها أنني سأعود إليها قبل أن تضع مولودنا، وأبحرتُ تلك الليلة ..

ثم أغمض عينه، وفتحها لتلمع بدموعه :

- عُدت فلم أجدها .

أخبرني الطبيب وقتها أنها تألمت كثيرًا، تعجّل موعد وضعها فجأة ..كان رأس الطفل كبيرًا ولم تقوَعلي فعلها، أخبروني أن صراخها باسمي كان يرجّ أركان ألشميل، حتي سكتت فجأة، ولم يسكت سؤالي، لماذا تركتها وأبحرتُ تلك الليلة، ولم أغادر بيتي بعدها، لا يدق بابي إلا حامل منح الملك لبحاري أماريتا ..وحامل الخمر، وحامل الطعام، وهذه الأيام أنتِ ..

ثم أكمل :

- كان حظك سيئًا بالمجئ إلى هنا ..

فقالت أسيل :

- لا أؤمن بالحظ سيدي، إنني أؤمن بالقدر..

ربما إن بقيت يومها لماتت أمامك ولم يغادر صراخها أذنيك فأصابك الجنون، ربما عاشت وافترقتما لاحقًا، ربما غادرتما

ألشميل إلى بيسانا وحدائق الكروم كما كنتما تحلمان وحدث مالم تتوقعانه، جميعها طرقٌ لكن القدر اختار طريقًا واحدًا ..
تموت زوجتك منذ سنوات، تدمن الخمر، يقتل الخمر كبدك، تسوء حالته تلك الأيام، يُدخلك في إغماءة لعقلك ..تهذي بكلمات أمامي عن تلك الليلة ..

حلقات جميعها متصلة، إن فُقدت حلقة واحدة لم تكن لتصبح أنت صاحب الحلقة الجديدة من حلقات قدري ..

فنظر إليها العجوز، وسألها :

- أي حلقة ؟!

فأجابته :

- أن تعبري هصاب ريكاتا .

***

(١١)

الأماريتي

ارتسمت الدهشة علي وجه السيد سيمور حين قالت أسيل :

- أن تعبري هضاب ريكاتا ..

وأغمض عينيه ثم فتحهما في ثقل، وسألها :

- إلى أين ؟

أجابته :

- إلى شمال بحر مينجا، لقد قررتُ أن أنافس القدر مرة أخرى

وتابعت :

- مازلتُ أعرف الطريق إلى سرداب فوريك، سأعود إلى زيكولا، وأعبر أرضها إلى المنطقة الغربية لأصل إلى سرداب خالد وأرضه

قال:

- لكنكِ أخبرتيني للتو أنكِ أعلنتي خائنة لزيكولا ..

قالت :

- نعم، وإن أمسكوا بي سأذبح أمام أهلها، لكني عشتُ بها سنوات كثيرة، وأعلم طبيعة يوم زيكولا جيدًا، وأعلم أنه حين يُفتح بابها

لن تجد مثيلًا لزحام العربات والمارة المارين به ذهابًا وإيابًا ..

وأعلم أيضًا أن حراس زيكولا يتجنبون نساء تجار الشمال اللاتي يغطين رؤوسهن، تحاشيًا لغضب أزواجهن، لاينشغلون إلا باحتفالات زيكولا، وفض شجار السكارى ..

سأغطي رأسي ووجهي مثلهن، وسأتوارى بين المارة أو بإحدى العربات، وسأعبر ذلك الباب، وإن احتجت مساعدة أحد، سألجأ إلى أصدقاء خالد، سيساعدوني دون أن يشوا بي أو يخذلوني، أريدك فقط أن تساعدني ..

فسألها متعبًا :

- لماذا تريدين مغادرة أماريتا ؟

فأجابته هادئةً :

- إن بلدي مثل بلدكم، بلاد ظالمة سيد سيمور، وملككم الشاب الذي تحبونه ليس إلا ملك ظالم يستعبد طاقات البشر.

لا أريد أن أعيش في هذا البلد بقية عمري وإن عشت حرة سنواتي العشر، ولا أريد أن أعود إلى بيجانا الكارهة لفقرائها بعد عشر سنوات .

ثم قالت باسمة :

- لا أملك إلا حياةً واحدة، ولي الحق أن اختار أين تكون، وقد وضعك القدر في طريقي من بين أهل أماريتا، ليكون بيدي الإختيار من جديد ..

ثم نهضت وتحركت نحو باب الغرفة، وقالت :

- سأكمل عملي هنا سيد سيمور، وسأتقاضي عملاتي النحاسية حتي يقترب يوم زيكولا بعد أشهر قليلة سأبذل بها كل طاقتي كي يستعيد كبدك عافيته، بعدها سأجازف بكل شئ كي أصل إلى سرداب فوريك وإلى خالد، وإن كانت منصة ذبح زيكولا مصيري، فأهلًا بسيافها .

***

قمر

مازلت أتذكر ساعاتي الأولى هنا جيدًا، دلفنا يومها مع رجال القصر إلى قصر الملك، وبعدها بدأ النعيم بعينه، غرف واسعة للغاية، نوافذ ضخمة انسدلت منها ستائر حريرية ملونة طُرزت حوافها بنقوش مذهبة، أرضية ملساء ناعمة، أثاث ذهبي، زخارف جدرانية و تماثيل رخامية فاتنة، ورود مبهجة تفوح بروائح عطرة ..كل شئ جميل من حولك ..

اسمي قمر، رقمي سبعة عشر بين فتيات القصر الجدد، هكذا حدّثت من جاءنا ليدوّن اسماءنا يومنا الأول بالقصر قبل شهور من اليوم، وكان بجانبه آخر اقترب مني بشريطه المدرج، وسجّل قياسات جسمي طولًا وعرضًا، وخلفهما وقفت امرأة أربعينية حسب تقديري، رقيقة الملامح صارمة في الوقت ذاته، كانت تتفحصنا جميعًا بنظراتها مع قول كل منا اسمها، لو لم أقابل الطبيبة أسيل لقلت أن تلك المرأة أجمل من رأيت ..

أتذكر حين انتهى الرجلان من تدوين اسماءنا ومقاساتنا والتفتا إليها فتحدثت إلينا بوقار بالغ بأنها السيدة نجود قائدة وصيفات القصر .. أي قائدتنا، ومنذ تلك اللحظة وباتت جميع شئوننا مسئوليتها، واكتفت بكلماتها تلك قبل أن تخبرنا بأنها ستكمل حديثها إلينا لاحقًا بعدما نستحم ونخلد للنوم بعد عناء رحلتنا الشاقة عبر بحر

مينجا، وأمرت امرأة أخرى أن تصحبنا إلى الباب الخلفي للردهة التي تواجدنا بها ..

***

مرت أيامنا بالقصر سريعة، وبسرعتها تحولت وجوهنا من وجوه باهتة هزيلة إلى وجوه حمراء متوردة، وصارت أجسادنا الواهنة كتلًا من النشاط لا تكل ولا تمل نتحرك هنا وهناك بثقة تامة ..كان الفضل كاملًا للسيدة نجود التي راقبت عيناها كل فتاة منا علي حدة، وتولّت تعليمنا كل شئ كي نصبح نساء الدرجة الأولى كما أرادتنا أن نكون، وإن فقدت أملها بإحدانا استبعدتها إلى قصر آخر أو إلى المدينة، حتي تقلّص عددنا إلى ثلث ما اختاره رجال القصر يومنا الأول .

أما أنا فوجدتُ هذا القصر فرصة لن أتركها ما دمت حية، وراقبت السيدة نجود في حركاتها نهارًا حتي إن نام الجميع ليلًا نهضتُ، وأعدتُ تلك الحركات مع نفسي مرارًا وتكرارًا حتي أتقنها قبل أن ينهضن، وبذلتُ كل جهدي كي أرضيها، وتعلمتُ منها كثيرًا وكثيرًا، كان أهمه ألا يشعر السادة بوجودي ولا يشعرون بغيابي في الوقت ذاته، وبعد أيام أدركتُ أنني فتاتها المفضلة بين فتيات القصر المتبقيات، لم تقل شيئًا، ولكن بدا علي وجهها رضاها عني، ودق قلبي بقوة حين أخبرتني أنني سأكون معها بالقرب من الملك، واتبعت كلماتها بأنني أفضل الفتيات قراءة للغة العربية .

***

كانت المرة الأولى التي أرى بها الملك تميم عن قرب، بعد شهر كامل من وجودي بالقصر، شاب قوي وسيم، تجاوز الثلاثين قبل أشهر

قليلة، ابتسم إلى لمَا وجدني ارتجف للمرة الأولى حين اقتربت منه، فطمأنتني ابتسامته دون أن ينطق ..

علمتُ خلال أيامي بالقصر أنه تولي حكم هذا البلد في عامه الثامن عشر، ومعه أصبحت أماريتا أرضًا أخرى عما كانت عليه، فسماه شعبه الأماريتي أكثر منه ملكًا ..الجميع هنا يحبه بجنون، ويثقون به ويفخرون به كملك لهذا البلد الغني، يتحدث كثيرًا إلى شعبه بساحات قصره، ويخرج أحايين كثيرة إلى المدينة ومناطقها مع حراسه أو بدونهم، أخبرتني عاملة أخرى بالقصر أنه لا يخشى الموت قط، وباستطاعته أن يهزم جيشًا كاملًا بضربة سيف واحدة، قبل أن تحكي لي إحدى مغامراته بصحراء ألشميل لا وقت لذكرها الآن .

لم أتخيل يومًا أن يهتم الملوك بشئون بلدانهم لهذا الحد ..كان لا ينام كثيرًا، يقضي أوقاتًا طويلة بمكتبة قصره يقرأ بكتب التاريخ والأدب التي كُتبت بأماريتا أو جاءت من بلدان أخرى ..وكنت أقف بجواره صامتة بين خدمه الآخرين إن احتاج شيئًا ..

كانت غرفة المكتبة أكبر غرف القصر، صُممت بعناية فائقة، وتراصت أرففها ملاصقة لجدرانها ..كجناحي طير صُفت عليها كتب كثيرة ولفافات مخطوطة تفاوتت أحجامها، توسط الغرفة كرسي ضخم مُذهب، أعلاه سراج لاينقطع نوره الأبيض أبدًا، وأمامه جدار قُسم إلى مُجسمين، الشرقي كان لهذا العالم ببلدانه التي يقسمها بحر مينجا الواسع إلى أماريتا جنوبًا، و بيجانا وزيكولا وبلاد أخرى لا أذكرها شمالًا، والغربي لأماريتا ومناطقها الخمس ؛ أماريتا وبؤما وألشميل

وبيسانا ومساقيا، لُونت كل منطقة بلون مختلف، وكُتب عليها اسمها بالعربية بماء الذهب ..

كان يقرأ كثيرًا ثم ينهض ليقف أمام ذلك الجدار، ويحملق به لدقائق ثم يعود ليقرأ مجددًا حتي ينتهي فينتقل إلى غرفة أخرى ليجتمع بمستشاريه المُسمين بالمجلس الأماريتي ..كان عددهم أحد عشر رجلًا، بينهم القائد العسكري الشاب السيد جرير .. الذي عبر بنا بحر مينجا يوم مجيئنا من بيجانا ..

وولّت أيام أخرى كثيرة، كانت جميعها لا تحمل جديدًا، قبل أن تنقلب الأمور فجأة رأسًا علي عقب حين جاء ذلك المساء، وظهرت بالقصر سيدة أماريتا الأولى، رفيقة رحلتي، الطبيبة أسيل .

***

(١٢)
رحيلٌ قريب

فجرٌ يتبعه فجر، ساعات تركض وراء أخرى ..أيام تهرول بلا عودة، وأسيل تكمل عملها نهارًا كحاملة للصخور، لتعود ليلًا لتمكث بجوار مضيفها كطبيبة، يتسامران، يتحدثان كثيرًا، يحدّثها عن رحلات بحر مينجا، وعن عواصفه وأمواجه العاتية، وهي تملك قصة واحدة تنبثق منها باقي قصصها، هذا الغريب الذي أتى إلى زيكولا عبر سرداب فوريك ليخطف قلبها دون موعد ..

تخبره ضاحكةً بأنها لم تكن لتصدق قصة هذا الشاب لو لم تعشها بذاتها، أي عاقل يصدق أن هناك أرض أخرى، وعالم آخر يعيش به أناس آخرون يتحدثون العربية ؟ الآن هي من تطمح لأن تصل إلى تلك الارض الخيالية، تحدّثه عن ذاك النجم الذي سماه باسمها، ولم تره بالسماء منذ يوم ترحيلها إلى أماريتا، لا تنام إلا ساعات قليله بعدما ينام هو، كانت تدرك أن وحشة وحدته هي سبيله لعودته إلى خمره ..

حين انتهى شهرها الأول بعملها لم يعطها السمين إلا خمس قطع نحاسية ذهبت بها ليلتها إلى حوانيت بيع الأعشاب والبذور الطبية، وابتاعت باثنتين منها ما احتاجته لعلاجه، ثم باتت ليلتها تصنع من عصارتها وصفات مخلوطة إحداها منشطة لكبده وأخرى مقوية لدورته الدموية وأوعيتها، وكان إن توّسل إليها كي يرتشف قليلًا من

الخمر تبرم وجهها ثم ابتسمت وسمحت له برشفات قليلة للغاية بعد أن يعدها بألا يقترب منها في غيابها وأن يتناول وصفاتها الطبية التي صنعتها بأوقاتها التي حددتها ..

***

يتعجب من نفسه بعدما شعر أنه بات شخصًا آخر، ليس ذاك الشخص منذ شهر مضي، ويندهش حين ينتظر كطفلٍ مرور ساعات النهار كي تأتي ضيفته ليلًا فتجلس بجواره ليكملا ما انتهى به حديثهما ليلتهما الماضية، يحب لباقة حديثها وفلسفتها ووجها الباسم دومًا ونظراتها الحادة إليه إن تذمر من وصفاتها المرة .

كلّما مر يوم شعر معه بتحسن عن يومه السابق، ودّ لو حدّث جيرانه عن براعة طبيبته ثم تراجع بعدما سألته ألا يفعل ذلك خشية أن تلفت الإنتباه إليها، يكفيها عملها تلك الأيام بجبال الريميوز التي اعتاد جسدها مشقته، يتعجب من قوة هذه الفتاة، وتحمل جسدها الضعيف الذي لا يليق إلا بكونه جسد لامرأة مرفهة، لمّا عادت متبرمة ذات يوم بشهرها الثاني وبدا علي وجهها الضيق الشديد سألها للمرة الأولى أن يخرجا إلى إحدى حانات ألشميل، فوافقته علي الفور..

كانت تعلم أنه لم يغادر بيته منذ دلفت إليه، وتوقن أن علاجها قد بدأ يؤتي بثماره، وسارت بجواره متأبطة ذراعه بأحد شوارع ألشميل المضاءة بقناديل نارية مثبتة علي أعمدة خشبية رفيعة، لا يشغل بالها فستانها الرث أو حذائها الممزق، بل داعبته حين ارتدي معطفًا أسودًا أنيقًا بدا أنه لم يرتده منذ عقود ..ودق قلبها فرحًا، ولمعت عيناها بدموعها بعدما رحب به كثيرون بمثل عمره أو أصغر قليلًا في طريقهما وأجاب ترحابهم فرحًا كأنه لايصدق نفسه ..

حين جلسا بالحانة سألها عن ضيقها ذلك اليوم، فأجابته بألا يضع له بالًا، ثم أكملت متمتمة :

- إنه ذلك السمين اللزج ..وكلماته القاسية كعادته ..

فأخذ رشفة من شرابه الساخن الذي أحضره نادل الحانة، ثم وضع كوبه علي الطاولة أمامه بيد مرتعشة، وقال هامسًا :

- ستغادرين قريبًا علي كل حال ..

فتوقفت عن رشف شرابها، ونظرت إليه بترقب كأنها تتيقن مما قاله، فابتسم، وأومأ إليها برأسه إيجابًا، يؤكد لها ما سمعته، ففُغر فاهها من المفاجأة، وقالت مازحة :

- إذن سأفتقد هذا السمين !

فسألها مداعبًا :

- حقًا ؟

فضحكت، وقالت :

- لن افتقده إلى تلك الدرجة، تمنيتُ فقط لو جاء يوم، وحِكتُ شفتيه ببعضهما البعض لأغلق فمه إلى الأبد ..

فقال مازحًا :

- ظهر الجانب الشرير من الطبيبة الآن،

ضحكت، وهزت رأسها نافية، وقالت :

- لا لا، لقد عفوتُ عنه، وتركتُ تلك الأمنية ..

ثم تابعت :

- تعلل قلبي بأن زوجته لن تغفرلي صمت زوجها .

فضحك السيد سيمور، وأكملا حديثهما عن أمور أخرى بعيدة عما قاله عن رحيلها القريب .

***

مضت أيام أخرى أصبحت معها صحة العجوز أفضل حالًا، وخفَ اصفرار عينيه، وزادت سعادة أسيل كلّما خرج معها أو خرج بمفرده، فيعود ليلًا ليتسامرا سويا عمن قابلهم تلك الأيام ممن كان يعرفهم، وكانت تكمل عملها هي الأخرى دون أن تغيب يومًا واحدًا، وتقاضت أجرها عن شهريها الثاني والثالث بجبال الريميوز عشرين قطعة نحاسية .

ثم جاء ذلك الفجر من شهرها الرابع، وكادت تغادر بيت المسن إلى عملها، فوجدته يجلس علي مقعد خشبي بالردهة مسندًا رأسه إلى كفه نائمًا، فاندهشت واقتربت منه، ففتح عينه حين شعر بها، وبادرها قبل أن تنطق قائلًا :

- أيتها الطبيبة.. لن تذهبي إلى عملك اليوم، لقد آن الأوان ..

قالت في دهشة :

- أي أوان سيد سيمور ؟!

قال :

- سنبحر غدًا إلى شمال بحر مينجا ..

فاتخذت مقعدًا مجاورًا، وقالت :

- غدًا ؟! حسب تسجيلي لأيامي، مازال هناك شهر علي يوم زبكولا

قال :

- أعلم هذا، لكني أعلم مينجا جيدًا، إنه أكثر هدوءًا هذه الأيام، ولا أضمن هدوءه لاحقًا، ولا أضمن صحتي أيضًا ..لقد استأجرت من أحد أصدقائي القدامي قبل أيام سفينة صيد ستفي بعبورنا بحر مينجا خلال أربعة عشر يومًا، وسيعينني برحلتنا ولده أيضًا، صبي اسمه مضحك، أخبرته بأن ينتظرنا بالسفينة، وألا يخبر أحدًا عن رحلتنا ..

ما إن نصل إلى شاطئ الشمال لن يتبقي لنا إلا أربعة عشر يومًا آخرين حتي اليوم السابق لعيد زبكولا، سنمكث بمركبنا تلك الأيام، ومعنا ما يكفينا من طعام ومتاع لها، ثم أردف :

إنني أعد جيدًا لهذه الرحلة منذ أسابيع، وأدركتُ أن رأسي لم يتمكن منه الصدأ بعد، ثم أكمل :

ترسو سفينتنا بين سفن الصيد بشاطئ أماريتا، ستحملنا الليلة عربة ذات حصانين معبأة بطعامٍ جاف وشراب ومتاع كافٍ إلى هناك، لتصل بنا مع فجر غد ..

ستعبر معنا تلك العربة وأحصنتها بحر مينجا ..كما ستعبر بي وبكِ باب زبكولا يوم يُفتح ..

فحدّقت به أسيل غير مصدقة :

- هل ستعبر معي باب زبكولا ؟!

فنهض، وتباهي بنفسه :

- ألا أبدو مثل تجار الشمال ؟!

فضحكت وضاقت عيناها، وهزت رأسها :

- تبدو..

قال :

- حسنًا، سأعبر بكِ باب زيكولا، وبعدها تتولين أمرك، سأترك لكِ حصانًا، وأعود بالآخر مع العربة إلى بحر مينجا مجددًا، وأتمنى أن تصلين إلى مرادك .

فانفرجت أسارير أسيل، ثم نهضت وقبّلت خدّه دون أن تنطق، ثم أسرعت إلى حجرتها، وعادت ومعها سرة قماشية، وأفرغت على الطاولة أمامه ما بها من قطع نحاسية، وقالت :

- هذا ما امتلكه سيدي، عشرون قطعه نحاسية، إنها قليلة، ولكنها كل ما لدي ..

فقال السيد سيمور هادئًا :

- لا احتاج إليها، ابنتي، لقد نال كلّ مقابله ..

فاندهشت، وقالت :

- استأجرت سفينة صيد لشهر كامل، وستدفع أجر مساعدًا لك عن هذا الشهر، وطعام وشراب يكفيان تلك المدة ..وعربة وحصانين، من أين لك بالمال ؟!!

فابتسم وقال :

- لا تضعي لهذا بالًا الآن ..

ثم أزاح بيده قطعها النحاسية تجاهها، وأكمل :

- أعيديهم إلى مكانهم، قد تحتاجين إليهم لاحقًا .

ثم أشار إلى صندوق خشبي متوسط الحجم بأحد أركان الردهة،

وقال :

- أحضري هذا الصندوق .

فحملته أسيل إلى الطاولة أمامه، ففتحه، وأخرج صديري لا أكمام له وقميصًا واسعًا طويل الأكمام وبنطالًا وقلنسوة صغيرة، كانت جميعها مهترئة، تميل ألوانها إلى الصفرة أكثر منها بيضاء، وقال :

- لا تبحر النساء على سفن الصيد .. كان هذا الزي لي منذ كنت في عمرك، ارتديه، لن نجد أكثر من سفن الجنود الذين يتفقدون السفن والبحارة وصيدهم، إن أبصرك أحدهم لا أعلم ماذا سيكون مصيرك .. ومصيري .

ثم أخرج فستانًا أسودًا طويلًا له غطاء رأس كبير، وتابع :

- كان هذا لزوجتي، سيساعدك غطاؤه حين ينسدل على جبهتك في إخفاء وجهك أثناء عبور باب زيكولا ..كإحدى نساء تجار الشمال ..

فهزت أسيل رأسها، وابتسمت وكأنها لاتزال غير مصدقة لما يتحدث به، فأكمل :

- عليكِ أن تستعدي، سنرحل مع غروب شمس هذا النهار..

***

مرت ساعات قليلة خلد خلالها المسن إلى نومه، بينما دلفت أسيل إلى حجرتها، ونزعت فستانها واغتسلت بحوض الماء، ثم بدأت ترتدي تلك الثياب التي أخرجها السيد سيمور من صندوقه الخشبي وأوصاها بارتدائها، وعصرت حبل البنطال الواسع حول خصرها النحيف، وعقدته، وارتدت القميص القماشي المهترئ فوق الصديري ..ثم لفّت شعرها الطويل حول رأسها وثبتته، وارتدت القلنسوة، وما إن تحركت حتي انزلق شعرها الناعم من أسفلها، فرفعته ولفّته مرة أخرى، فانزلق مجددًا، وكلّما حاولت فشل أن يرقد أسفل قلنسوتها الصغيرة، فنظرت إلى صورتها بالمرآة وتأملتها قليلًا، ثم خرجت وعادت ووقفت أمامها مجددًا وبيدها مقص حديدي صغير، وكادت تقص شعرها فتوقفت، ثم وضعت المقص أمامها، وحاولت أن تخفي شعرها مرة أخرى أسفل قلنسوتها، فسقط علي جانبي رأسها، فنزعت القلنسوة جانبًا، وأمسكت المقص وأغمضت عينيها، وأمسكت بأصابع يدها الأخرى خصلة من شعرها، وبعد تردد ضغطت طرفي مقصها، ضغطة توقفت معها أنفاسها، ثم فتحت عينيها فوجدت الخصلة الأولى بيدها، فتمتمت إلى نفسها:

- لا عليكِ يا أسيل، لا عليكِ، سيعود كما كان ..

ثم أمسكت خصلة أخرى وقصتها، لم تترك منها إلا سنتيمترات قليلة، ثم قصت خصلة أخرى ثم أخرى.

كان شعرها الأسود المقصوص يتساقط ببطء كالحرير المُحلّق وسط شعاع الضوء المتسلل عبر نافذة الغرفة، وكلّما قصّت خصلة مررت يدها علي رأسها وأمسكت خصلة أخرى بين أصبعها وقصتها مثلما قصّت سابقاتها، حتي انتهت ووجدته أصبح بالكاد يغطي أذنيها بمؤخرة رقبتها ..فهمست إلى نفسها :

- تأبي أماريتا أن أخرج منها معي شئ يشبهني ..

ثم ارتدت قلنسوتها التي صارت تلائم رأسها، ونظرت إلى صورتها بالمرآة، وغمزت إليها باسمةً :

- أهلًا بك أيها البحار.

***

خالد حسني

مازلت أتذكر جيدًا إلى هذه اللحظة حديثي مع مني ليلة زفافنا، حين سألتني أن نذهب إلى مكان نقضي به شهر عسلنا مع اشتداد صيف هذا العام، فأجبتها وقتها مازحًا بأن نذهب إلى مكان أعرفه ليس به تعامل بالمال، ولمّا سألتني عن ماهية 'التعامل به أجبتها بعدما طالت نظرتي إلى نجم أسيل اللامع بالسماء ليلتها بأنها ستعرف حين نذهب إلى هناك .

في الحقيقة كانت مزحة مني لا أكثر ولا أقل، ولم تكن لديّ نية للعودة إلى أرض زيكولا رغم أنني كنت اشتاق كثيرًا إلى أصدقائي وإلى أسيل، ولكننا قضينا شهر عسلنا وأشهرنا التالية جميعها ببلدتي .

مني لم تجد عملًا يناسبها، وآثرت أن تهتم بشئون بيتنا ورعاية جدي في غيابي، وأنا مازلت أعمل محاسبًا بإحدى الشركات بمدينة المنصورة.

تحدثتُ مع زوجتي كثيرًا عن أرض زيكولا، وعمّا حدث لي بها، كانت تصر أنني قاص جيد الخيال تنقصه الحبكة الدرامية، وأرى أن لديها بعض الحق، خاصة أنني كنت أقص قصتي دون ذكر أسيل، وأضفتُ من خيالي أجزاء تكميلية غير مقنعة تعوّض غيابها عن قصتي ..

علي أي حال مرّت أيامي مع مني مستقرة للغاية، ولم أعطِ اهتمامًا كبيرًا لعدم تصديقها رحلتي إلى زيكولا، وبدأت اعتاد حياتي الروتينية، عملي صباحًا، عودتي للمنزل، جلوسي مع جدي، جلوسي مع مني،

تصفحي مواقع التواصل الاجتماعي، ترقبي للسماء كل ليلة، نومي حتي صباح اليوم التالي، لا شئ جديد، قبل أن يُلقي هذا الحجر المفاجئ بمياه حياتنا الراكدة حين أيقظتنا طرقات جدي المفاجئة علي باب شقتنا فجر ذلك اليوم، وحدّثني فرحًا بأن هناك ضيفًا هامًا في انتظاري دون أن يخبرني شيئًا آخرًا أو يعبأ بدهشتي من تأخر الوقت، وهبطتُ معه إلى الطابق الأرضي نعسًا، ليتوقف بي الزمن حين وجدتُها أمامي تجلس علي الأريكة بفستانها الممزق، وتنهض لتقول لي بلهجتها الزبكولية:

- لقد افتقدتك كثيرًا ..

***

(١٣)

الريكاتا مجددًا

كانت الشمس قد غربت حين غادرت ألشميل عربة يجرّها حصانان انطلقت في طريقها إلى مدينة أماريتا، يقودها السيد سيمور، وبجواره صديقه القديم، مالك سفينة الصيد التي استأجرها، عجوز آخر أشيب الشعر واللحية امتلأ وجهه بحيوية جعلته يبدو أصغر سنًا، أصرّ أن يرافقهما إلى ساحل أماريتا، ولم يكف عن الثرثرة منذ ارتقائه العربة.

وبداخل صومعة العربة الخشبية جلست أسيل بثوبها الرجالي المهترئ وقلنسوتها وسط أجولة من الطعام الجاف والفاكهة الجافة والخبز، وأغطية صوفية ملفوفة، وقِرب من الماء العذب كانت قد صُفت بالعربة قبل أن تأتي إلى بيت السيد سيمور، ولاصقت بجسدها باب العربة تحمل علي كتفها جرابًا قماشيًا بداخله فستان زوجة العجوز الأسود وسرة قطعها النحاسية، ونظرت عبر نافذته إلى سور ألشميل الحجري الشاهق وبابها المفتوح علي مصراعيه حين سارت العربة بطريق موازٍ له عن بعد، قبل أن تتخذ طريقًا آخر غابت معه ألشميل للأبد عن نظرها ..

وهبّ هواء بارد أنعش صدورهم جاء من ناحية تلال صغيرة رقدت بعيدة علي جانب الطريق، وانسدل ظلام الليل، وتلألأت نجومه بالسماء، وأشعل العجوز شعلة زيتية كانت مُثبتة علي نتوء معدني بجانب العربة، وعادت أسيل بظهرها إلى مسند مقعدها، وأغمضت عينها وتمتمت بكلمات تتمني بها أن تصل إلى مرادها، قبل أن تفتحها وتبتسم حين سمعت العجوز الغريب يسأل السيد سيمور عن ذلك الفتي الضعيف الذي يرافقهم بصومعة العربة، فأجابه بزهو بأن هذا الفتي سيكون بحارًا عظيمًا لأماريتا في الغد القريب، فكتمت ضحكاتها، وأكملت استماعها إلى حديثهما المسلي عن رحلاتهما ببحر مينجا، انقضي معه طريقهم سريعًا إلى أماريتا.

***

وصلت العربة مع شروق الشمس إلى مشارف أماريتا الجنوبية، ولم تدلف إلى داخل المدينة بل اتخذت طريقًا ترابيًا امتد خارجها بمحاذاة بساتينها، ثم عرجت إلى طريق آخر مُعبد بقطع صخرية كان ينحرف تجاه باب أماريتا، ظهرت معه أبنية المدينة المتلاصقة بعيدًا أمام عيني أسيل، فتذكرت يومها الأول بهذا البلد، هي وقمر التي انقطعت أخبارها منذ رافقت رجال القصر ذلك اليوم، ثم توارت بجسدها عن نافذة العربة وأسدلت قلنسوتها علي جبهتها حين أبصرت عددًا من الجنود يصطفون أمام باب المدينة قبل أن تدرك أنهم يعرفون مرافقهم العجوز الذي رحب بهم وأجابوا ترحابه فاطمأن قلبها، وعبرت العربة باب أماريتا، وأكملت طريقها إلى شاطئ بحر مينجا دون أن تتوقف، حتي اقتربت من جسر خشبي امتد إلى داخل الماء تجاوره سفن عديدة

صغيرة الحجم، وأشار العجوز الغريب نحو سفينة شراعية ترسو ملاصقة لحافته البعيدة، فأوقف السيد سيمور عربته، وأسرع إليهم فتي نحيف أسمر البشرة كان يجلس قريبًا من الجسر، ورحب بهم، وودع السيد سيمور صديقه، ولم يمر إلا قليل من الوقت حتي شقَّت السفينة طريقها إلى داخل بحرمينجا.

***

مُضحك

اسمي مُضحك، هكذا سماني أبي منذ مولدي قبل خمسة عشر عامًا، وقد اختارني صديق شبابه السيد سيمور كي أرافق رحلته عبر بحر مينجا ..

كنت أجلس متشوقًا أمام جسر الشاطئ الخشبي في انتظار عربته، يكاد شغفي يصل عنان السماء كلّما جال بذهني عبور الريكاتا للمرة الأولى، وما إن رأيتُها تقترب حتى ركضتُ إليها بساقي النحيفتين، ورحبتُ بالسيد سيمور وبأبي، ثم قدتُ العربة إلى أعلى السفينة بداخلها الطبيبة ..

نعم، كنتُ أعلم أنها امرأة، قبل أن أراها حتى، لقد أخبرني السيد سيمور بهذا السر الذي لم يخبر به والدي حين التقيته في الشميل، قبل أن يوصيني بأمر غريب جعلني أظن أن هذا الرجل قد فقد عقله، سأتحدث عنه لاحقًا، ولكن علي أن أذكر ما حدث منذ شقّت السفينة طريقها إلى داخل بحر مينجا .

كان أبي قد حدّثني كثيرًا عن قدرات هذا العجوز وبراعته بالإبحار، وقد رأيتُ هذا بعيني، فما إن ارتقى السفينة حتى أمسك بدفتها واثقًا كمن يصغره بأعوام كثيرة، وبدأ بنا رحلتنا في ثبات إلى الشمال، وتعددت مهامي ما بين تسلق الصاري بين الحين والآخر لربط أو حل حبال الأشرعة، وتلبية أوامره الكثيرة المتتالية بكل أرجاء السفينة، أو

الإمساك بدفة السفينة وقت راحته أو اقترابه من الطبيبة ليتحدث معها ..

أما الطبيبة فغادرت العربة المثبتة، ثم وقفت شاردة الذهن تنظر إلى أماريتا دون أن تحرك ساكنًا، لم أدرِ ماذا يدور برأسها وقتها، ولم أقترب لأحدّثها أيضًا، ولكني لم أزح نظري عنها، وأيقنتُ أن خلف هذا الشرود والتجهم قصصًا تحتاج أيامًا لسردها بعدما وجدتُ دموعًا لامعة قد هربت إلى وجنتها ..

كانت ذكيةً حين ارتدت هذا الزي، فكثيرًا ما تمر قوارب قادة الحرس لتفتيش سفن الصيد خشية أن يهرب الصيادون من دفع ضرائبهم عن صيدهم، وقد حدث ذلك بيومنا الثاني حين ارتقى السفينة قائدٌ مع جنوده، ولم يلتفتوا إلى الطبيبة التي كنت تمسح أرضية السفينة، بل سأل العجوز عن العربة والأحصنة فأجابه سيدي بثبات بالغ بأن تلك السفينة كل ما يملك، وما إن يمتلك مكانًا آخر سيترك وقتها ممتلكاته به، مشيرًا إلى عربته وأحصنته، وغادر القائد السفينة دون أن يدري أن ذلك الفتي الجالس علي أرضية السفينة بعيدًا ليس إلا امرأة هاربة من هذا البلد، وأكملنا إبحارنا، تحركنا الرياح في إتجاهنا المقصود ..

***

وسارت أمورنا بعدها علي ما يرام، وجاء نهارنا الثالث بالبحر، وسمعتُ سيدي يقول للطبيبة أن أمامنا نهارًا آخرَلنصل إلى ريكاتا وفقًا لسرعة رياح ذلك اليوم، ثم أخبرها بأنه ينوي عبورها ليلًا، فدق قلبي فرحًا وإعجابًا ببراعة هذا العجوز، لكن فرحتي لم تدم كثيرًا ..

أشرقت شمس يومنا الرابع، ولاحظتُ شحوب وجه سيدي وسقمه عن أيامنا السابقة، حتى أنني سألتُه أن أمسك الدفة بدلًا منه لينال قسطًا من الراحة فرفض، وسألني ألا أخبر الطبيبة بشئ، وأمرني أن أكمل عملي بنزح مياه الأمواج الواثبة إلى ظهر السفينة، ثم لاحظتُ أنه يتحاشي الحديث مع الطبيبة طِيلة ذلك النهار، وغطي رأسه بقلنسوة كبيرة، وكلّما اقتربت الطبيبة للتحدث معه كلّفها بشئ تفعله بقبو السفينة حتي إن انتهت سألها قبل أن تقترب منه أن تفعل شيئًا آخر، ثم ظهرت أمامنا أولى الهضاب مُصطبغة بحُمرة الشفق مع غروب الشمس، فصحتُ من فوق الصاري :

- ريكاتا!!!!!..

ثم هبطتُ الصاري قفزًا، وأسرعتُ إلى القبو لأشعل مصابيحنا، فوجدتُ الطبيبة قد أشعلتها بالفعل، وسألتني أن أعطي مصباحًا لسيدي، فأخبرتُها فرحًا أننا في طريقنا إلى أولى هضاب ريكاتا، وركضتُ إلى ظهر السفينة، فتركت ما بيدها وركضت خلفي، ووقفت بجواري علي حافة السفينة تحدّق بالهضبة الشاهقة أمامنا، أكاد أسمع دقات قلبها من الفرحة البادية علي وجهها.. حتي ظننتُ أنها ستحضنني أو تقبلني كما تمنّت مخيلتي، لكنها إلتفتت إلى سيدي الذي لم ينطق بشئ منذ وقوفنا، واقتربت منه بأسارير منفرجة، وكادت تحدّثه، ففوجئنا به ينظر إليها زائغ العينين، قبل أن يقئ دمًا، اندفع فجأة بغزارة من فمه، كان يكفي لملء قدرًا من قدور الطعام، ثم سقط تاركًا دفة السفينة ..

***

لا أستطيع أن أصف تلك اللحظات، أذكر أن كل شئ بات سريعًا، ركضتُ نحوه حاملًا مصباحه ومصباحي، ثم تسمرت قدماي بأرضية السفينة أمامه، وكأن عقلي قد شُل، وانسدل ظلام الليل من فوقنا،

فأخفي منظر الدماء المروع أسفل سيدي القابع علي ذراع الطبيبة التي بدت عاجزة أمام سقمه، واكتفت المصابيح بإظهار ملامحنا، فسألتها لاهثًا :

- ماذا أفعل سيدتي ؟

لم تجبني، وظلّت تحدّق بوجهه شاردة، ثم نزعت قميصها، ومسحت آثار الدماء عن فمه ورقبته، ثم وجدتُها تنظر إلى السماء، وتحدثها بصوت سمعته قائلةً :

- لا أستطيع أن أعالجه، ساعدني يا رب .

فوجدته ينظر إليها ويقول في إعياء :

- يبدو أنها النهاية هذه المرة أيتها الطبيبة، كان حدسي صحيحًا باقترابها، كنت علي حق حين بادرتُ بالإبحار قبل يوم زيكولا، لكنه لم يكن كافيًا .

ثم تابع :

- تمنيتُ أن أحقق مرادك ..

فقالت الطّبيبة :

- عليك أن تهدأ سيدي، سيستعيد جسدك توازنه وستصبح بخير، ستنهض سيدي وستعود إلى بيتك ..

لا أعلم إن كان سيدي يمتلك بيتًا آخر، ما أعلمه أن أبي قد اشتري بيته قبل رحلته هذه مقابل السفينة والعربة المُحملة بالطعام وأجري، وبدا أن سيدي لم يدرك ما قالته الطبيبة، ووجدتُه يحدّق بعيدًا نحو السماء، ويبتسم، وثبّت عينيه كأنه ينظر إلى شخص هناك، ثم زادت ابتسامته ولمعت عيناه بدموعه، وقال :

- إنها مثلكِ، هي والخير مجتمعان ..

ثم حلّ صمت مفاجئ، فقلتُ بحذر:

- سيدتي ..

قالت :

- لقد فارق الحياة ..

لحظات صمت أخرى .. صمت لا أكثر.

***

الجزء الثاني

عهد الرسل القديم

(١٤)

سفينةٌ مشتعلة

فارق سيدي الحياة، وساد الصمت والخوف سفينتنا، فتذكرتُ وصيته الغريبة التي أوصاني بها حين التقيته قبل إبحارنا بأيام، وقال لي وقتها بجدية بالغة:

- إن فارقتُ الحياة علي ظهر السفينة، وكانت الطبيبة لاتزال معنا، وكنا قرب هضاب ريكاتا، فانتظر حتي يحّل الظلام، وقم بإشعال شراع السفينة الأكبر في أقرب وقت من حلوله. قبل أن يصمت.

ويكمل:

- دون أن تستأذن الطبيبة، ثم أخبرها أن تنزع قميصها ..

أتذكر أنه أعاد علي كلماته حتي ظننتُ أنه اصطحبني معه فقط من أجل وصيته تلك. فعدتُ خطوات إلى الخلف مبتعدًا عن الطبيبة التي كانت تجلس بجوار جثته لا تحرك عينها عنه، وقد غطّت وجهه بقميصها، ثم صعدتُ صاري السفينة حاملًا شعلة مصباحي، وأشعلتُ طرف شراعنا الأكبر، فسرت النار ببقيته سريعًا مع رياح تلك الليلة، وهبطتُ الصاري متزلقًا، فإلتفتت إلى الطبيبة مرتبكة، وصرخت بي:

- ماذا فعلت ؟!!

فأجبتها صارخًا خائفًا بعدما اشتعل الشراع بأكمله أمامنا :

- هو من أوصاني بفعل ذلك ..

فوقفت أمامي ذاهلةً تنظر إلى النار المتأججة، ووقفتُ أنا الآخر ذاهلًا مرتبكًا مثلها، يكاد الخوف يقتلني ..ثم حملتُ دلوًا من الماء، وقذفتُ بمائه نحو الشراع المشتعل فتناثر قبل أن يصله، وتسارعت أنفاسي ونبض قلبي بقوة وجنّ جنوني حين رأيتُ النار قد اندلعت بالصاري ذاته وباتت في طريقها إلى سطح السفينة، فركضتُ وحملتُ دلوًا آخر، وألقيتُ بمائه نحوه، فلم يجدِ نفعًا، فخارت قواي، وسقطتُ علي ركبتي صارخًا إلى نفسي لاهثًا :

- ماذا فعلت ؟!

ثم نهضتُ وركضتُ إلى حافة السفينة الجانبية تاركًا الطبيبة التي عادت إلى جلستها بجوار سيدي الميت وأمسكت بيده مُحدقة به، ثم نظرتُ أسفلي إلى البحر المظلم أمامي، وابتلعت ريقي وأغمضتُ عيني، وكدتُ ألقي بنفسي خارجها، قبل أن أفتحها مجددًا، وأرى بالسماء عددًا من السهام المشتعلة التي تنطلق متتالية لأعلي بين الظلام الحالك السواد، فتشبثتُ بسياج السفينة الخشبي، وصحتُ بأعلي صوتي :

- أيتها الطبيبة، أنظري إلى السماء .

أيتها الطبيبة، أنظري إلى السماء ..

فالتفتت إلى السماء التي امتلأت بالسهام المشتعلة، ونهضت واقتربت مني دون أن تنطق وكأنها لا تدري ماذا يحدث، فتابعتُ صراخي فرحًا :

- إنها سهام سفن النجدة الملكية، لقد رأوا شراعنا المشتعل ..

فقالت شاردة، وهي تنظر إلى السماء :

- لقد جلبهم إلينا السيد سيمور

***

كانت النيران قد اشتعلت بعربة الطعام الخشبية، وزاد هياج الأحصنة بعدما تأكل الصاري المشتعل وسقط مع شراعه بمنتصف سطح السفينة، حين اقتربت ثلاثة قوارب صغيرة تحمل مقدمتها مصابيح نارية، كانت قد أسقطتهم سفينة كبيرة إلى الماء، ألقت غطاسها علي مقربة من سفينتنا المشتعلة، وأكملت إطلاقها للسهام المضيئة نحو السماء دون توقف ..

وعلي حافة السفينة وقفتُ ملوحًا بيدي صارخًا إلى جنود القوارب بأن يسرعوا لإنقاذنا، قبل أن يبلغوا السفينة، ويلقوا بحبالها إلى أعلاها، ويتسلقوا جانبها، ويصطفوا بخوذهم علي سطحها في صفين، ثم نظر قائدهم إلى الطبيبة الجالسة بجوار الجثة الراقدة، ترتدي قبعتها وصديرها، وسألني :

- هل هناك آخرين ؟

فأجبته :

- لا ..

فأشار إلى أحد جنوده بأن يحملني، وصاح بآخر مشيرًا إلى الطبيبة :

- احمل هذا البحار إلى قاربك .

فاقترب منها الجندي، وحدثها :

- هيا أيها الفتي، سنترك هذا الميت ..

فالتفتت إليه، وقالت متوسلة :

- أرجوك، لقد كان شيخا طيبًا .

فاقترب منها قائد الجنود حين سمع صوتها، وحدّق بكتفها اللامع مع ضوء النيران المشتعلة، وهمس بصوت سمعته :

- وشم ثلاثي الأرقام ؟!!

ثم مدّ يده، ونزع قلنسوتها، ونظر إلى وجهها وقال :

- تقصدين، كان شيخًا خائنًا ..

ثم صاح بجنوده :

- احملوها مع الفتي إلى قواربنا، وألقوا بهذا الميت بالبحر

بعدها نظر إلى الطبيبة التي حدّقت به، وأكمل ببرود :

- أمامنا ثلاثة أيام لنعود إلى أماريتا ..لن يتحمل أحد رائحة جيفته

***

في يومنا الثالث اقتربت بنا السفينة الملكية من شاطئ أماريتا مجددًا، لا أذكر خلال تلك الأيام الثلاثة أن نطقت الطبيبة بكلمة واحدة، ما أذكره أن الجنود قد كبّلوا يدها وقدميها مثلما فعلوا معي، ووضعانا سويا بغرفة ضيقة بقبو السفينة لايزيد طولها أو عرضها عن ستة أقدام كانت جدرانها من قوائم حديدية، وجلست الطبيبة بجواري شاردة هائمة، زائغة العينين، غير عابئة بسباب الجنود أو نعتهم لنا بخونة أماريتا إن ألقوا لنا بطعامهم الردئ مساء كل يوم، وأن حاولتُ التحدث إليها أومأت إليّ برأسها دون أن تجيبني قبل أن يسبّني حارس الغرفة كي أصمت ..

ووصلت السفينة إلى الشاطئ، فاقتادنا القائد وجنوده مُكبلين إلى عربة كانت في انتظارهم، انطلقت بنا جيادها مسرعة عبر باب أماريتا، وكدتُ أغرق بنطالي من الخوف حين سمعتُ أحد الجنود يقول أننا في طريقنا إلى قصر القائد العسكري جرير، وواصلت العربة تحركها، قبل أن تتوقف أمام أحد القصور، وأمرنا قائد السفينة أن نترجل، ودلف بنا هو وجنوده إلى بهو ذلك القصر الشاهق ..

***

لم أشعر بلحظات خوف مثلما شعرتُ بها ذلك الأوان، وقتها لم يجل بذهني شئ سوى ذبحي أو إحراقي أمام أهل أماريتا. وكلّما مرت برهة من الوقت زاد معها قلقي وتوتري، وعلت دقات قلبي حتي كادت يسمعها من يقفون بجواري، أما الطبيبة فوقفت صامتة كعادتها، علي وجهها هزال لم أجده حين رأيتها للمرة الأولى قبلها بأيام، ثم بلغت دقات قلبي أقصاها حين اقتادنا الجنود إلى بهو آخر كان يجلس به القائد جرير علي مقعد كبير مُذهب، بجواره قائد السفينة الملكية، وما إن وقفنا أمامه حتي نهض وتحرك نحونا، ثم وقف أمام الطبيبة، وأمسك بذراعها بقوة ناظرًا إلى كتفها الموشوم، وقال :

- وشم ثلاثي، يعبر هضاب ريكاتا ..

ثم نظر إلى فجأة، وسألني :

- كم عمرك أيها الفتي ؟

فأجبته وأنا أرتعد :

- خمسة عشر..

وسكتُ، فصمت هو الآخر، وعاد إلى مقعده، وساد الصمت لحظات قبل أن تنطق الطبيبة :

- لم يكن يعلم الفتي أين تتجه السفينة ..

فنظر إليها، وسألها :

- إذن وأين كانت تتجه ؟

أجابته هادئة دون أن ترفع عينها :

- أردتُ أن أغادر فحسب ..

قال متهكمًا :

- خيانة تحدث للمرة الأولى ببلادنا، تقوم بها امرأة ..

وحدّق بالطبيبة، ثم رقص قلبي فرحًا حين أشار إلي، وقال لجنوده :

- اصرفوا هذا الفتي إلى أهله .

بعدها نظر إلى الطبيبة، وقال :

- سيُعرض أمركِ علي الملك هذا المساء، أعدكِ بأن تصبحي عبرة لبلاد بحر مينجا،

وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى بها الطبيبة أسيل ..

***

(١٥)

قصر الملك

قمر

أستطيع القول أن ما حدث بقصر الملك قبل هذا اليوم شئ وما حدث بأيامنا اللاحقة شئ آخر تمامًا، أذكر أن اجتمع القائد جرير بالملك لأمر بدا لنا جميعًا مدي أهميته، ثم انتهيا فأمر القائد جنوده بأن يدخلوا من وصفها بخائنة البلاد، فزادت ضربات قلبي واندفع الدم بعروقي حين وجدتُ الجنود يدلفون ووراءهم الطبيبة أسيل قصيرة الشعر، مُكبلة اليدين والقدمين بأغلال حديدية، ترتدي زيًا رجاليًا مهترئًا، لأراها للمرة الأولى منذ فراقنا يوم جئنا إلى أمارتنا قبل أربعة أشهر كاملة بدت قسوتها واضحة علي وجهها الرقيق .

ووقفت الطبيبة أمام ملكنا الشاب الجالس علي عرشه بزيّه العسكري ساكنةً تنظر عيناها إلى أسفل أمامها دون أن ترفعها إليه، فنظر إليها للحظات طالت قليلًا، ثم حدّثها هادئًا :

- لقد أخبرني القائد جرير بأمر خيانتك وعزمك الهروب من بلادنا سيدتي .

وأكمل :

- إنها المرة الأولى التي يحاول أحدهم الهروب من بلادي ..

هل تعلمين جزاء تلك الخيانة ؟

فأومأت الطبيبة برأسها دون أن تنطق أو ترفع عينها إلى ملكنا، وأدركنا جميعًا أن موت الطبيبة بساحة القصر أمام أهل أماريتا بات قريبًا للغاية، قبل أن يسألها :

- من أي بلد جئتِ ؟

فأجابته :

- بيجانا سيدي .

فقال :

- ولماذا أردتي أن تغادري، وقد أخبرتكم منذ يومكم الأول أنكم لستم عبيدًا ؟!، تعملون وتأخذون أجركم مثلكم مثل شعبي، من يعمل منكم يستطيع أن يكوّن ثروته ويدفع ضرائبه، ومن يتكاسل ينال من العقاب ما يستحقه، لكم عشر سنوات تنعمون هنا بكل الحقوق ..

قالت الطبيبة وهي تنظر إلى الأرض :

- عشر سنوات لا نستطيع مغادرة بلادكم، عشر سنوات أصبحنا خلالها أرقامًا لا أسماء، لنعود بعدها كما جئنا، فاقدين كل شئ

وأضافت :

- إن اتفاقيتكم ليست إلا درجة من درجات العبودية، سيدي ..

قال :

- ومن يردّ ديون بلادكم غيركم أيتها الفتاة، لقد أعطينا بلادكم الكثير، ثم عجزت بلادكم عن سداده، فاختارتكم بلادكم لتعملوا

مقابل ديونها ليستمر دعمنا إليكم، لدينا من الخيرات ما يفيض ولديكم من البشر ما يكفي، إنني أخدم بلادي، وأنتم تخدمون بلادكم، لم يعد هناك مكان للكسالى بهذا العالم، أليس ذلك عدلًا؟

أجابت الطبيبة، وكانت لاتزال تخفض عينها :

- لم يكونوا كسالى سيدي، كانوا فقراء نهب خيرهم سادتهم، ووفق عهدكم سيأتي فقراء غيرهم وغيرهم ليدفعوا ثمن فساد حكامهم، أهذا هو عدلكم ؟!

قال :

- لو لم يكن عدلًا لما أحبني من جاء من بلادكم مثلما أحبني شعبي ..

رفعت الطبيبة عينها إلى سيدي للمرة الأولى، وقالت هادئة :

- لطالما رضي الفقير بالسئ خشية الأسوء، من يحبونك حين يشتاقون لأهلهم ولبلادهم سيمقتونك وسيمقتون بلادك كما مقتوا حكامهم، لن تغفر لكم زوجة أحدهم أو ابنته ذلك الفراق، كان عليك أن تري دموعهم أمام سجن بيجانا يوم رحيلنا، كنت ستعلم وقتها سيدي أنه لايوجد ميزان عدل كانت إحدى كفتيه حرية امرئ ..

فصمت الملك قليلًا ثم قال :

- تتحدثين عنهم ليس عنكِ، لستِ فقيرة مثلهم .. مالذي جاء بكِ إلى هنا ؟

فابتسمت الطبيبة، وقالت :

- تركتُ روحي للقدر، وعلمتُ أنه لن يخذلني ..

فسألها :

- ما اسمك أيتها الفتاة ؟

أجابته :

- اسمي أسيل، سيدي ..

فسألها مجددًا :

- وما قصتك ؟!

***

كانت الطبيبة جميلة حقًا، جمال اصطبغ بقسوة أيامها فباتت كالماسة التي أثقلتها النيران، وبدأت تتحدث إلى الملك عن حياتها بزيكولا منذ دخولها إليها حتى أصبحت طبيبة زيكولا الأولى دون تفاصيل كثيرة كانت قد أخبرتها لي حين عبرنا بحر مينجا معًا، تحدّثت عن قوانين زيكولا التي كانت تفخر بها لسنوات طويلة ثم مقتتها حين عاشت عناء الفقروأهله، وابتسمت ابتسامة مرة، وقالت :

- كنت أنا من يختار الأفقر ليخوض الزيكولا، فلفحني قدري وجاء الوقت ليذبح من أحب ..

ثم صمتت لحظة، ونظرت إلى الأرض أمامها وابتلعت ريقها، وأكملت :

- لم يكن يستحق الموت .. أعطيته من ثروتي قبل ذبحه لينجو، وغادرتُ زيكولا، فأعلنني حاكمها خائنة، وساقني القدر إلى هنا ..

فقال الملك :

- إذن، أعتدتي أن تخوني قوانين بلدانك ..

أجابته :

- القوانين غير العادلة ليست بقوانين سيدي .

فقال :

- وإلى أين كانت وجهة سفينتكم ؟

فسألته باسمةً:

- هل ستعبر بي مجددًا ؟! ..

فأجابها باسمًا :

- لا، لست مثلك، لا أحيد عن قوانين بلادي ..

فابتسمت وقالت :

- إذن ..فلتسمح لي أن احتفظ بهذا السر سيدي ..

فقال الملك :

- ألا تخشين موتك بساحة قصري ؟

أجابته :

- لن يختلف كثيرًا عن موتٍ علي سفينة مشتعلة كان يحيطها الماء من كل جانب ..

فابتسم الملك ثم فوجئنا به يشير إلى أحد الجنود بأن ينزع أغلال الطبيبة، قبل أن يشير إلى قائلًا :

- اصعدي بالطبيبة إلى الغرفة الشرقية، واهتمي بشئون معيشتها، إنها ضيفتي من اليوم ..

وقتها أدركنا أن الطبيبة باتت علي حافة شأن عظيم ..

غادرنا البهو الملكي، فابتسمت لي الطبيبة، واحتضنتني والدموع تلمع بعينها، ثم صعدتُ بها إلى الغرفة الشرقية أفخم غرف القصر، لم نتحدث كثيرًا، كنت أدرك حاجة جسدها المنهك إلى الراحة، فتركتها بعد أن أخبرتها أنني وثلاث من الوصيفات سنتولى شئون ضيافتها .

***

ما إن نالت الطبيبة راحتها وبدّلت ثيابها الرثة بفساتين صُممت خصيصًا من أجلها حتى أبهرت من بالقصر بجمالها وبنقاء روحها التي عبقت بكافة أرجائه منذ اطلالتها الأولى، وسرت همهمات الفتيات من حولي عن نظرة الملك إلى الطبيبة، وتوقف الشراب بحلقه حين دلفت إليه بفستانها الأنيق بعدما طلب لقائها للمرة الثانية يومها الثالث بالقصر..

ثم تعددت لقاءاتها كثيرًا، إما ببهو القصر الرئيسي أو بمكتبته أو حديقته الخلفية، كانا يتسامران لساعات وساعات وكأنهما لا يشعران بالوقت من حولهما، يتناقشان بأمور شتى وقضايا مختلفة، كانت إن تحدّثت استمع إليها وإن تحدّث جادلته، فينهض إلى أرفف مكتبته ليحضر كتابًا مدعمًا قوله بما ذكره مؤلفه، فتزيد جدالها جدالًا، فإن أقنعته ألقى بكتابه إلى نيران مدفأته معلنًا انتصارها، وإن أقنعها قالت مداعبة له :

- ربما.

قبل أن تكمل باسمة :

- ولكن لنا جولة أخرى سيدي ..

***

علي نحو أربعة أشهر لي بالقصر لم أرَ تلك النظرة علي وجه الملك لامرأة مثلما رأيت نظرته إلى الطبيبة خلال تلك الأيام، سبعة عشر يومًا كانت كافية لنعلن أن قلب ملكنا قد تعلّق تمامًا بذكاء ابنة بيجانا. طبيبة أماريتا الجديدة ..

وسارت الأمور جميعها علي خير ما يرام، أقسم أنني لم أشعر ببهجة هذا القصر مثلما شعرتُ بها تلك الأيام، قبل أن تنقلب فجأه رأس علي عقب دون مقدمات فجر ذلك اليوم حين أيقظتنا صرخات شديدة مدوية مزقت سكون الليل، فنهضنا جميعًا وركضنا نحو الغرفة الشرقية مصدر تلك الصرخات، يتقدمنا الملك تميم بثياب نومه، لتتسمر أقدامنا وتُجمد أجسادنا حين دلفنا إلى الغرفة ووجدنا الطبيبة راقدة علي أرضيتها زائغة العينين ينتفض جسدها لا إراديا بقوة، وتصرخ بصرخات ترجّ الجدران من حولنا ممسكة برقبتها تنازع اختناقها، ثم توقف جسدها عن انتفاضاته رويدًا رويدًا لتنظر إلى سيدي الذي اقترب منها نظرة لن أنساها ماحييت، كأنها تتوسل إليه بأن ينقذها، قبل أن تغمض عينها وقد أصبحت شاحبة شحوبًا لم أرَ مثيله في حياتي.

***

(١٦)

قانونٌ جديد

سنواتٌ طويلة عمر القصر الملكي، لم يشهد خلالها قدوم هذا العدد من الأطباء، فمنذ أن غابت أسيل عن الوعي ولم يمر يوم واحد إلا ودلف إليه جماعة منهم غير الذين سبقوهم، دون أن يجد أحدهم تفسيرًا لحالة الطبيبة الشاحبة، ما يستطيعون قوله أن وظائفها الحيوية تعمل بانتظام ولا يوجد عرض آخر يوحي بإصابة مخها الغائب عن الوعي بعلّة ظاهرة، وثبّت كَبيرهم بذراعها أنبوبًا معدنيًا رفيعًا تدلي من زجاجة بها سائل مغذي مُطعّم بمنشطات للعقل، وحدّث الملك آملًا أن يستجيب مخها لدوائه، وآسفًا بسوء المصير إن لم يستجب ..

***

ثمانية أيام لم يفارق الملك غرفة الطبيبة إلا إن اجتمع بمجلسه، فتقوم قمر بتدليك جسدها بالزيت قبل أن يعود ويجلس أمامها، لا تفارق عينه وجهها أو الزجاجات المغذية التي تتبدل واحدة تلو أخرى دون أن يحدث جديد .

ثم جاء صباح اليوم التاسع، ودلف إلى القصر طبيب شاب جاء من بيسانا، وحين انتهى من فحص أسيل أخبر الملك بما أخبره به من سبقوه من أطباء، وغادر الغرفة إلى الممر أمامها فسمع إحدى

الوصيفات تتحدث إلى أخرى بأن قمر تجلس بغرفة الطبيبة، فسألها بفضول :

- أي طبيبة ؟!

فأجابته الوصيفة :

- السيدة أسيل المريضة، كانت طبيبة زيكولا ..

فعاد مرة أخرى إلى الغرفة، وسأل الملك أن يفحص أسيل مجددًا، ثم وضع بين إصبعيه ثنية من جلدها وأكمل فحصه، ثم حدّق بها مفكرًا، قبل أن يلتفت إلى الملك قائلًا :

- سيدي، لقد تجاهلتُ شيئًا أنا وغيري ممن سبقوني من الأطباء .

لقد عاشت الطبيبة عمرها بزيكولا، ولقد قرأتُ قديمًا الكثير عن حياتهم هناك، قبل أن ألتقي ذات مرة بطبيب خرج من زيكولا، وحدّثني عن قوانين بلدهم التي مُيزوا بها، وعن شحوب فقرائهم المميز الذين يصابون به دون اختلال وظائف جسدهم الحيوية إن فقدوا وحدات ذكائهم، وعلّمني كيف يميزونهم عن مرضاهم بفقر الدم .

فقال الملك :

- هذا هناك، في تلك الأرض الملعونة، ليس في بلادنا ..

فقال الطبيب :

- لكني سمعتُ خبرًا عابرًا بالأمس، أن زيكولا قد طبّقت قانونًا جديدًا يقتص من خائنها ..

***

يامن

كانت الأشهر الخمسة الماضية الأصعب بحياتي علي كل حال، ومازلتُ لا أصدّق أنني حي حتي هذه اللحظة، فمنذ أن أخبرتني نادين فتاة المنطقة الشمالية بعد أيام من رحيل خالد عن إبلاغ أحد تجار المنطقة الغربية عن نفق أسفل بيته يعبر سور زيكولا وبدءهم البحث عن مرتكبي تلك الخيانة، خالد والطبيبة أسيل وكل من رؤي مع خالد، ونادين بعد وشاية هلال النذل بها، ونحن نختبئ بالمنطقة الجنوبية لقرابة الخمسة أشهر، علّنا نستطيع مغادره زيكولا يوم يُفتح بابها ..

قبل أن يعلم إياد يومًا عن تكليف حاكم زيكولا المجلس الزيكولي الأعلي بوضع قانونٍ جديد بشأن خونة زيكولا، لكن حقا ما تخشاه كثيرًا لن يأتي أفضل منه، لقد أعلن كبير قضاة زيكولا قبل أيام عن قانون بلادنا الجديد الذي يقتص من خونتها، وقد نص هذا القانون علي أمرين :

الأول .. ألا يستطيع الخائن التعامل بوحدات ذكائه داخل زيكولا، ويُحظر علي أهل زيكولا التعامل معه، ومن يخالف ذلك يُتهم بالخيانه مثله، بمعني آخر، لن يستطيع الخائن العيش داخل زيكولا ..

الأمر الثاني، بأنه يحق لأهل زيكولا جميعهم استرداد وحدات ذكائهم التي دفعوها للخائن من قبل، حتي إن نالوا مقابلًا لها، خلال يومٍ واحدٍ فقط بعد إعلانه خائنًا ..

المثير للدهشة أن هذا القانون قد وُضع ليسري علي جميع الخائنين حتي وإن غادروا زيكولا، وأعلن كبير القضاة البدء في تطبيقه، قبل أن يعلن قائمة باسماء الخائنين، فرُدت إلينا الحياة مجددًا لعدم شمول القائمة اسمائنا بعدما لم يستطع جنود زيكولا الإمساك بنا. لقد اعتمدوا علي وصف خادم التاجر وهلال الثمل دومًا، وأنا وإياد ونادين مثلنا مثل الآلاف ممن يعيشون بأرض زيكولا، ولن يعرفنا أحد طالما بعدتُ عن المنطقة الشرقية، وابتعد إياد عن المنطقة الغربية، وابتعدت نادين عن المنطقة الشمالية.

خمسة أشهر كنا ننتظر بفارغ الصبر أن يُفتح باب زيكولا ونغادرها، ثم جاء هذا القانون ليبعد عنا أعين حراس زيكولا إلى خونتها الذين سيصبحون أكثر شحوبًا، فلا يخرج ذبيح زيكولا عنهم، ثم فُتح باب زيكولا، وعلمنا عن اتفاقية البشر مقابل الديون التي خضعت لها بلادنا المجاورة، وكما أبدو، لا أملك غير ملابسي، وإن غادرنا زيكولا لن تجدي وحدات ذكائنا خارجها بشئ، ولن يكون هناك أفقر منا، فقررنا أن نبقي في زيكولا حتي أوان آخر، وأن نعمل ونكمل خياتنا بمناطق لا يعرفنا بها أحد، لتصبح عدم شهرتنا ميزة ندين لها بحياتنا ..

واتجه إياد إلى المنطقة الشرقية ليعمل بتقطيع الصخور، وبقيتُ أنا بالمنطقة الجنوبية لأعمل بالزراعة، واتجهت نادين لتبحث عن عمل بالمنطقة الوسطي متيقنة بأنها لن تجد هلالًا هناك، واحتضنتني وهي تغادرنا باسمة بعدما لم تكن تتوقع أن تترك الرذيلة والمنطقة الشمالية يومًا ما، غير مصدقة بأنها قد فعلتها لخمسة أشهر، وتنوي أن تبحث عن عمل آخر حقيقي كما أخبرها خالد من قبل .

خالد الذي سماه القاضي في قائمته بالغريب الناجي من زيكولا، دون أن يعلم أن قانونه لن يجدي معه بشئ، لقد غادر منذ أشهر ولا

يحتاج إلى التعامل بالذكاء مجددًا، حتى من ينوي أن ينال وحداته منه فلا أتذكر أن هناك من دفع لخالد وحدات، كان هو من يدفع دائمًا. ما أحزننا حقًا أن القائمة قد شملت الطبيبة أسيل، بتهمتين للخيانة، الأولى التعامل مع ذبيح زيكولا، والأخرى تورطها بذلك النفق بالمنطقة الغربية بعدما وشي بها خادم التاجر الذي عرفها.

ولأنني أعرف أهل بلدي جيدًا وانتهازهم أي فرصة لكسب وحدة ذكاء واحدة، في الوقت الذي تعاملت فيه الطبيبة مع الكثيرين منهم، وبهذا القانون الذي يعطيهم حق استرداد وحدات ذكائهم كاملة، أصبحت الطبيبة كنزًا ليوم واحد وجده أهل زيكولا فجأة، سيسرعون جميعًا لالتهامه قبل أن ينضب، وحسب تفكيري المحدود، أن تفقد الطبيبة هذا العدد من وحدات الذكاء مرة واحدة، فإنه لايعني إلا الموت المحقق.

لم يكن هذا قانونًا فحسب، بل كان انتقامًا شرسًا لزيكولا، إنني أشفق عليها حقًا، لقد تحملت الطبيبة بمفردها ثمن عودة خالد إلى بلاده ..

***

أخبر الطبيب الملك تميم بأمر قانون زيكولا، وصدّق علي حديثه أحد مستشاري المجلس الأماريتي، عجوز أشيب الرأس اسمه سدير، عُرف عنه كثرة ترحاله ومعرفته الجمّة بشئون البلدان الأخرى، وختم الطبيب حديثه إلى الملك قائلًا:

- سيدي، إن طالت هذه الإغماءة لن تُجدي سوائلنا المغذية بشئ، أخشي أن تُصاب أحشاء الطبيبة باختلال وقصر لا رجعة له ..

ثم قال السيد سدير هادئًا:

- ليس هناك حل لنجاتها إلا إسقاط خيانتها ..

ولم تمر ساعة واحدة إلا وانطلقت سفينة ملكية علي متنها رسول يحمل رسالة من الملك تميم إلى حاكم زيكولا يطلب فيها إسقاط خيانة الطبيبة مقابل ما شاءت زيكولا، وأمر قائده جرير أن يحضر له كافة الكتب التي تحدثت عن زيكولا، ودلف إلى مكتبته .

***

ستة أيام لم يغادر طاولة مكتبته حتي إلى حجرة أسيل، يقلّب صفحات كتبه التي تحدّثت عن زيكولا كتابًا تلو الآخر، يقاوم إرهاق جفونه ليدوّن ما يجده مختلفًا عما قرأه من قبل، وإن غلبه النعاس لم يفارق كرسيه وغفا علي طاولته، ثم ينهض ليكمل تصفحه، لا يدلف إليه إلا خادم شرابه وطعامه القليل، وطبيب القصر ليحدّثه عن حالة الطبيبة التي لا تتحسن، والقائد جرير مساء كل ليلة، والذي حدّثه مازحًا ذات مرة حين لاحظ إرهاق وجهه:

- لو علمتُ أنك لن تفارق هذه الغرفة لأيام من أجلها لما أرسلتها إلى القصر..

فأجابه باسمًا:

- لقد كان أفضل ما فعلت بحياتك يا صديقي ..

فقال جرير متعجبًا من أمره :

- لدينا من الجميلات الكثيرات ..

فأجابه وهو يقلّب صفحة كتابه :

- لا شأن للجمال بذلك، ثم أغلق كتابه.

وأكمل :

- حين طلّت علي الطبيبة مُكبلة اليدين للمرة الأولى أدركتُ أن وراء هذه الفتاة الضعيفة أمرًا عظيمًا، ثم تحدثت فأيقنتُ أنني على وشك جُرم كبير إن أقررتُ خيانتها، ثم تحدثنا لأيامٍ فأحب قلبي حديثها، ثم جادلتني فأحب قلبي حكمتها.

فقال جرير:

- لكنها تظل خائنة لزيكولا سيدي .

فنهض، واتجه إلى أحد رفوف مكتبته، وقال وهو يلتقط كتابًا آخر:

- إننا من نضع قوانيننا يا جرير..لقد تناقشنا كثيرًا عما فعلته، كان بيدها أن تغيِّر قدر ذلك الغريب فغيّرته، لم ترَ أنه يستحق الموت، كانت نقية الروح فحسب .

ثم عاد إلى مقعده، وتابع :

- لن أجد مثلها ياصديقي ..

***

ثلاثة أيام أخرى، ودلف إلى الملك فجرًا رسوله حاملًا ردًا من حاكم زيكولا الذي أجاب برسالة مقتضبة تقول :

- حين يتعلق الأمر بأمن بلادنا لن يكفينا مقابلًا. نرفض طلبكم .

فأخرج الملك زفيره دون أن ينطق بكلمة ثم اتجه إلى غرفة الطبيبة وألقي نظرة مُطولة عليها، قبل أن يتجه إلى شرفة قصره وينظر إلى تمثاله المنتصب بمنتصف ساحته للحظات ثم اتجه إلى بهوه، وأمر كبير رجال القصر بحشد أهل أماريتا صباح يومهم التالي بساحات قصره، لترج أبواق الخطاب الملكي سماء أماريتا. بوقًا تلو الآخر أطلقها عمال كثيرون سُموا البوقيون، كانوا ينتشرون بكافة مناطقها، ما إن يطلق أولهم بوقه حتي يسمعه البوقي الأقرب فيطلق بوقه، فيسمعه الأقرب فيطلق بوقه، ثم الأقرب فالأقرب لترج أرجاء البلاد بنفير أبواقها التي يختلف إيقاعها حسب أغراضها، ويميزها كل من يعيش علي أرض أماريتا من أطفالها حتي شيوخها. ثم أرسل إلى مستشاريه ليحدّثهم بأمر هام قُبيل خطابه إلى شعبه .

***

طاولة بيضاوية التفّ حولها أحد عشر من مستشاري الملك، بينهم جرير، يتهامسون فيما بينهم عن هذا الخطاب الطارئ، وتسمع آذانهم هتاف وصيحات أهل أماريتا الذين احتشدوا خارج القصر منذ شروق الشمس وموسيقاهم التي اعتادوا أن تصاحبهم كل خطاب. قبل أن يدلف إليهم الملك بزيّه العسكري حاملًا بيده كتاب لم يتبينوه، ثم جلس وقال هادئًا :

- لم أهتم بشئون زيكولا من قبل مثلما اهتممتُ بها خلال أيامي السابقة لأعلم كم يمتلك حكامها من كبر وكبرياء .. لقد رفضت

زيكولا العفو عن الطبيبة، ولا أخفيكم سرًا، لقد عاهدتُ نفسي وعاهدتُ الطبيبة النائمة بعد سقمها أنني لن أدعها تموت ..

ثم أخرج زفيرا، وتابع :

- ولم يعد هناك مزيد من الوقت لإضاعته .

فقال السيد سدير:

- لم يعد بيدنا شئ، سيدي، طالما رفضت زيكولا العفو عنها.

فنهض الملك وتحرك إلى شرفة قصره، ونظر من وراء ستائرها إلى حشود شعبه الذين تجمعوا في انتظار خطابه، وطالت نظرته للحظات قبل أن يقول :

- أيها السادة، إن لم يعد أمامي سوى أن أغيّر خارطة هذا العالم من أجل نجاة الطبيبة سأفعل .

ثم إلتفت إليهم، وأردف :

- سأحتل زيكولا من أجل أسيل .

***

(١٧)

عهد الرسل القديم

ساد الصمت رجال الطاولة، ونظر بعضهم إلى بعض كأنهم لم يتوقعوا أبدًا ماقاله ملكهم الذي نظر إليهم في انتظار ردة فعلهم، ثم أكمل بعدما وضع أمامهم الكتاب الذي كان بيده :

- لم أجد أمامي إلا هذا العهد .. عهد الرسل القديم ..

إن زيكولا من أبرمته عنوة بينها وبين بلدان مينجا قبل قرون، كنا بين تلك البلدان، ووفق ذلك العهد مَن ينتصر بالحرب ويحكم قبضته علي الأرض المنهزمة يحق له إن شاء إخضاع قوانينها لقوانينه وإن كانت مقدسة أومن الثوابت .

كنت أوقن أن حاكم زيكولا مغرور لن يقبل العفو عن الطبيبة، وبحثتُ كثيرًا خلال أيامي السابقة عن كل صغيرة وكبيرة بشأن زيكولا، ولم أجد سبيلًا لنجاة الطبيبة إلا هذا العهد .

سنضرب زيكولا بكل قوة، ستعلو راياتنا أرضها، سأخضع قوانينها لي لأعلن براءة الطبيبة من الخيانة ..

فقاطعه جرير:

- لكننا سمعنا كثيرًا عن قوة زيكولا .

قال الملك :

- سيحارب معي كل أماريتي، سيُحال كل معدن من مناجم الريميوز إلى سيف أورمح أو درع ..

قال أحد الجالسين قلقًا :

- إن هُزمنا ستأتي إلينا زيكولا، وستذيقنا من الهلاك مالم نره من قبل ..

فأجابه :

- لن يستطيعوا عبور الريكاتا ..

فقال الرجل نفسه :

- لا نضمن ولاء كل أماريتي سيدي، لطالما اختبأ بين الشجعان ضعاف النفس ..

وقال آخر:

- سيموت الكثيرون من أجل امرأة واحدة سيدي ..

وقال غيره متعجبًا :

- تريد أن تدمّر ما فعلته خلال سنواتك الماضية من أجل امرأة ..

ثم قال أكبرهم سنًا :

- عفوا سيدي لقد كنا دومًا عونًا لك على شئون بلادنا، نقدّم مشورتنا فيما نراه يخدمها، تحكمنا قوانين لا نحيد عنها أبدا، لكننا اليوم نرفض قرارك، لن نخاطر بدماء أماريتي واحد من أجل امرأة غريبة ..

فقال الملك :

- من رأي منكم جيش زيكولا من قبل فليحدثني عنه ؟

فصمتوا جميعًا، فقال هادئًا :

- إذن لتتخذوا أماكنكم بشرفات القصر أيها السادة ..

***

امتلأت ساحة القصر بالمئات من رجال ونساء أماريتا، قبل أن تدور أعمدة جدرانها الرخامية الرقيقة دورة ربع دائرية لتُغلق جدرانها، وأُغلقت أبوابها، وعلت صيحاتهم وغنائهم حين أُطلق بوقٌ ظهر بعده رجال المجلس الأماريتي بشرفة القصر الجانبية، ثم وصل هتافهم ذروته بعد إطلاق البوق الملكي وظهور الملك تميم بشرفة القصر الوسطي رافعًا يده إليهم بالتحية، بعدها عمّ الصمت كافة الأرجاء ليبدأ خطابه بصوت رخيم، قائلًا :

- أيها السادة، أدين لكم تلبية ندائي، ولن أطيل عليكم.

ثم صمت برهة وأكمل :

- لقد أعتدت دائمًا أن أشرك مجلسي في قرارات بلادنا الحاسمة، لكن هذه المرة لابد وأن تكونوا شركاء أنتم ..

وتابع باسمًا :

- أعلم أنكم تنتظرون اليوم الذي تحتفلون به بزواجي .

فنظر بعضهم إلى بعض بوجوه فرحة في ترقب، وقال :

- اليوم أخبركم دون خجل أنني قد وجدتُ خير نساء هذا الزمان .

ثم أشار بعيدًا في إتجاه البحر:

- شمال بحر مينجا توجد بلاد زيكولا، حيث عاشت بين أناس يقتلون فقراءهم، لكنها كانت نقية القلب. أنقذت أحدهم فعاقبوها بقوانينهم الظالمة لتغدو بين جدران قصري تصارع حياتها الوقت .. ثم رفضوا بغرور طلبنا بالعفو عنها، ولم يعد لنجاتها سبيلًا سوى إخضاع قوانينهم لبلادنا .

ثم صمت وأكمل :

- لقد أحب ملككم هذه المرأة أيها السادة، وسأعبر هضاب ريكاتا بأسطول لم يشهده بحر مينجا من أجلها، واليوم أترك لكم خياركم بعبورها معي ..لن تنجو ملكتكم إلا بأياديكم.

فانفرجت أسارير الوجوه، قبل أن يكمل :

- إنني في حاجة إليكم .

فصاحوا جميعًا، وهتفوا باسمه هتاف رجّ جدران القصر، وعلت زغاريد النساء وعزفت الموسيقي ، ورفع الجنود أياديهم بسيوفهم ودروعهم، وظل الملك بشرفته ثابتًا ينظر إليهم وإلى تعابير وجوههم المتقدة بالحماس حتي أُطلق بوقّ ففُتحت أبواب الساحة مجددًا، وعاد الملك إلى مكتبة قصره ليجتمع بالقائد جرير دون غيره ، وأمر جميع عمال القصر رجالًا ونساءً بالمغادرة، فبادره جرير باسمًا :

- إذن سيعبر أسطولنا للمرة الأولى هضاب الريكاتا، فأومأ الملك برأسه شاردًا .

فتابع جرير:

- لقد أمرتُ أن تُرفع رايات الحرب بكافة أرجاء أماريتا، سيعمل كل

أماريتي فوق خمسة عشر عام من أجل إعداد الأسطول دون شئ آخر..

فسأله الملك :

- كم من الوقت نحتاج لتبحر سفننا ؟

- ليس أقل من ثلاثين يومًا سيدي، سأضم إلى سفننا الحربية سفن الصيد والتجارة، وكل أماريتي بالغ قادر علي حمل سيفه، وسيبحر رسلنا إلى كافة الجزر الجنوبية للإستعانة بسفنهم ورجالهم، إنهم يحبونك ولن يتأخروا عن الإبحار بأسطول يرفرف شعاره بأمرك سيدي ..

فقال الملك :

- بأمرك أنت يا جرير..سأغادر الليلة إلى زيكولا .

فارتسمت الدهشة علي وجه جرير، فتابع الملك .:

- أنت من سيقود أسطولنا، دون أن يدري أحد برحيلي ..

فقال جرير:

- أعذرني سيدي، لا أفهم ما تقصده ..

فقال :

- كما قلت، يحتاج أسطولنا إلى أكثر من ثلاثين يومًا لإعداده لحرب كبري مع بلد كبير مثل زيكولا، لكن أسيل قد لا تمتلك كل هذا الوقت .. ستكمل أسطولك وقواتك وستبحر بهم يا جرير، لكن الحرب لن تكون خيارنا الأوحد ..

لقد قرأتُ كثيرًا عن زيكولا ، وعلمتُ مدي كبر وكبرياء ذلك البلد، ووضعتُ خطتي علي هذا الكبرياء ..

ستتناقل أخبار خطابي سريعًا بين العامة، وبين التجار، وستطير إلى جميع بلدان بحر مينجا بينهم زيكولا أسرع مما تتخيل، ستحمل الأقاويل مدي الجدية التي تحدثتُ بها والحماسة التي يستعد بها مقاتلينا، ستنتشر الأخبار بين عامتهم أننا قادمون من أجل ملكتنا، طبيبتهم السابقة، عائدون لننقذها أو ننتقم لها عما فعلوه بها..

علي مدي العصور لم تحارب زيكولا بأرضها، ولم تسمح لبلد آخر بحصارها، سيعدّون جيشهم بوقت قصير، ليصدونا قبل أن نصل إلى أرضهم، كما فعلوها من قبل مع خصومهم منذ قرون مضت، سيُفتح بابها ليخرج جيشهم ويحتل شاطئ مينجا الشمالي، في انتظارنا .. لا أريد غير ذلك، أن يُفتح بابها مرة أخرى .. إن الطبيبة في حاجة ماسة إلى دخول زيكولا مرة أخرى، ولكن بابها قد أُغلق بعد مرور يوم عيدهم .. سأحرك كبرياء زيكولا لتخرج جيشها، ولن يُغلق حتي تنتهي الحرب علي شاطئ مينجا ..وكعادة تجار الشمال، سيجتمعون أمام بابها ليدخلوا إليها مطمئنين بخروجهم، مالم تنتهي تلك الحرب .. سأبحر الليلة مع أسيل كتاجر للذهب، وسأعبر بابها بين تجار البلدان الأخرى، لايعرفني أحد هناك، سأبدّل ذهبي ذكاء، لأعطيه للطبيبة، ستكمل بناء أسطولنا لتبحر بعد شهر من اليوم، لكننا لن نخوض الحرب إن نجحت، لايعلم بهذا غيرك .

وتابع :

- لا تُوجد سهام النجدة المضيئة ببلدان غيرنا ..

واقترب من الخريطة المُجسمة علي الجدار أمامهما، وأشار بإصبعه عليها :

- سيتخذ جيش زيكولا أقصر الطرق إلى ساحل مينجا

وحرك إصبعه علي الخريطة قليلًا إلى أعلي، وقال :

- هذا الوادي يُسمي وادي بيجانا، وادٍ ضيق لايصلح لمرور عربات أو مجانيق وتفصله جبال شاهقة عن الوديان الأخرى، وأقرب لبيجانا منه إلى زيكولا، لذا لا حاجة لزيكولا إليه، سيكون موضع إطلاق سهامي سيظن من يراها أنها شهب سماوية .غير رجالنا.

وحرك إصبعه إلى بحر مينجا :

- تحتاج السفن بعد هضاب ريكاتا إلى مسيرة خمسة أيام لتصل إلى الشاطئ الشمالي، ستتناثر خمسة سفن من سفننا بين كل واحدة وأخرى مسافة يوم، يعلو صواريها حادين البصر.

تستطيع أقرب السفن رؤية السهام، لتطلق سهامها لتراها السفن المتناثرة من بعدها حتي هضاب الريكاتا، ستوقف بعدها إبحارك، لن تغفر لي أسيل موت الكثيرين في تلك الحرب .

فقال جرير:

- وإن لم تُطلق السهام ؟

صمت الملك ثم قال:

- ستمضي وقتها قدمًا في طريقك، من أجل عهد الرسل، لن أغفر لزيكولا موت الطبيبة .

فهز جرير رأسه ثم قال باسمًا :

- لن ينسي التاريخ ذلك الملك الذي عرّض حياة شعبه ونفسه للخطر من أجل امرأة أحبها ..

فقال الملك :

- علي قدر الحلم تكون التضحية ياصديقي .

فقال جرير:

- حسنًا سيدي، ستجد من الجد بالعمل وانتشار الأخبار ما يجعل زيكولا تعلم أننا قادمون لاقتلاعها لتخرج لنا كل مقاتليها عبر بابها..

وكاد يغادر فقال الملك :

- هناك شئ آخر..

ثم حمل ورقة مصفرة مختومة بالختم الملكي، كانت ترقد علي الطاولة أسفل كتاب، ومد يده إليه بها، وقال :

- سيكون أول قرارلك باسمي في غيابي .

فانطبعت دهشة بالغة علي وجهه وهو يقرأ ما بها، ثم سأله :

- هل هذا صحيح ؟!!

فأجابه باسمًا :

- نعم ..

***

(١٨)

دقاتٌ مخيفة

قمر

كنا نصارع الوقت بحق، جسد الطبيبة بات نحيلًا للغاية، شحوبها كما هو لم يتغير، كنت أجلس بجوارها بغرفتها أثناء خطاب الملك، وعلمتُ ممن حولي أن سيدي قد عزم علي غزو زيكولا من أجلها، وتأكد حدسي بأنها ستصبح سيدة أمارِيتا الأولى، قبل أن تخبرني السيدة نجود بعد ساعات من الخطاب بأن استعد للرحيل مع سيدي والطبيبة علي متن سفينة كانت ستغادر شاطئ أمارِيتا مع غروب شمس ذلك اليوم ..

***

غربت الشمس وانطلقت بنا سفينة ملكية عمالها كثيرون، حملتني أنا وسيدي والطبيبة واثنين من حراس القصر لم يغادرا جوار عربة خشبية كانت معنا علي متنها، علمتُ فيما بعد أن أحدهما قد زار زيكولا من قبل، وقُسم قبو السفينة إلى غرفتين اتخذ الملك إحداها، وأمرني أن أمكث بجوار الطبيبة بالغرفة الأخرى بعد أن اطمأن أنني أستطيع تثبيت سوائلها المغذية بذراعها كما علمني طبيب القصر.

ومرت أيام سبعة ببحر مينجا دون أن أعي بم يفكر سيدي، أو إلى أين تتجه سفينتنا.. ما أوقن به أن ملكنا لا يضع بباله شيئًا سوى شفاء

الطبيبة، وحين أشرقت شمس يومنا الثامن دلف إلى حجرتنا، وقال لي دون مقدمات :

- اليوم سنصل شاطئ مينجا الشمالي، ستحملنا العربة إلى مقربة من أرض زيكولا، وسنتخذ مبيتًا لأيام بصحرائها، حتي يُفتح بابها، بعدها سنعبر إلى أرضها .. منذ أن تطأ أقدامنا الشاطئ، ولم أعد ملك أماريتا، إنني السيد تميم، تاجر الذهب القادم من الشمال إلى زيكولا، والحارسان معي ليسا إلا مساعديّ .

فأومأت برأسي إيجابًا، وأدركتُ سر ذلك الشرود الذي لم يفارق وجهه أيامنا السابقة.

ومع غروب شمس ذلك النهار حملنا زورق صغير إلى الشاطئ، بينما حمل آخر العربة وجوادها والحارسين، ثم أبحرت السفينة مبتعدة عنا، وغابت شيئًا فشيئًا عن أنظارنا مع انسدال ظلام الليل ..

***

بتنا ليلتنا الثامنة بخيمة أعدّها لنا الحارسان علي شاطئ مينجا، وابتسمتُ حين تذكرتُ القافلة التي حملتني أنا والطبيبة مُكبلتين إلى هذا الشاطئ قبل خمسة أشهر، كانت الطبيبة وقتها تشع طاقة وأملًا، ودارت برأسي كلماتها إليّ قبل مغادرتنا السجن الغربي بأن أماريتا طريقها إلى سرداب فوريك، قبل أن تعيدها إليّ حين غلبني فضولي وسألتها مجددًا بعربة الفقراء عن ذلك السرداب الذي تحدثت عنه، فقالت إن أماريتا ستصبح طريقها إلى زيكولا ومن ثم إلى أرض حبيبها، لا أعلم إن كانت تدري بأننا نمضي قدمًا في ذلك الطريق الذي تمنته أم لا.

ثم بلغت دهشتي ذروتها وكدتُ لا أصدّق عيني حين نظرتُ إلى السماء، ووجدتُ ذلك النجم اللامع بها، أقسم أنه هو، ما أرتني إياه من

قبل ليلة رحيلنا وأخبرتني أن حبيبها قد سماه باسمها، كان يلمع وحيدًا مميزًا كأنه يحتفل بعوده سيدته إلى بلاده مرة أخرى.

وفي صباح يومنا التالي وجدتُ سيدي قد بدّل ثيابه العسكرية ليرتدي قميصًا قماشيًا واسع الجيب وبنطالًا أسفل عباءة مزركشة ليشبه تجار بلادنا، وقاد الحارسان العربة نحو وادٍ رملي امتد بين جبلين لاحا في الأفق، وجلستُ في صومعة العربة أمام سيدي الشارد الذهن، بجواري سيدتي الطبيبة النائمة، وكعادته لم يحرك عينه عنها إلا للحظات غاب معها نظره عبر نافذة العربة التي أسرعت بنا تعبر سهولًا ووديانًا في طريقها إلى صحراء زيكولا..

***

ومضت ساعات أخرى لم تقف خلالها العربة مرة واحدة، حتي وصلت بنا إلى أعلي إحدى الهضاب مع اقتراب الشمس من المغيب، ثم ابطأت من سرعتها، وتوقفت للمرة الأولى، وهبطنا إلى الأرض، وبدأ الحارسان يعدّان الخيمه مرة أخرى، بينما حمل سيدي الطبيبة بين ذراعيه، وتقدّم بها ثابتًا تجاه حافة الهضبة، فأسرعتُ خلفه، حتي توقف علي حافتها، ونظر إلى أسفل بعيدًا حيث ظهرت مدينة كبيرة ذات منظر بديع من أعلي، بها مبانٍ شتي تتخلها مساحات خضراء كأنها أراضٍ زراعية، ومسطحات من الماء، يحيطها سور صخري شاهق فاق كل أسوار المدن الأخرى التي رأيتها من قبل، وبعدما طالت نظرته سمعته يهمس إلى الطبيبة قائلًا:

- تمنيتُ لو تدركين أين نحن الآن..

ثم أكمل بعد لحظات:

- لنري ماذا تخبئ لي ولكِ هذه الأرض الملعونة ..

كانت المرة الأولى التي أرى بها أرض زيكولا، لطالما سمعتُ عنها وعن لعنتها لكنني لم أظن يومًا أن اقترب منها إلى ذلك النحو، حدّثني شاب بيجاني ذات يوم عن رحلته إلى تلك المدينة، وعن تعاملهم بوحدات الذكاء دون غيرها من البلاد، وعن يومهم الذي يحتفلون به فيذبحون الأفقر بها، فلعنتها في نفسي، وزاد حبي لبلادي قبل أن تدور الدائرة، وتصبح بلادي أكثر لعنةً وترسلنا إلى أماريتا، وها أنا أجلس بخيمة علي أقرب الهضاب إليها في انتظار أن تحدث المعجزة ويُفتح بابها كما خطط سيدي ..

***

مكثنا في خيمتنا لأيام، يمر وقتنا ببطء لم أشهد مثيله، لا أذكر أن فارق سيدي حافة الهضبة إلا قليلًا، كان ينظر بعيدًا إلى زيكولا ويظل شاردًا لأوقات طويلة قبل أن يهبط ظلام الليل فيعود بظهره إلى الرمال ليحدّق بنجوم السماء حتي يغلبه النعاس، ثم ينهض مع شروق نهارنا التالي، فيشبه يومنا سابقه، فإن شعر بتسرب اليأس إلى قلوبنا اقترب منا وحدّثنا بأنها ستفتح بابها، ثم يمسح بيده علي وجه الطبيبة، ويهمس إليها بأنها ستنجو..

ثم حدث التغيّر الأول يومنا التاسع حين فوجئتُ بسيدي يصيح فجأة بثلاثتنا - أنا والحارسين - بأن نقترب من الحافة، وأشار إلى عربتين تسيران بطريق يتجه إلى زيكولا، ثم حدث الأمر نفسه يومنا العاشر والحادي عشر ومرت عربات أخرى كانت أكثر عددًا بالطريق ذاته، ثم

انخلع قلبي يومنا الثاني عشر حين حاصرنا من كل جانب صدى صوت لدقات طبول انطلقت فجأة مع شروق الشمس، كان إيقاعها قويًا مخيفًا، ثم توقفت لتصرخ الأبواق عاليًا، ثم دقت الطبول مرة أخرى إيقاعًا منتظمًا رجّ صداه الصحراء من حولنا، فوجدتُ سيدي يقف منتصبًا على حافة الهضبة لا يحرك ساكنًا، فاقتربنا منه، لنرى رايات حمراء كبيرة قد عُلقت على سور زيكولا، ولاح بالأفق بعيدًا غبار كثيف يتصاعد إلى السماء تلاشت معه رؤية ما خلفه من سور زيكولا ومبانيها، فنطق الملك هائمًا:

- اليوم كُتبت النجاة للطبيبة ..

***

(١٩)

جيشٌ كبير

استمرت دقات الطبول وصدى صوتها من حولنا، وبلغ الغبارعنان السماء، كُسِيَ معه الطريق الرملي أمام زيكولا بغطاء أسود لامع، نما زاحفًا بانتظام كبساط يخرج من زيكولا دون نهاية كوّنت أنسجته ألوف من الجنود الذين اصطفوا كالنمل بخوذهم ودروعهم في صفوف متساوية، بلغ الصف الواحد المئات منهم، كانت صيحاتهم العالية تدوي في تناوب مع دقات الطبول، فدق قلبي خوفًا، وأحمرّت وجنتاي، ونظرتُ إلى سيدي الواقف بجواري مُحدقًا بتلك الجحافل التي تخرج من زيكولا دون انقطاع، ثم قطع صمته الطويل، ونظر إلى الحارسين خلفنا قائلًا:

- أعدّا العربة كما أخبرتكما سابقًا.

ثم نظر إلي، وقال:

- انزعي سوائل الطبيبة، سنبدأ طريقنا إلى داخل زيكولا.

فعدتُ إلى الخيمة، وفعلتُ ما أمرني به، ثم جاء الحارسان بصندوق كبير كان مُثبتًا بمؤخرة العربة منذ تحركنا، ووضعاه بجوار الطبيبة وفتحاه، فوجدته مُبطن بوسائد بيضاء رقيقة، ثم حمل سيدي الطبيبة، وأرقدها برفق بذلك الصندوق، ومد يده إلى جوانبه واطمئن

إلى وجود ثلاثة ثقوب دائرية صغيرة، واحد بكل جانب من جوانب ثلاثة، ثم غطي سيدتي بلوح خشبي رقيق طُلي جانبه العلوي بماء الذهب، وجاء الحارسان بصندوقين آخرين كانا معنا داخل صومعة العربة، وفتحاهما، لأجدهما ممتلآن بسبائك ذهبية لمعت بشدة مع آشعة الشمس التي تسربت إلى الخيمة، وبدءا يصفّان تلك السبائك أعلي اللوح الخشبي، حتي انتهيا فبدا الصندوق وكأنه ممتلئ عن آخره بالذهب، ثم حملاه إلى داخل العربة، وتبعتهما لأجلس بجواره، ثم دلف سيدي إلى صومعة العربة بعدما أزال الحارسان الخيمة، وانطلقنا في طريقنا إلى أرض زيكولا..

***

اتخذنا طريقًا متعرجًا هبط بنا من الهضبة إلى الطريق الترابي إلى زيكولا، ثم انحرفت بنا العربة إلى جانب الطريق بعيدًا خلف عربات أخرى كانت في طريقها إلى زيكولا، ثم توقفنا بأمر من سيدي حين توقفت تلك العربات أمامنا بعدما اقتربت منا طلائع الجيش الزيكولي.

وهبط سيدي إلى الأرض، ووقف بجوار العربة حين بدأت صفوف الزيكوليين تمر علي الطريق أمامنا، بينما مكثتُ بالعربة أراقبهم عبر النافذة بجواري، كان وقع ارتطام أقدامهم بالأرض قويًا يهز الأرض من أسفلنا، تحلّق معه صيحاتهم الحماسية إلى السماء، وتلمع أسلحتهم ودروعهم مع آشعة الشمس دون أن يلتفت أحدهم جانبًا كأننا غير مرئيين، يتوسطهم حاملي الطبول التي لايتوقف إيقاعها، ويتناثر بينهم حاملي الرايات التي ترفرف عاليًا بين الصفوف.

لم أتخيل أن يكون عددهم كبيرًا إلى ذلك النحو، وظللنا واقفين حتي اقتربت الشمس من منتصف السماء، فانتهى الثلث الأول منهم، ثم ظهر الثلث الثاني مع دقات طبول اختلف إيقاعها، كانوا فرسانًا تغطي

وجوههم خوذ مخيفة، ويحيط أعناق بعضهم عقود من الورد، تسير جيادهم ببطء في محاذاة تنتشي بدقات الطبول من حولها، كان عددهم كبير للغاية، لايقل عن بضع آلاف بأقل تقدير، ثم دقت الطبول إيقاعا آخر، فظهر أمامنا الثلث الأخير من جنود تجر خيولهم أبراجًا شاهقة لم تتضح لي معالمها بعدما غُطيت بأغطية قماشية. كان عددها بالعشرات. تتبعها عربات كثيرة تُغطي صناديقها الممتلئة بأقمشة هي الأخرى ..ويجرها خيول بدت غير قادرة علي جرها لولا سياط الجنود المنهالة علي أجسادها. فسمعتُ أحد الحارسين يقول للآخر:

- إنها مجانيق زيكولا الزيتية، يستطيع الواحد منها إحراق مدينة كاملة ..

فنظرتُ إلى سيدي الواقف بجوار العربة، وأدركتُ أنه شعر بما شعرتُ به، ما رأيته أن ذلك الجيش لم يخرج ليدافع عن أرضه فحسب، بل خرج ليعبر بحر مينجا إلى أماريتا .

***

أكملنا طريقنا إلى زيكولا بعد ساعات من انتظار مرور جيشها، وابتلعتُ ريقي رهبةً حين ظهر أمامنا سورها الشاهق وبابه الضخم المفتوح علي مصراعيه، كانت الساحة أمامه مليئة بالهرج والمرج، من أهالي زيكولا الذين خرجوا نساءً ورجالًا وأطفالًا ليودّعوا جنودهم حاملين عقود الورد، ومُطلقين الأغاني مع عازفين انتشروا بينهم، ومن عربات التجار التي تزاحمت أمام باب زيكولا في انتظار عبورها إلى داخل المدينة، ثم أبطأت عربتنا من سرعتها بين الزحام، وتوقفت فجأة، وفُتح بابنا، ليسألنا أحد الحراس باقتضاب :

- من أنتم ؟

فرد سيدي في هدوء :

- السيد تميم، تاجر للذهب، جئتُ من الشمال .

ثم فتح صندوقه فلمعت سبائك الذهب، وزاغت عينا الحارس قبل أن يومئ برأسه إلينا إيجابًا، ويرحب بنا في زيكولا، ويصيح بآخر كي يفسح لنا الطريق، وتحركت العربة لتعبر باب زيكولا . فأمسكتُ برأسي بعدما أصابها ألم شديد مفاجئ، حتي أنني انزلقتُ بين مقعدي العربة، وأغمضتُ عيني لألتقط أنفاسي بصعوبة، وسرت بجسدي رعشة لم أشعر بها من قبل، بينما أغمض سيدي عينه دون أن يظهر ألمه، ثم بدأ الألم يتلاشي شيئًا فشيئًا، فسألني سيدي إن كنت بخير، فعدتُ إلى مقعدي وأومأت برأسي إليه إيجابًا، فقال لي :

- إنها لعنه هذا البلد لمن يدخلها مرته الأولى .

فدق الخوف بقلبي، ونظرتُ إلى باب زيكولا الذي عبرناه، وجال بخاطري للمرة الأولى :

- ماذا لو أغلق ذلك الباب، ولم نكن قد خرجنا بعد !

***

(٢٠)

تاجر الذهب

دلفت العربة إلى المنطقة الشرقية لزبكولا، ووجهت قمر نظرها عبر نافذتها لتري ضواحيها ومبانيها التي كانت تشبه إلى حد كبير مثيلاتها في أماريتا حيث البيوت المتلاصقة علي جانبي الطرقات المعبدة، وذُهشت حين وجدت الكثيرين يملأون شوارعها رجالًا ونساءً! بعدما ظنت أنها ستجدها خاوية علي عروشها مع خروج جيشها الضخم إلى صحرائها، وكأن من خرجوا ليسوا إلا جزء يسير منهم ..

وأكملت العربة تقدمها بشارع واسع مُعبد، ثم توقفت أمام إحدى الحانات بأمر من الملك تميم الذي ترجّل، ودلف إلى الحانة وسأل صاحبها عن بيت يستأجره لعشرين يومًا، فدلّه إلى أحد البيوت مقابل عشر وحدات من ذكائه، كانت أولى الوحدات التي يفقدها بهذا البلد، ونظر إلى يديه كأنه يتأكد من شحوبهما، فداعبه الرجل قائلًا:

- إنها ليست إلا عشر وحدات أيها الغني ..

فأومأ الملك برأسه إيجابًا دون أن ينطق، وعاد إلى العربة التي أكملت سيرها في الإتجاه الذي وصفه رجل الحانة، حتي توقفت أمام بيت صغير أحاطه سور من قوائم حديدية، وهبط مع أحد الحارسين، ودلفا إلى داخله، والتقيا صاحبه، ثم عاد إلى العربة بعدما استأجر بيته مقابل مائتي وحدة من ذكائه، ولاحظت قمر شحوب شفتيه قليلًا لكنها

لم تحدثه بشئ بعدما بدا الوجوم علي وجهه، ثم أمر حارسيه أن يحملا صندوق الذهب إلى داخل البيت، فحملاه إلى ردهته، وأسرعا يعيدان الذهب إلى الصندوقين الصغيرين، وأزالا اللوح الخشبي، وحمل أحدهما الطبيبة إلى سرير بإحدى الغرف العلوية. فأسرعت إليها قمر، ووضعت أذنها علي صدرها وسمعت دقات قلبها. ثم ثبتت بذراعها سن أنبوب سائلها المغذي وتأكدت من سريانه. فابتسمت ونظرت إلى ملكها الذي بدا قلقًا فطمأنته ابتسامتها، قبل أن يغادر علي الفور، ويمتطي حصانه، بينما امتطي حارسه الذي زار زيكولا من قبل الحصان الآخر معه أحد صندوقي الذهب، وانطلقا في طريقهما إلى المنطقة الوسطي ..

***

كانت المنطقة الوسطي أرقى مناطق زيكولا، ومُيزت بقصورها التي سكنها أثرياء هذا البلد مُجاورين لقصر حاكمهم، وبعد مرور ساعات من انطلاقهما حلّ الليل، وأُنيرت تلك المنطقة بمصابيح نارية بيضاء ثُبتت علي تماثيل كثيرة نُحتت لنساء علي جانبي الطرقات، لمعت معها أسوار قصورها فزادت جمالها جمالًا.

وما إن وصل إليها الأماريتي حتي دلّه حارسه إلى قصر عُرف بقصر الذهب، علم كل من عاش بأرض زيكولا عن ثراء صاحبه الهائم عشقًا بهذا المعدن، واقتربا من بابه فوجدا حارسًا فارع القامة، فسألاه أن يقابلا سيده، قبل أن يرياه صندوقهما، فغاب عنهما قليلًا ثم عاد إليهما، وأخبرهما بانتظار سيده.

***

دلف الملك الشاب إلى بهو القصر وخلفه حارسه يحمل صندوق ذهبه، فوجد جدران القصر وسقفه وأثاثه مُرصعين بنقوش ذهبية،

تباينت أشكالها وأحجامها، ثم سمع صوتًا جاء من خلفه يسأله :

- كم لديك من الذهب ؟

فالتفت إليه ليجده رجلًا مسنًا تبدو الحيوية علي وجهه، فأجابه بهدوء :

- لدي الكثير، وعلمتُ أنك أكثر من يقدّر الذهب بهذا البلد فجئتك مباشرة ..

فسأله وهو يصب شرابه :

- من أين جئت ؟

أجابه الملك :

- إنني من وادي السراوي بالشمال .

فقال الرجل :

- لم أسمع عنه ..

فقال الملك باسمًا :

- لسنا بشهرة زيكولا ..

فسأله :

- وماذا تفيدك ثروة كبرى من الذكاء ؟

قال :

- إن أهلي في حاجة إلى الكثير من المؤن، سأذهب إلى المنطقة الغربية لأحمل احتياجاتهم وأغادر بلدكم .

قال الرجل :

- تكسب الكثير اليوم ثم تفقده فجأة، قد يؤذيك .

فقال الملك :

- إن جسدي قوي، طالما ابتعدتُ عن الحد الآمن من ذكائي لن يضرني أيها السيد، أليس كذلك ؟

أجابه :

- إنك ذكي حقًا، لتريني ما لديك ..

فأشار إلى حارسه بأن يفتح صندوقه، وقال :

- مائة سبيكة .

فنظر الرجل إلى السبائك، وقال هائمًا :

- رائع

ثم أكمل :

- ألم تخشَ أن يسرقك قطاع الطرق ؟

فأجابه :

- وقتها سأعلن عن مهارتي بالقتال، وأظهر سيفه بغمده أسفل ردائه.

فقال الرجل :

- تعجبني جرأتك أيها الشاب، حسنًا، خمسون وحدة للسبيكة ..

فقال الملك مُدهشًا :

- لكن السبيكة لا تقل عن مائة وحدة بأقل تقدير.

فضحك الرجل بلؤم :

- هذا قبل أن تخبرني عن حاجة أهلك إلى الطعام والمؤن. سأخبرك بشئ، لن يستطيع أحد شراء ذلك الصندوق منك خلال تلك المدة القصيرة، سينتصر جيشنا وسيعود قريبًا، إما أن تبيعني الآن أو تنتظر عامًا كاملًا هنا تبيعها سبيكة سبيكة لتحصل علي مرادك من وحدات الذكاء ..

فقال الملك في نفسه :

- اللعنة عليك أيها الجشع.

ثم حدّثه :

- حسنًا، إنني أقبل ..

فابتسم الرجل، وقال :

- أحسنت أيها الشاب.

ثم أشار إلى خادمه قائلًا:

- فلتأت بالخزائن .

فغاب الخادم لدقائق، قبل أن يعود ومن خلفه ثلاث رجال وامرأتان متوردو الوجوه، فقال الرجل :

- إنهم بعض من خزائني ..

وأردف :

- لن يتحمل عقلي تجارة ثروتي مع تقدم عمري، لقد اخترتهم بعناية، أضمن حياتهم مقابل أن يحفظوا الجزء التجارى من ثروتي ..

فسأله الملك :

- وإن خانوك ؟

أجابه ببرود :

- تتيح لنا قوانين زيكولا قتلهم وإعادة ثروتنا في حال خيانتهم ..

ثم نظر إليهم وقال :

- سيحصل تاجرنا الشاب علي خمسة آلاف وحدة، ألف من كل امرئ منكم ..

ونظر إلى الأماريتي، وقال :

- مبارك لك أيها السيد ..

ثم غادر الملك القصر وامتطي حصانه، وامتطي حارسه حصانه، وقال لسيده حانقًا :

- سيحقق ثروة عظيمة من بيع تلك السبائك ..

فأجابه :

- فليفعل ما يشاء، ما يهمنا الآن هو نجاة الطبيبة ومغادرة هذا البلد الملعون سريعًا ..

***

قمر

لا أعلم سر ذلك القلق الذي اجتاح داخلي منذ عبورنا باب زيكولا، إنني أثق بسيدي تمام الثقة، ولكن ما رأيته من ثقة أهل هذه الأرض بقوة جيشهم وكأن خروجه حدث طبيعي جعل قلبي يدق خوفًا، ولم يتوقف عقلي عن التفكير منذ خرج سيدي لبيع ذهبه وتركني مع سيدتي النائمة وصندوق ذهبه الآخر وحارسه النائم بالطابق السفلي، ووقفتُ بشرفة الغرفة أشاهد أهل المدينة الذين لم يكفوا عن الاحتفال، ولم يفارق خيالي مشهد يعود فيه جيشهم منتصرًا بعدما عبر هضاب الريكاتا وأحكم قبضته علي أماريتا لتسري هناك أيضا لعنة وحدات الذكاء وقوانين زيكولا، ومشهد آخر يُغلق فيه بابها لأشهر قادمة حتي يوم عيدهم، ومشهد ختامي لفتاة شاحبة حليقة الشعر يستعد السياف لقطع عنقها لمّا كُشف عن رأسها لم تكن سوى أنا الخادمة المطيعة لملك أماريتا وحبيبته، فانقبض صدري، وتحسستُ رقبتي، وعدتُ إلى الغرفة، وجلستُ بجوار سيدتي وأمسكتُ برأسي علّه يتوقف عن التفكير، وحدثتُ نفسي :

- أسكت أيها العقل، لطالما سمعتُ أن تفكيرك يستهلك من وحدات ذكائك، أرجوك توقف ..

ثم نظرتُ إلى سيدتي، وهمستُ إليها في توسل :

- أرجوكِ سيدتي لاتخذلينا، أرجوكِ .

ووضعتُ رأسي بين ذراعي بجانبها فغلبني النعاس دون إرادتي، لم يوقظني سوى وقع أقدام سيدي الذي عاد مع منتصف ليلتنا، فنهضتُ مسرعة، وعدتُ خطوات مبتعدة عن سرير سيدتي، وانحنيتُ أمامه حين دلف إلى غرفتنا بوجه متورد يشّع أملا لم أره منذ مرض الطبيبة، واقترب منها متلهفًا ثم جثا علي ركبتيه، وأمسك بيدها وأغمض عينيه، وتحركت شفتاه ليهمس إليها بكلمات لم أتبينها، ثم قبّل يدها برفق، فدقّ قلبي حين وجدتُ تورد وجهه يتلاشي كأنه يُسلب منه، ثم فتح عينيه، ونهض ليقف بجوار سريرها، وتوقفت أنفاسنا جميعًا، وحدّقنا بالطبيبة في انتظار تبدل لونها الشاحب، لكن شيئًا لم يحدث، فجثا سيدي علي ركبتيه مرة أخرى، وأمسك بيدها، وهمس إليها بكلماته مجددًا وأغمض عينيه وقبّل يدها، فلم يتبدل شئ سوى وجهه الذي صار شاحبًا قليلًا، فكاد يمسك يدها للمرة الثالثة، فنطق الحارس من خلفنا :

- سيدي، إنك الآن تفقد من ثروتك التي جئت بها من أماريتا ..

- لقد أنفقت ثروة الذهب بالفعل، لكن جسد الطبيبة لم يتقبلها ..

فجُمدت حركته للحظات وضع خلالها رأسه بين يديه، وأغمض عينه وكأن الزمن توقف من حوله، قبل أن ينهض فجأة ويركل بقدمه صندوق ذهبه المتبقي غاضبًا، فتناثرت سبائكه وبعضًا من السهام المضيئة كانت بالصندوق أيضا، فالتقطها وألقاها بعيدا، فتهشم بعضها، وصاح :

- اللعنة عليك أيها البلد، اللعنة علي قوانينكم ..

ثم ضرب بيده علي طاولة كانت أمامه، ونظر إلى الطبيبة، وقال :

- أقسم أنني لن أخذل استنجادك بي، أقسم لك أنني لن أغادرهذا البلد إلا وأنتي بجواري تبتسمين كما كنتِ دومًا. ثم هدأ صوته، وأكمل:

- لم تعد هناك حاجة للسهام المضيئة، لم يعد هناك حل سوى عهد الرسل، سيصل إلينا جيشنا ليكسر أنف هؤلاء الملعونين، اللعنة عليهم، اللعنة عليهم.

ثم جلس علي أرضية الغرفة، وأسند ظهره إلى حائطها، فأسرعتُ ألملم سبائك الذهب والسهام المتناثرة لأضعها بصندوقها، وتختطف عيناي نظرات إلى وجهه الشارد الغاضب، وتتردد إلى أذني كلماته بألا يغادرهذا البلد، وكأن ما جال بخاطري قبل ساعات قد بدأ في تحققه للتو..

***

(٢١)

خائنة

كنت قد لملمتُ الذهب والسهام المضيئة المتناثرة، وأعدتُها إلى صندوقها، واتجهِ سيدي إلى غرفته بعدما نصحه حارسه بأن ينال قسطًا من الراحة بعد عناء يومه، وأُطفئت مصابيح البيت لتُغمض الأعين مع ظلام تلك الليلة العصيبة إلا عيني أبت أن تتلاقي جفونها، كلّما أغمضتُها صرخ صوت الملك إلى الطبيبة بأذني : لن أغادر إلا وأنتي بجوارى تبتسمين ..

الليلة لم يعد هناك مفر من الحرب الكبري بين زيكولا وأماريتا، أي رجل هذا الذي يضحي بشعبه من أجل امرأة وأولهم أنا، وعاد إلى رأسي مشهد إغلاق باب زيكولا ونحن بداخلها لنبقي عامًا كاملًا هنا، واشتعل عقلي باسئلة دقته للمرة الأولى ؛ ماذا إن أنفق سيدي ما تبقي من ذهبه وماتت الطبيبة ؟!، إلى متي يتحمل ذكاؤه نفقات معيشتنا ؟!، ماذا إن أصابه بخل أهل زيكولا وتبرأ منا فجأة ؟!

لسنا سوى خدمه، ماذا أفعل وقتها في هذا البلد الغريب بضعف جسدي هذا ؟! ولاح أمام عيني مجددًا مشهد احتفالات أهل زيكولا بذبحي علي منصة أمامهم، قبل أن أثب وأنهض وسط ظلام الغرفة لأشعل مصباحًا صغيرًا، ثم وجدتُ نفسي أفرغ حقيبة قماشية كانت تحوي ثياب الطبيبة، واقتربتُ من صندوق الذهب وفتحتُه برفق، ثم

عبأتُ الحقيبة عن آخرها بسبائك الذهب، لم أترك إلا سبيكة واحدة لم يكن لها حيزًا، ونظرتُ إلى الطبيبة النائمة والخوف يقتلني، وهمستُ إليها :

- عذرًا سيدتي، لن أدفع حياتي ثمنًا لخطئك ..

ثم حملتُ الحقيبة الثقيلة، وحدثتُ نفسي :

- لن أعود وصيفة قصر الملك بعد اليوم، سيجعلني هذا الذهب من أثرياء زيكولا ولن أكون في حاجة إلى مغادرتها ..

ثم فتحتُ الباب بحذر، واطمئننتُ إلى غلق باب غرفة سيدي ونوم حارسيه بالأسفل، وهبطتُ سلم البيت الداخلي، وعبرتُ ردهته علي أطراف أصابعي حتي وصلتُ بابه الرئيسي وغادرتُه، وسرتُ لا أعلم وجهتي أحمل حقيبة الذهب، يدق قلبي خوفًا من تلك الشوارع التي سادها السكون مع ذلك الوقت المتأخر من الليل، و أتلفت بين لحظة وأخرى إن حرك الهواء شيئًا من خلفي، ثم رأيتُ جنديًا يمر بعيدًا فتواريت بجسدي حتي مرّ فأكملتُ مسيرتي، ووجدتُ نفسي أمام الحانة التي توقفنا أمامها نهارًا ودلّنا صاحبها إلى بيت نستأجره، فدلفتُ إليها فوجدتُ بضعًا من رجال زيكولا يجلسون علي طاولاتها الخشبية، ويقف صاحبها أصلع ممتلئ البطن بأحد أركانها خلف طاولة رخامية ينظف أكواب شرابه الزجاجية، فاقتربتُ منه، وسألتُه عن غرفة أبيت بها، فأجابني :

- لدي غرف بالأعلي، عشرون وحدة ذكاء لليلة، تشمل طعامك ..

فارتبكتُ، لم أفقد ذكائي من قبل، ولا أعلم كم أمتلك من وحدات، ولكنني وافقته وأخبرته أنني سأبيت ليلتين، وسأدفع عن كل ليلة أخرى أبيتها بعد ذلك، فأومأ إلى برأسه إيجابًا، ثم أشار بيده إلى سلم خشبي،

وحدّثني بأن أصعد إلى الطابق العلوي، وأختار أي غرفة شئت، فصعدتُ ودلفتُ إلى أولى الغرف التي قابلتني، وأحكمتُ إغلاق بابي، وألقيتُ بجسدي علي سرير نتن الرائحة احتضن بين ذراعي حقيبة ثروتي القادمة، لتعطيني دفئًا لم أشعر به من قبل، وأغمضتُ عيني في انتظار حياة جديدة لاتعرف شيئًا عن كلمتي الذل والفقر.

***

خمسة أيام أخرى لم أغادر الحانة، ولم تتوقف وساوسي عن ضجيجها، كلّما هدأت اشتعلت من جديد لتحدثني بأن الطبيبة باتت علي وشك الموت بعدما توقفت سوائلها المغذية مع هروبي، وأن الملك يبحث عني بكافة أرجاء المنطقة الشرقية ليقتص مني، مايطمئنني أنه لن يستطيع إخبار جنود زيكولا بأمري، ومايقلقني أن صاحب الحانة يستنزف من وحداتي يومًا بعد يوم، ولم أعرف بعد عن مناطق زيكولا وطرقها وتجارها، ولن أستطيع مغادرة هذه المنطقة إلى منطقة أخرى وحدي قبل أن أجد من أثق به ويرافقني إلى مكان بعيد عن هنا.

ثم جاء مساء اليوم الخامس، ودق بابي صاحب الحانة مطالبًا بوحداته عن ذلك اليوم، فدفعتُ له، وكاد يغادر فاستوقفتُه، وفلت مني لساني وسألته إن كان يعرف تاجرًا للذهب، فأجابني :

- أعرف كل شئ هنا، لدي جميع الزبائن ..

فقلت :

- أريدك أن تصلني بأحدهم ..

قال وهو ينظر إلى الحقيبة المغلقة علي سريري :

- خمسون وحدة ذكاء مقابل لي، وسأجعلك تقابلينه الليلة ..

فصمتُ ثم قلت :

- حسنًا

ثم مرت ساعات قليلة أخرى، وطرق بابي مجددًا ليخبرني بأن تاجره ينتظرني بالأسفل. فلففتُ سبيكةً داخل لفافة قماشية، ووضعتها بين ملابسي، وهبطتُ إلى الحانة، فأشار إلى نحو طاولة بركن بعيد كان يجلس عليها رجل لم أتبين ملامحه، فاقتربتُ منه، وسحبتُ مقعدي وجلستُ أمامه، كان رجلًا أربعينيًا طيب الوجه، توقف الشراب بحلقه حين أخرجتُ السبيكة من لفافتها لتلمع مع ضوء مصباح الطاولة، وحدثْته دون مقدمات :

- أريد أن أبيعها ..

فمد يده، وأمسكها منبهرًا، وقال :

- ذهب جنوبي !!

قلتُ:

- نعم

فقال دون تردد :

- السبيكة مقابل أربعمائة وحدة ذكاء، لن تجدي هذا السعر أبدًا بأي مكان آخر..

فانفرجت أساريري، وابتلعتُ ريقي بعدما حسبتُ كم سبيكة أمتلكها، وكم سأجني بعد بيعهم. وقلتُ دون تفكير:

- لدي الكثير، أكثر من خمسين سبيكة ..

فقال :

- إن أردتي بيعها جميعًا، لدي خزائني ببيت مجاور ..

فتساءلتُ فرحةً :

- جميعها ؟!!

قال :

- نعم .. جميعها ..

فقلتُ باسمةً :

- حسنًا يا طيب الوجه . انتظرني .

ثم ركضتُ إلى أعلي والسبيكة بيدي، ودلفتُ إلى غرفتي، وحملتُ حقيبتي وعدتُ بها إليه، ثم خرجتُ معه ليحدثني عن عشقه بذلك النوع من الذهب، وظل يثرثر كثيرًا حتي دق قلبي خوفًا من ذلك المسكون بشوارع زيكولا، فتوقفت قدماي كي أعود مجددًا إلى الحانة، ففوجئتُ برجلين آخرين يمسكان بي ويجذبان الحقيبة من يدي، بينما لكم وجهي ذلك التاجر وسبّني، ونزع أحدهما الحقيبة، وركضا فأطلقتُ صرخةً، فأمسك التاجر اللص بشعري بقوة، وكمم فمي بيده الأخرى، ثم جرّني إلى زقاق جانبي، فعضضتُ أصبعه وصرختُ مجددًا، فأخرج خنجره وكاد يطعنني لولا تلك اليد التي أمسكت بمعصمه فجأة، لتلكمه اليد الأخرى وتسقطه أرضًا، لينهض ويركض مبتعدًا خلف صاحبيه، وأنا أقف ذاهلةً تسيل الدماء من أنفي، غير مصدقة أنني قد فقدتُ حقيبة الذهب، ثم قاطع شرودي صاحب اليد التي أنقذتني قائلًا :

- لا تسير فتياتنا وحدها في هذا الوقت المتأخر من الليل ..

ومد يده يمسح تلك الدماء علي وجهي، فارتعد جسدي وأبعدتُ رأسي، والتفتُ إليه خائفةً، فوجدتُه شابًا قويًا أبعد يديه ورفعهما بجوار رأسه مطمئنًا لي، وقال :

- يبدو أنكِ غريبة عن هذه المنطقة .

فأومأت برأسي إيجابًا، وأنا أغمغم إلى نفسي باكية بأن كل شئ قد انتهى، فحدثني هادئًا :

- سيغدو كل شئ علي مايرام .. سيدتي .

ومد يده مرة أخرى، ومسح دماء وجهي برفق، فلم أبعد رأسي، ثم قال :

- أنا أيضًا غريب عن هنا ..

فنظرتُ إليه لأرى ملامح وجهه، فابتسم وأكمل :

- اسمي إياد، أعمل بتكسير الصخور .

***

(٢٢)

أصدقاء قدامي

إياد

نظرت الفتاة الباكية إلى وجهي حين أخبرتُها بأنني غريب عن ذلك المكان مثلها، وأكملتُ قائلًا:

- اسمي إياد، أعمل بتكسير الصخور..

ثم جلست بجانب الطريق، وزادت دموعها وقالت:

- لقد خسرتُ كل شئ، خسرتُ سيدي وخسرتُ سيدتي وخسرتُ الذهب وخسرتُ الكثير من الوحدات لصاحب الحانة، لم أربح شيئًا واحدًا منذ دخولي هذا البلد..

فجلستُ بجانبها، وقلتُ هادئًا:

- يبدو أن خسارتك عظيمة، لكن ما أعرفه أن لزيكولا طبيعة خاصة ستعتادينها مع الوقت إن أردتي البقاء..

فقالت وهي ترتشف دموعها:

- لا أريد البقاء، لكنني في الوقت ذاته لا أعلم أين أذهب، لا أعلم إن كنت أستطيع العودة إلى بلدي أم لا، لا أملك حصانًا أعود به، حتي وإن عدتُ، لا أعلم إن كان حراس المدينة سيسمحون بمروري

أم سيعيدونني إلى السجن الغربي، ليرسلونني إلى أماريتا فيقتلني سيدي، إنها لعنة أن تُولد فقيرًا في بلد فاسد ضعيف ..

سألتها :

- من أي بلد أنتِ ؟

قالت :

- بيجانا ..

قلت :

- بلد الطبيبة أسيل ؟!

قالت :

- نعم

فسألتها مجددًا :

- هل قابلتها من قبل ؟

صمتت قليلًا ثم قالت :

- لا

قلتُ بصوت هادئ :

- لابد أنها تعاني كثيرًا بعد إقرار زيكولا خيانتها بتهمتين للخيانة ..

فمسحت دموعها، وسألتني في دهشة :

- تهمتين ؟!!

قلت :

- نعم

قالت :

- ما نعرفه أنها أتهمت بالخيانة بعد إعطائها الفقير وحدات من ذكائها بعدما اختارته الزيكولا ..

قلت :

- هناك تهمة أخرى بعدما أُكتشف نفق أسفل بيت بالمنطقة الغربية يعبر سور زيكولا، ووشي خادم البيت بأنه قد رآها، كانت مسكينة يعرفها أهل زيكولا جميعهم ..

وأكملتُ :

- كنتُ أنا صاحب فكرة ذلك النفق لعبور صديقنا الغريب إلى بلاده، لكن الخادم لم يعرف اسمي ولم يشِ عني إلا بصفات عامة يمتلكها الكثير من الشبان ..

سألتني :

- كنت تعرف حبيبها ؟

فأدركتُ أنها تعرف الطبيبة، ثم أجبتها :

- نعم، كان الصديق العزيز لصديقي، لقد جاء إلى زيكولا بضعة أشهر ليبدّل حياتنا جميعًا، تركتُ المنطقة الغربية التي أحبها، وجئتُ إلى هنا حيث لايعرفني أحد، ورحل صديقي عن المنطقة الشرقية، واعتقد أن الطبيبة قد فارقت الحياة في بلدكم، لم تكن تستحق ذلك، كنا أكثر من يعلم كم كانت تحبه ..

فقالت :

- إنها هنا ..

فنظرتُ إليها مترقبًا حديثها، فتابعت :

- إنها في زيكولا، لكني لا أعلم إن كانت لاتزال علي قيد الحياة أم لا ..

وتساقطت دموعها مرة أخرى، وقالت :

- لقد تركتُها منذ ستة أيام، إنني خادمتها وخائنتها. لقد سرقتُ ذهب سيدي الذي جاء به من أجلها. لقد عانت كثيرًا، أكثر مما تتخيل ..

فقلتُ دون تفكير:

- أريدك أن تدليني إلى مكانها ..

***

كان الأوان فجرًا حين طرقتُ باب البيت الذي دلتني إليه فتاة بيجانا وأخبرتني أن الطبيبة بداخله، قبل أن يجيبني صوت أحدهم، ويفتح بابه، كان شابًا قوي البنيان مرهق الوجه والعينين مُنبت اللحية، أدركتُ أنه تاجر الذهب الذي وصفته لي الفتاة، لكني لم أبصر حارسيه كما أخبرتني، وسألني حين وجدني أمامه :

- من أنت ؟

قلت :

- أريد أن أرى الطبيبة ..

قال:

- لايوجد أطباء هنا .

وكاد يغلق بابه، فقلت :

- لقد كنت أحد شركاء خيانتها، وأعلم أنها لا تستحق هذا المصير..

فتوقف عن إغلاق بابه، وحدّق بي، وسألني :

- السارقة من أخبرتك ؟

فأومأت برأسي إيجابًا، وتابعتُ :

- أخبرتني أيضًا أنكم تظنون أنها تهمة واحدة، لا تهمتين ..

فسألني متعجبًا :

- أي تهمة أخرى ؟!

قلتُ :

- الاقتراب من سور زيكولا، لقد اكتشفوا نفقًا حفرناه من أجل عودة صديقنا إلى بلاده ..

فصمت الشاب مفكرًا، فقطعتُ صمته وقلتُ :

- أريد أن أراها ..

فأشار إلى بأن أدلف إلى الداخل، وصعدنا إلى غرفتها، فاضطرب جسدي حين وجدتُها نائمةً سقيمة الوجه، نحيلة للغاية، يكاد جلدها يلاصق عظامها، ونطق لساني :

- إنها لم تفعل شيئًا سوى أنها أحبت خالد ..

فقال هادئًا :

- حدثني عن ذلك الشاب وذلك النفق ..

فحدثتُه عن ذلك اليوم الذي دلف به خالد إلى زيكولا، وعن صداقته بيامن، وعن عمله مساعدًا للطبيبة بحثًا عن كتابه الذي تحدث عن أرض أخرى وطريق إليها يسمي سرداب فوريك، وعن ذلك اللغز الذي وُضع بكتابه، وذلك النفق الذي حفرناه بالمنطقة الغربية كي يصل إلى سردابه ويعود إلى بلاده، ثم حدثتُه عن حب الطبيبة له الذي بدا لنا جميعًا، وعن يوم زيكولا الذي جاء فجأةً ولم يكن قد استعاد ثروته، فاختارته الزيكولا ذبيحًا ليومنا، قبل أن تعطيه الطبيبة من ذكائها مقابل قبلة منه، مخالفة قوانين بلادنا ..

ثم تابعتُ بعدما لاحظتُ تبدل وجهه :

- كانت الطبيبة تعلم أن زيكولا لا تذبح أبدًا أغنياءها ..

وكانت تمتلك الكثير من وحدات الذكاء، فأعطته ما جعله غنيًا، وأنقذت حياته، وتركت بلادنا، ليعلنها حاكمنا خائنة، ثم أُكتشف ذلك النفق ووشي خادم البيت عن رؤيته لها هناك مع الغريب الناجي من الذبح، فأُتهمت مرة أخرى بالخيانة، ولأن زيكولا لاتذبح أغنياءها طُبق ذلك القانون حديثًا، كي يصبح الخائن فقيرًا، فيُذبح دون أن تُمس عقائد زيكولا ..

فقاطعني قائلًا :

- حاولتُ أن أعطيها ثروة من الذكاء فلم تجدِ ..

أجبته :

- منذ إعلان ذلك القانون، ومُنع الخائنون من أي تعامل جديد بوحدات الذكاء، تستطيع أن تقول أن هذا القانون حصار اقتصادي قاتل لمن يتهم بالخيانة ..

فصمت مفكرًا، وطال صمته بينما نظرتُ إلى الطبيبة مشفقًا عليها، ثم سألني فجأة :

- هل ذكر القانون شيئًا عن المعاملات القديمة للخائن ؟

قلت :

- وضع الحق للجميع بأن يستعيدوا وحداتهم دون مقابل، وهذا سبب ما حدث للطبيبة ..

فقال :

- أعلم هذا، لكن هل ذكر القانون ماذا إن كان الخائن يدين أحدهم بوحدات من الذكاء ؟

قلت :

- لا أعرف، ولكن إن كان للخائن دين عند أحدهم لن يرده أبدًا، أنا أعرفهم جيدًا ..

قال :

- هذا إن كان زيكولي ..

فسألته :

- ماذا تقصد ؟

فنظر إلى الطبيبة، وقال :

- لا يقدّم البشر قانونًا كاملًا.

ثم تابع :

- لأسيل دين كبير لدي صديقكم الغريب، هي في أشد الحاجة إليه ..

قلت في دهشة :

- خالد !!

قال :

- نعم، طالما تحدث قانونكم عن منع التعاملات الجديدة بالذكاء، لم يعد أمامنا سوى أن يرد الغريب دينه القديم إلى الطبيبة ..

وأردف :

- لابد وأن يعود الغريب إلى زيكولا مرة أخرى

***

سكتُ مفكرًا، ونظرتُ إلى أسيل مرة أخرى، وحدّق بي التاجر الشاب في انتظار إجابتي، ثم قال حين أطلتُ صمتي :

- أيها الشاب سأعطيك ما شئت من الذهب إن ساعدتني لنجاتها ..

وأكمل حين ترقبتُ وجهه :

- لا أمتلكه الآن، ولكني لا أنقض وعودي ..

فابتسمتُ وقلتُ :

- إن علمني الغريب شيئًا، فكان أن أساعد أحدهم دون مقابل، وكما أخبرتك، إنني أؤمن أن الطبيبة لا تستحق هذا المصير، لكننا لا نعلم إن كان عاد إلى وطنه أم فشل في ذلك ..

فاقترب من الطبيبة، ومسح وجهها وشعرها القصير بقطعة قماشية مبللة، ثم ثبّت أنبوبًا معدنيًا بذراعها وتأكد من سريان سائله، فتابعتُ متحمسًا :

- وعلمني أيضًا أن أحاول طالما يدق قلبي.

واكملتُ :

- إن النفق لم يهدم بعد، لسبب لا أعرفه، لكن هناك جنود مكلفون بحراسته لايقبلون الرشوة، وسرداب فوريك لا أعلم عنه كثيرًا، لكني أوقن أن صديقي يامن قد قرأ كتاب الغريب أكثر من مرة.

ثم سألته :

- هل لديك وسيلة تنقلنا إلى المنطقة الجنوبية ؟

أجابني متلهفًا :

- نعم، لدي عربة ذات جوادين ..

فقلتُ وأنا أنظر إلى الطبيبة:

- أرى أننا في حاجة إلى الوقت، سيكون الجوادان أسرع دون العربة ..

قال :

- لا أستطيع أن أتركها بمفردها، لقد هربت الخادمة مع سبائك ذهبي، ورحل حارسي بعدما خشيا أن يفقدا ثروتهما ..

فقلتُ:

- انتظر..

ثم اتجهتُ إلى الشرفة، وأطلقتُ صافرة قصيرة، كانت فتاة بيجانا لازالت تجلس في انتظاري علي جانب الطريق أمام بيت سيدها، ونهضت

حين سمعت صافرتي، ونظرت إلي، فاقترب مني تاجر الذهب، ونظر إليها فبادرتُه قائلًا:

- لقد ندمت علي فِعلتها، إنها من دلتني إليك لأساعدك، إنها تحب الطبيبة كثيرًا، إنها زيكولا .. تثير دومًا نفوس الغرباء، أغوتها ثم عاقبتها وسُرق ذهبها، إنني أضمن لك أنها ستعتني بالطبيبة جيدًا حتي نعود ..

فنظر إليها، وأطال نظرته، ثم أومأ برأسه إيجابًا دون أن ينطق، فأطلقتُ إليها صافرة أخرى كي تدلف إلى البيت ففعلت، ولم تشرق الشمس إلا وكانت جيادنا في طريقها إلى المنطقة الجنوبية.

***

يامن

لم أكن أعلم أن اعتياد حياة جديدة سيكون بتلك الصعوبة، عشرون يومًا بعد نجاتي المؤقتة من تهمة الخيانة أحاول أن أتقبّل واقعي الجديد بأنني صرت مزارعًا أجيرًا يجوب الحقول الرطبة حاف القدمين لينثر حبات القمح والشعير بين أرجائه مقابل وحدات زهيدة من الذكاء، لأعود إلى غرفتي الضيقة مع غروب الشمس، فتمر ساعات ليلي ببطء، ليبدأ نهار آخر بحقل جديد وحبات أخرى لا تنتهي..

الحقيقة أنني سئمتُ ذلك العمل بعد يومي الأول، وازداد الضيق بداخلي يومًا بعد يوم، وبدأت نفسي تحدثني بأن ترك المنطقة الجنوبية إلى منطقة أخرى بزيكولا، ثم وجدتُ قدمي تأخذني إلى قائد جنود المنطقة الجنوبية، وأخبرته بأنني أستطيع الضرب بالفأس جيدًا تساعدني قوة ساعدي، وحطمتُ أمامه درع أحدهم بفأسي برهانًا لمهارتي، لتتخذ حياتي مسارًا جديدًا لم أتوقعه يومًا بعدما مُنحت هذا الوشم علي ظهر يدي اليمنى، وشم مشاة زيكولا، رمح وفأس متقاطعان، الوشم الذي يريحني إلى الأبد من تهمة خيانة زيكولا بعدما أصبحت أحد مقاتليها المخلصين، كما أنه سيمنحني عشر وحدات من الذكاء عن اليوم الواحد، وعلمتُ أنني سأرحل مع مقاتلي المنطقة الجنوبية إلى خارج زيكولا بعد أربعة أيام سيختار خلالها القائد ما تبقي من المقاتلين الجدد، قبل أن أجد إياد وشاب لا أعرفه لم يبدُ لي أنه

زيكولي يدلفان إلى غرفتي، فرحبتُ بهما كثيرًا، وكدتُ أخبر صديقي بأمر انضمامي إلى الجيش، فبادرني قائلًا :

- إن الطبيبة أسيل في حاجة إلينا ..

ثم تابع :

- إنها في المنطقة الشرقية مريضة للغاية ..

ثم حدّثني التاجر عما حدث للطبيبة، وعن ذلك الذهب الذي استبدله بوحداتنا وضاع هباء بعدما لم ينتقل إليها، وأنه لم يعد من سبيل لإفاقتها سوى عودة خالد إلى زيكولا، ثم انتهى قائلًا :

- أخبرني إياد أن النفق لم يُهدم بعد، أريدك أن تحدثني عن سرداب فوريك، وسأعطيك ما شئت من وحدات الذكاء ..

فقلت له :

- لا داعي لوحداتك ..

ثم تابعتُ متذكرًا :

- حدثني خالد كثيرًا عنه، ممر يصل بين عالمنا وعالمه، واسع للغاية، لايكون مضاءً إلا ليالي البدر، طريق واحد ينقسم إلى طريقين أحدهما شرق زيكولا والآخر غربها ..

ثم صمتُ .. وعصرتُ رأسي لأتذكر، وأكملتُ :

- يستطيع المرأ التنفس بداخله، غير أن هناك نفقًا آخر بنهايته الأخرى أخبرني خالد أنه مظلم قليل الهواء، علي المرء أن يسرع وإلا اختنق بداخله، نهايته الأخرى توجد بلاد خالد، تختلف كثيرًا عن بلادنا، هذا ما أتذكره ..

ثم أردفتُ :

- آه نسيت، حين تبدأ جدرانه بالإنهيار عليك أن تسرع وإلا دُفنت بداخله، قرأت ذلك بكتاب خالد ..

فسألني :

- هل تتذكر شيئًا آخر..

أجبته :

- هذا كل شئ ..

فصمت ثم سألنا :

- كم يتبقي علي اكتمال القمر؟

قلتُ :

- أربعة أيام ..

فسألني :

- وكم تبلغ مسيرة السرداب إلى بلاد صديقك ؟ ..

أجبته :

- أخبرني خالد أنها ليست إلا ساعات قليلة.

ثم سألته :

- مالذي تنوي فعله ؟

قال :

- سأعبر نفق المنطقة الغربية إلى سرداب فوريك لأصل إلى بلاد خالد

فقال إياد :

- إنك حقًا تشبهه في تهوره، كما أخبرتك جنود السور غير قابلين للرشوة ..

فأشاح عباءته، وأظهر سيفه، وقال :

- لن يحمي ذلك النفق أكثر من رجلين أو ثلاثة .

فقلتُ :

- إذن مصيرك القتل، أو تهمة الخيانة، ومصير الطبيبة الموت ..

فقال هادئًا :

- أو أعبره وأعود بصديقكم .

ثم تابع :

- ليس هناك وقت، علي خالد أن يعود ويعيد إلى الطبيبة وحداتها كي تنجو..

قلت :

- وماذا إن لم تجده ؟!

فصاح بنا :

- سأجده، وأثق أنه سيعود من أجلها ..

كنت أوافقه تلك الثقة، ثم سألنا :

- هل ستأتيان معي إلى المنطقة الغربية ..

فصمتنا وبتنا عاجزين عن الرد، حقًا نريد مساعدة الطبيبة، لكن ما رأيناه خلال أشهرنا الخمس الماضية ليس هينًا، ونطقتُ هادئًا :

- سيموت كلانا إن ذهبنا إلى المنطقة الغربية، قد يري الخادم إياد فيشي عنه مجددًا، ولن يفلت هذه المرة، وقد رأيت ما حدث للطبيبة، وأنا لن أستطيع التخلف عن واجبي، سأغادر إلى صحراء زيكولا ليلة اكتمال القمر أيضًا بعد أربعة أيام ..

ثم أريتهما وشم يدي، وأنا أقول :

- إن تخلفتُ ستقطع هذه اليد ..

فسألني إياد مندهشًا :

- انضممت إلى الجيش ؟!!

أجبته :

- نعم، سأحارب ضد الأماريتين ..

ثم قلت للتاجر الشاب :

- علينا أن نفكر بحل آخر.

قال :

- سأعبر ذلك النفق وإن كلفني حياتي، وسأعود مع صديقكم من أجل نجاة أسيل ..

وتابع بعد برهة :

- ونجاتكما ..

فنظرنا إليه مشدوهين بعدما شملنا حديثه، فأكمل :

- لم تعد إلا أيام قليلة وسيعبر جيش أمارتنا هضاب ريكاتا .. أيام قليلة وستحال زيكولا إلى كومة من الرماد ..

لم أصارع الوقت بحياتي مثلما أصارعه هذه الأيام، لا أريد إلا أن أعود بسيدتي سالمة لأصحابها بعيدًا عن بلدكم الذي أكرهه ..

قال إياد :

- لست تاجرا ؟!!

أجابه :

- نعم.

ثم أكمل

- لست إلا الملك تميم، ملك أمارتنا ..

فسقط كوب الشراب من يد صديقي، بينما وثب جسدي تجاه باب الغرفة وركلته قدمي لتغلقه، وأسندتُ إليه ظهري محكمًا إغلاقه .

***

(٢٣)

فتاة الشمال

ركلتُ باب الغرفة بقدمي، وأسندتُ إليه ظهري محكمًا إغلاقه، وقال له إياد ذاهلًا:

- لم تخبرني فتاة بيجانا بذلك ..

فقال الغريب:

- لهذا السبب أعدتُها لترافق الطبيبة ..

سألتُه:

- أنت من قرر محاربة زيكولا ؟

أجابني:

- نعم ..

فسألته في دهشة:

- من أجل الطبيبة ؟!

قال:

- نعم، من أجل إسقاط خيانتها .

ثم أردف :

- ولكنني كما ترون، أسعي لتجنب خيار الحرب ..

فصمتُ، وسألني حين أطلتُ وقوفي ملاصقًا لباب الغرفة :

- هل تحتجزني لتبلغ قادتك ؟

فنظرتُ إلى نفسي، ثم نظرتُ إليه، وقلتُ :

- لا، لستُ نذلًا ..

ثم تابعتُ بفخرٍ:

- سأقاتل مع بلادي، وسنهزم جيشك، سيدي ..

وتركتُ الباب، وعدتُ إلى مقعدي مجددًا، وسألته :

- هل رأيت جيش زبكولا أثناء خروجه ؟

قال :

- نعم ..

قلت :

- هل يستطيع جيشك هزيمته ؟

قال :

- نعم ..

فصمتنا، فقال :

- لابد أن يعود صديقكم، وإلا لن تغفر أماريتا لزبكولا موت الطبيبة، ساعداني كي أعبر ذلك النفق ..

فقلتُ :

- هذا قبل أن تصبح ملكًا، سيدي .

ثم تابعتُ :

- إن عبرت النفق ولم تعد لن يكون هناك مفر من الحرب.

وتمتمتُ إلى نفسي :

- وإن لم يعبره ولم يعد خالد ستموت الطبيبة التي نحبها، ولا مفر من الحرب أيضًا ..

ونظرتُ إلى إياد فوجدتُه ينظر إليّ، وكأنه لا يجد ما يقوله، فنظرتُ إلى الملك وسألته :

- كم لدينا من الوقت ليعبر جيشك الريكاتا ؟

قال :

- بضع أيام ..

فأخرجتُ زفيري ثم قلتُ بعد برهة من التفكير:

- لن نجازف بعبورك سيدي، هناك من يستطيع عبور النفق وتجاوز حراسه دون إراقة نقطة دم واحدة ..

فنظرا إلى مترقبين حديثي، فنظرتُ إلى إياد، وهززت رأسي قائلًا:

- نعم، ما تفكر به تمامًا يا صديقي ..

***

نادين

لم أصدّق أذني حين أخبرتني إحدى الوصيفات بأن هناك شاب ينتظرني بخارج القصر اسمه يامن، بالطبع لم يكن قصري - كان قصر أحد أثرياء المنطقة الوسطي وافق علي عملي وصيفة لزوجته مقابل ثماني وحدات ذكاء ووجبة طعام واحدة لليوم الواحد - فأسرعتُ ركضًا إلى الخارج، يكاد قلبي يرقص فرحًا، وما إن احتضنته حتي سألني متعجلًا إن كنتُ أعلم عن الحانة الوسطي، فأجبته في دهشة بالإيجاب، فأخبرني بأنه سينتظرني بها لأمر هام مع غروب الشمس ثم غادَر..

***

كانت الحانة الوسطي تقع بالطرف الجنوبي للمنطقة الوسطي، حانة ضيقة لا يخرج زبائنها عن خدم القصور وحراسها، يجتمعون ويتسامرون بعيدًا عن سادتهم المتعجرفين، يفصلها ممر خلفي عن غرف ضيقة متجاورة يستأجرها الغرباء للمبيت ..

ودلفتُ إلى هناك مع حلول ظلام الليل دون أن أخبر سيدتي، ينشغل رأسي بذلك الأمر الهام الذي نطق به يامن، ثم وجدتُه بانتظاري أمام الحانة، ودلف بي إلى ممر الحانة الخلفي ومنه إلى إحدى الغرف، وأغلق بابه من خلفه، فوجدتُ صديقنا إياد وشابًا آخر غريب، فضحكتُ وقلتُ :

- سأتقاضي أجر ثلاثة إذن ..

فنظر إلى الشاب الغريب فقلت :

- إنني أمزح، لقد تركتُ المنطقة الشمالية والرذيلة منذ قرابة الستة أشهر، وعاهدتُ نفسي ألا أعود إليها، بفضلهما.

وأشرت بأصبعي إلى يامن وإياد، فأشار إلى الغريب كي أجلس فجلستُ، وبدا الأمر هامًا مثلما تحدث لي يامن قبلها بساعات، ثم نطق يامن :

- إننا في حاجة إليك ..

فترقبته، فتابع :

- تعلمين أن الطبيبة أسيل أُتهمت بالخيانة ..

قلت :

- نعم ..

قال :

- إنها مريضة للغاية وتحتاج إلينا ..

وأردف :

- وليس هناك حل سوى عودة خالد إلى زيكولا ..

فنطقت تعابيروجهي دون أن ينطق لساني لتقول :

- وما شأني بذلك ؟!!..

فأكمل مترددًا :

- كما تعلمين، غادر خالد زيكولا عبر نفق بالمنطقة الغربية إلى بلاده، وأنتِ تعرفين وجهه ..

ثم ابتلع ريقه وأكمل :

- ولا يعرفك أحد بالمنطقة الغربية، والنفق لم يهدم بعد، يحرسه حارسان، و...

ثم سكت فنظرتُ إليه فلم يكمل، فأكمل إياد :

- نريدك أن تذهبي عبر سرداب فوريك إلى بلاد خالد وتعودين معه ..

فسألتهم في دهشة :

- هل جئتم إلى المنطقة الوسطي لتمزحوا ؟

فقال يامن :

- لا نمزح ..

وقال إياد :

- إن الطبيبة مريضة للغاية، كنتِ ستعانين المصير ذاته إن أمسك بكِ جنود زيكولا ..

فقلت :

- لكنهم لم يمسكوا بي ..

وسألتهم :

- لماذا أنا ؟

فسكتوا، فنظرتُ إلى وجه يامن المضطرب، وقلت :

- آه، لأنني أستطيع إغواء الحارسين، تريدني أن أعود للزيلة من أجل خالد وحبيبته ..

فلم يرد .. فأخرج الشاب الغريب سبيكة من الذهب ووضعها على الطاولة أمامي، وقال :

- سأعطيكِ ماشئتِ من الذهب لاحقًا ..

فضحكتُ ساخرةً، وأزحتُ بيدي السبيكة نحوه، وقلت له :

- لا تنس أن تخبرهم أن يجعلوا منصة ذبحي من هذا المعدن ..

ونظرتُ إلى يامن، فقال :

- إن لم تنجُ الطبيبة سيموت الكثيرون ..

وتابع :

- لن تهدأ الحرب بيننا وبين أماريتا ..

فصحتُ به :

- اللعنة على البلدين .

وتابعتُ :

- لم أكن إلا فتاة ليل صارت خادمة بأحد القصور ..

فسكتوا مجددًا، فهممتُ بالنهوض، وتحركتُ خطوات إلى باب الغرفة، وكدتُ أغادر، فقال يامن هادئًا :

- سأغادر إلى خارج زيكولا مع المقاتلين ..

فتوقفت قدماي .. فأكمل :

- لقد انضممتُ إلى الجيش الزيكولي .

فدق قلبي بقوة وجمد جسدي، وتوقف تفكيري للحظات، وأغمضتُ عيني، ثم أخرجت زفيري ببطء، وتركتُ مقبض الباب، والتفتُ إليهم، وقلت :

- إن عاد خالد لن تقوم الحرب ؟

فالتفتا إلى صديقهما الغريب كأنهما ينتظران إجابته، فلم يجب، فكررتُ تساءلي، وأنا أصيح بهم :

- إن عاد لن تقوم ؟

فأجابني الغريب بعد لحظات :

- نعم .

ثم أردف هازًرأسه :

- نعم، أعدكِ بذلك .

***

جلستُ مجددًا، ونظرتُ إلى يامن نظرة هو وحده يعرفها، فأشاح نظره بعيدًا عني، ثم مددتُ يدي وأخذتُ سبيكة الذهب دون أن أنطق أو ينطق أحدهم، وساد الصمت لدقائق ثم قطعه يامن وذكرني بسرداب فوريك، كان قد حكي لي كثيرًا عنه لملء فراغنا بالأشهر الخمس التي اختبئنا بها، فأخبرته أنني أتذكر ما حدثني به عنه، لكنه لم يهتم بحديثي وأعاد وصف السرداب لي مرارًا وتكرارًا، وحدثني عن ذلك النفق بنهايته، ثم عن نفق المنطقة الغربية الضيق المُدعّم بقوائم خشبية، ثم انتهى قائلًا :

- كان خالد يتحدث دائمًا عن غرابة بلاده، لا أعلم مدي غرابتها، لكن عليكِ أن تتركي مخيلتك تتوقع كل شئ .

وأكمل إياد فوصف لي مكان البيت بالمنطقة الغربية بتفاصيل قد مللتها، ثم أخبرني بأنني سأرحل مع اكتمال القمر بالسماء بعد يومين، ومنذ رحيلي وستنتظرني عربة صديقهم بالطريق الرملي أمام زيكولا لتحملنا إلى داخلها خشية أن يري جنود باب زيكولا خالد المُدان بالخيانة مثله مثل الطبيبة، ثم أشار إلى صديقهم الثالث وقال :

- صديقنا رسول ملك أماريتا، سيتدبر كل شئ بعد ذلك ..

فقلتُ ساخرة :

- رسول ملك أماريتا ؟! الذبح لنا جميعًا .

فسألني يامن :

- هل هناك ما تحتاجينه ؟

فقلتُ :

- زجاجتي خمر.

ثم أكملتُ :

- لكن لا عليك، سأسرقهما من قصر سيدي ..

فهز رأسه دون أن ينطق، وهمّ ليغادر فاقتربتُ منه وأمسكتُ بيده ونظرتُ إلى الوشم عليها وسألتُه :

- متي سترحل إلى خارج زيكولا ؟

فقال :

- بعد يومين أيضًا ..

فقلت :

- أتمني أن تعود سالمًا ..

فابتسم ثم غادر مع صديقيه، وتركوا لي جوادًا بخارج الحانة، أخبرني صاحبها بأنه قد تقاضي سبع وحدات من الذكاء مقابل الإعتناء به ليومين آخرين ..

***

عدتُ إلى القصر، ووبختني سيدتي كعادتها لكني لم أعطِ لحديثها بالًا، ووقفتُ أمامها لا تعي أذني كلماتها، حتي انتهى صريخها فأمرتني أن أصعد لأنظّف غرفتها، فصعدتُ واتجهتُ إلى شرفتها، ونظرتُ إلى السماء وإلى قمرها شبه المكتمل، ثم أتممتُ عملي ..

ومرت ساعات ليلي ويومي الذي تلاه سريعًا، وأشرقت شمس يومي المراد، فانطلق بي حصاني إلى المنطقة الغربية أدسّ بين ملابسي سبيكة الذهب التي منحها لي الأماريتي وزجاجة خمر واحدة لم استطع أن أسرق غيرها ..

ووصلتُ إلى المنطقة الغربية مع منتصف النهار، ودلفتُ إلى شوارعها، ثم لمحت عيني زحام سوقها فترجلتُ وأسدلتُ علي جبهتي غطاء رأس معطفي الحريري - في الحقيقة كان معطف سيدتي، سرقته هو الآخر - وأكملتُ طريقي بين المتزاحمين أمسك بلجام حصاني، ثم عبرتُ ذلك الزحام، واتخذتُ مكانًا جانبي خاليًا مكثتُ به في انتظار مرور ما تبقي من ساعات النهار.

***

حلَّ الليل وظهر القمر مكتملًا بالسماء، فنهضتُ من مكاني وامتطيتُ حصاني في إتجاه الطرف الغربي للمنطقة الغربية، تحركني ذاكرتي بكلمات إياد التي تصف طريقي إلى ذلك البيت ثم وجدتُه، وتيقنتُ منه حين رأيتُ جنديًا يقف أمام بابه، فترجلتُ ووقفتُ مكاني أراقبه دون أن يراني، ثم تذكرتُ حديث إياد بأن البيت يحرسه جنديان ليس جندي واحد، ودارت بي ذاكراتي حين مارستُ الرذيلة من قبل مع أحد جنود الحراسة بالمنطقة الشمالية، وحدثني عن عملهم وكيف ينام أحدهم ليعمل الآخر، لكنه ليس في ذلك الوقت المبكر من الليل، فعقلتُ حصاني، وانتظرت في مكاني أراقبه، ثم أبصرتُ الجندي الآخر قد خرج من داخل البيت، واتخذ موضع زميله الذي دلف إلى داخل البيت، فآثرتُ أن أنتظر مزيدًا من الوقت ..

ومرت بضع ساعات أخرى ساد معها سكون الليل، صمتٌ تام أحاط الأرجاء من حولي، وكأن من ملؤوا النهار ضجيجًا وصياحًا باتوا جميعًا موتي مع منتصف الليل، وعاد الجندي الأول مرة أخرى إلى نوبة حراسته.فانتظرتُ قليلًا، ثم شعرتُ بتململه، فشققتُ بيدي نصف فستاني السفلي، ونهضتُ وتحركتُ في إتجاهه، يُغطي رأسي غطاؤه، ويلمع حرير معطفي أسفل ضوء القمر، يمتلئ قلبي ثقة وفخرًا بسنوات كثيرة مضت بالمنطقة الشمالية لم تُخلق بها من تنافسني بإغواء الرجال، ثم لمحتُ تلك الدهشة علي وجهه فأزلتُ معها غطاء رأسي فانساب شعري الناعم إلى كتفي، وأكملتُ اقترابي منه، تنتظر عيناي في عينيه، أكاد أسمع دقات قلبه، وتتحداه نظراتي بأن يفتح فمه دون أن يسيل لعابه، ثم اقتربت من أذنه فهمستُ إليه :

- دون مقابل ..

وحركتُ ساقي أسفل فستاني المشقوق فكُشفت عن آخرها ولمع بياضها أمام عينه مع ضوء القمر والمصباح الناري أعلاه، فاندفعت الدماء إلى وجهه، وتلفتّ حوله قبل أن يدفعني إلى داخل البيت. فلمحتُ الجندي الآخر نائمًا كالموتي أسفل غطائه الصوفي بغرفة جانبية، ودلف جندي الحراسة من خلفي مُحمر الوجه، وأغلق باب غرفة زميله برفق وأحكم إغلاقها، ثم وقف أمامي متباهيًا بضخامة جسده فوضعتُ زجاجة الخمر علي طاولة بجواري، فدنا مني فابتسمتُ، وبللتُ شفتاي بلساني فزاد احمرار وجهه، وحمل زجاجة الخمر ونزع غطاءها بأسنانه وتجرّع منها، فنزعتُ معطفي وألقيته جانبًا، وكدتُ أنزع فستاني فسرت بجسدي رعشة غريبة، وتوقفت يدي وكأنها لا تستطيع، فأغمضتُ عيني وابتلعتُ ريقي أحاول أن أعيد ثبات جسدي، لكني لم أستطع وامتلأت عيني بدموع ضجت معها رأسي بكلماتي إلى يامن بالمنطقة الجنوبية :

- لن أفعلها مجددًا ..

ثم نظرتُ إلى الجندي فوجدت الغضب قد انطبع علي وجهه، فأخرجتُ سبيكة الذهب ومددتُ يدي بها إليه، وتملكني خوفٌ لم أشعر به من قبل، وتساقطت دموعي علي وجنتي، فسقطت السبيكة من يدي المرتعشة، وانحني الجندي لالتقاطها فأغمضتُ عيني ارتشف دموعي، قبل أن أفتحها بعد لحظة علي صوت ارتطام مفاجئ، فوجدتُ يامن أمامي يرتدي زي جنود زيكولا، وقد ضرب الجندي علي رأسه بقطعة حديدية، فرقد فاقدًا وعيه، وهمس إلى مازحًا :

- كل هذا الوقت ؟!

وتابع هامسًا :

- أنتظر دخولك منذ ساعات ..

كنتُ أنظر إليه كأنني أحلم ثم أكمل باسمًا، ومسح دموعي بإصبعه :

- لم أكن لأسمح أن تنقضي عهدك إلى نفسك ..

فاحتضنته، ثم حمل إلى السبيكة، فأشرت إلى باب الغرفة التي ينام بها الجندي الآخر، وهمستُ إليه بأن هناك جنديا ينام، فهمس إلى :

- دعيه نائمًا .

ونظر إلى الجندي الراقد وقال :

- لم يمت، لسنا قاتلين ..

ثم حمل مصباحًا زيتيًا كان مُعلقًا علي جدار الردهة، وأمسك بيدي، ودلف بي إلى غرفة أخرى، ووضع المصباح جانبًا بينما راقبتُ ردهة البيت خشية أن ينهض أحد الحارسين، ثم أزال لوحًا خشبيًا سميكًا كان علي أرضية الغرفة فظهرت أمامي حفرة دائرية عميقة، يتدلي بداخلها سلم خشبي ظهر حين اقترب يامن بمصباحه منها، ونظر إلى وقال :

- أخبري خالدًا أن أصدقاءه في حاجة إليه ..

فسألته :

- ألن تأتي معي ؟

فأشار إلى وشم يده وقال :

- علي أن ألحق برفقائي الليلة وإلا ستقطع ..

فقلتُ باسمة :

- هناك حصان بالخارج، سريع للغاية ..

فابتسم، وقبّل رأسي، وهمس إلى قائلًا :

- انتظر عودتك

ثم أعطاني المصباح الزيتي، ومددتُ ساقي إلى السلم الخشبي لابدأ طريقي إلى سرداب فوريك .

***

الجزء الثالث

حربٌ كبرى

(٢٤)

بلدةٌ غريبةٌ

نادين

هبطتُ السلم الخشبي، وودعني يامن فأومأت له باسمةً، ثم دلفتُ زاحفةً علي ركبتي إلى النفق الأفقي الضيق، تعطيني كلماته بأن أعود سالمةً طاقة كبري لأعبر أنفاق العالم جميعها. وتعمقتُ أكثر فأكثر إلى داخل النفق، يضئ المصباح أمتارًا أمامي مظهرًا قوائمه الخشبية فاتجنبها، ثم توقفتُ للمرة الأولى كي أزيل شباك العناكب التي زادت من اختناقي، والتقطتُ معها أنفاسي، ثم أكملتُ زحفي دون أن أنظر إلى ركبتي المتألمتين، كنت أعلم أنها تقرحت مع حدة أرضية النفق الصخرية.

وملأتُ صدري بالهواء وأنفرجت أسارير وجهي حين ظهرت أمامي فتحة النفق الأخري يتسلل خلالها ضوء القمر فأسرعتُ أتحمل ألم ركبتي، ودنوتُ منها ثم قذفتُ بجسدي خارجها، فانغمس وجهي برمال ناعمة، ونهضتُ لأنظر خلفي فوجدتُ سور زيكولا شاهقًا يضيئه القمر، فحملتُ مصباحي الملقي علي الرمال، وتحركتُ خطوات أمام التقاء ضلعيه كما أخبرني يامن، فانزلقت قدمي فجأة بحفرة ابتلعتني، وهوي جسدي بها لأسفل يرتطم بجدرانها، وظل يهوي أكثر فأكثر دون أن يتوقف أو أستطيع التحكم به، كانت يدي تمسك مصباحي بقوة،

وحاولت يدي الأخرى أن تحمي رأسي، واستمر سقوطي وارتطامي، قبل أن تقل حركتي شيئًا فشيئًا ويتوقف جسدي عن الإرتطام لأجد نفسي أمام نفق أستطيع النهوض والسير به. تظهر معالم جدرانه واضحة دون الحاجة إلى مصباحي، كان يتجه بانحناء لأسفل. فنهضتُ غير مصدقة لما أراه حتي أنني نسيتُ آلام ركبتي وذراعي من الدهشة. وبدأتُ أسير به ينتعش صدري بالهواء، وأسرعتُ من خطاي خشية أن يمر الوقت. ثم وجدتُ وجه أحد الأشخاص منقوشًا علي جداره فأكملتُ تقدمي فاهتزت الأرض أسفلي، وسمعتُ صوت ارتطام قوي، فنظرتُ خلفي فوجدتُ جدران النفق قد بدأت في الإنهيار، فابتسمتُ ونظرتُ إلى الوجه بجانبي، وقلت:

- مرحبًا سيد فوريك.

ثم امسكتُ بطرف فستاني المشقوق، وركضتُ والإنهيار يسرع من خلفي يكاد يبتلعني، كنت أعلم أنه يدفعني إلى طريق مقصود فأسرعتُ بكل طاقتي، أخشي أن أنظر خلفي فتنزلق قدماي فأدفن أسفل صخوره، ثم هدأت الأصوات من خلفي وقلّ معها اهتزاز الأرض، فنظرتُ أمامي فوجدتُ نفقًا أكثر اتساعًا وارتفاعًا، جدرانه ضخمة مليئة بنقوش كثيرة لأشخاص وحيوانات، وتتناثر علي أرضيته عظام وجماجم كثيرة، ونظرتُ خلفي بعيدًا فوجدتُ النفق الذي جئتُ منه مكتمل الجدران وكأن شيئًا لم يحدث، يجاوره نفق آخر، ووجدتُ بجانبي رسمة أخرى منقوشة للوجه ذاته الذي رأيته من قبل، فنظرتُ أمامي مجددًا، وأخرجتُ زفيري، وقلت لاهثة:

- سرداب فوريك..

ثم أكملتُ تقدمي أتجنب العظام أسفل قدمي، وجال بخاطري زوال البدر فركضتُ، كنت أتلفتُ بين الحين والآخر خشية أن يحدث الإنهيار

مرة أخرى، ثم توقفتُ حين وجدتُ سلمًا طويلًا فصعدتُه مسرعة حتي وصلتُ أعلاه، فوجدتُ بنهايته فتحة ضيقة ذات ألواح خشبية متكسرة، فازدتُ إنارة مصباحي، والتقطتُ أنفاسي، ثم مددتُ يدي بمصباحي داخلها، ودلفتُ أزيل بيدي شباك العناكب الكثيفة، أتذكر حديث يامن بأن أسرع خلال ذلك النفق وإلا اختنقتُ، وتدين نفسي إلى مصباحي الذي لولاه لما عرفتُ ماذا أفعل، وتحركتُ بحذر خطوة وراء أخرى، وتسارعت أنفاسي ودق قلبي مسرعًا حين زاد اختناقي قبل أن ألمح سلمًا من قوائم حديدية لمع مع ضوء المصباح، فاتجهتُ نحوه، وصعدتُ درجه، ثم مددتُ يدي أدفع بابه الحديدي، فسقط مصباحي وتهشم وانطفئت نيرانه، وساد الظلام من حولي، فأكملتُ دفعي للباب، فأصدر صريره، واندفع الهواء إلى صدري بعدما فُتح قليلًا، ثم دفعتُه بقوة ففُتح عن آخره، وقذفتُ بجسدي إلى الأرض بجواره .

***

كان ذلك البيت مُحاطًا بسور طوبي تسلقتُه وعبرتُه إلى جانبه الآخر، لأجد نفسي بطريق ترابي يسوده السكون، فخفتُ أن أضل طريقي، وعزمتُ أن أبقي مكاني في انتظار شروق الشمس، وجلستُ، ونظرتُ إلى البدر بالسماء، ودار بخلدي أن يكون يامن ينظر إليه متجهًا إلى خارج زيكولا مع رفقائه الجنود في الوقت ذاته، فأغمضتُ عيني أتمني له أن يبقي سالمًا، ثم وثب جسدي من موضعه حين دوت السماء بنداءات اختلفت قوتها، كانت جميعها تقول : الله أكبر، فنهضتُ واتجهتُ تجاه مصدرها فوجدتُ أمامي بعيدًا أنوارًا شتي، تتخلل ظلال لمباني متلاصقة يتوسطها برج رفيع طويل تزينه أضواء ملونة، ينطلق الصوت من أعلاه، بدت أنها بلدة خالد الغريبة .

***

دقائق قليلة وكنتُ أسير بطريق معبد تتراص المباني علي جانبيه خلف أعمدة معدنية تحمل مصابيحًا منيرة لا تشبه مصابيحنا، فتذكرتُ حديث يامن بألا أدهش من أي اختلاف هنا. بعد مارأيته من أمر السرداب لم تعد لدهشتي مجالًا. وكلما رأيتُ شيئًا غريبًا تجاهلته، ثم أبصرتُ رجلًا لم أتبين ملامحه يسير بعيدًا بشارع خافت الإضاءة، فأسرعتُ إليه، وحدثته :

- سيدي، أريد أن أصل إلى خالد حسني .

فنظر إلى فستاني الممزق وقدمي الحافيتين، وتمتم خائفًا بكلمات لم أفهمها. فأكملتُ إليه :

- سيدي، إنني غريبة عن هذا البلد ..

فأكمل تمتمته وتحرك مبتعدًا عني يتمتم، فسرتُ خلفه فأسرع، فأسرعتُ فركض، فركضتُ، ثم دلف إلى بناء أرضي كان بابه مفتوح علي مصراعيه، تضئ أنواره بشدة، فدلفتُ فوجدتُه ردهة واسعة يجلس بها رجال حافيين الأقدام نظروا إلى جميعهم في دهشة حين دلفتُ إليهم، فقلت :

- أبحث عن خالد حسني عبد القوي ..

فصاح بي أحدهم بجملة لا أتذكرها، ورأيت الغضب علي وجوههم، فتابعت :

- إنني من أرض زيكولا .

فلم تزل نظرات الغضب عن وجوهم، ثم وجدتُ عجوزًا يخرج من بينهم، لم تظهر علي ملامحه دهشة أو غضب مثل الباقين، وهمس إلى :

- أرض زيكولا ؟

قلت:

- نعم

سألني :

- تعرفين خالد ؟

قلت :

- نعم

فنظر إليهم، وقال :

- إنها مريضة ..

فقلت :

- لست مريضة !

فهمس إلى أن أتبعه، فسرتُ خلفه ..كان يسير ببطء شديد دون أن ينطق بكلمة واحدة، فسألته :

- أنت جد خالد ؟

فأجابني :

- لا.

***

(٢٥)

قرارٌ حاسم

خالد

إن تحدثتُ الليل كاملًا لن أستطيع وصف ذلك الشعور ليلتها، أيقظتنا طرقات جدي المفاجئة فجرًا علي باب شقتنا، وحدّثني فرحًا بأن هناك ضيفًا هامًا في انتظاري دون أن يخبرني شيئًا آخرًا أو يعبأ بدهشتي من تأخر الوقت، وهبطتُ معه إلى الطابق الأرضي نعسًا، ليتوقف بي الزمن حين وجدتُها أمامي تجلس علي الأريكة بفستانها الممزق، وتقول لي :

- لقد افتقدتك كثيرًا أيها الغريب ..

قبل أن تسرع نحوي وتحتضنني، فتسمرتُ ذاهلًا دون أن أنطق بشئ وكأنني ابتلعت لساني، ما أتذكره أنني هززتُ رأسي علّني أفيق من ذلك الحلم، لم تفيقني إلا كلمات مني من خلفي :

- أنتِ مين ؟!

فنطقت إلى الفتاة :

- خالد، ألا تتذكرني ؟

فحملقت بي مني في انتظار إجابتي، ثم تحدّث صديق جدي - مجنون السرداب - الذي لم ألحظ وجوده من المفاجأة قائلًا:

- دخلت علينا المسجد واحنا بنصلي، وقالت إنها من أرض زيكولا وبتدور عليك ..

فقالت مجددًا:

- خالد، إنني نادين فتاة المنطقة الشمالية، أنا من دلتك إلى بيت هلال، إن أصدقاءك من أرسلوني، جميعهم في حاجة إليك ..

***

بالطبع كنت أتذكرها، لكن أن يأتي أحد من أرض زيكولا إلى بلدتي كان أمرًا لا أتوقعه علي الإطلاق، وحين يأتي أحدهم تكون فتاة المنطقة الشمالية، كان هذا يفوق خيالي، ثم استطردت تحدثني عما حدث بزيكولا خلال الأشهر الماضية بعد رحيلي، وعن تورط أصدقائي وهي معهم بعد تكاسل العمال وعدم إغلاقهم نفق هروبي، وذلك القانون الذي طبقته زيكولا عقابًا لخونتها فاقتص من أسيل وحدها، لتصبح علي وشك الموت بعدما فقدت وحدات ذكائها، وتلك الحرب التي توشك أن تقوم إن لم تنجُ، حرب كبري لن يُشهد مثلها، فُتح معها باب زيكولا في غير موعده، انضم إليها يامن بين مقاتلي زيكولا.

كانت تتحدث، وتتدور أيامي بزيكولا برأسي كأنها قبل ساعات، وجلس جدي وصديقه يستمعان إلى كل حرف تقوله مشدوهين، وينظران إلى إن تحدثت عن أسيل، أما مني التي لم تصدق يومًا حديثي عن أرض زيكولا فظلت صامتة كأن عقلها لايستوعب مايحدث، ورمقتني بنظراتها حين تحدثت نادين عن قبلة أسيل لي مقابل وحداتها، قبل أن تنتهي الفتاة قائلة لي:

- يعلمون أنك مُدان بخيانة زيكولا، لكنك أمل الطبيبة الأخير..

وصمتت في انتظار كلماتي، فنهضت مني، وغادرت إلى طابقنا الأعلي في هدوء.

***

صمتٌ تام اجتاحني تلك اللحظات، وتكفّل جدي وصديقه بأسئلة جعلت نادين تتعجب من علمهما بتفاصيل كثيرة عن زيكولا، كانت أسئلتهم عن اتهامي بالخيانة وعن نفق المنطقة الغربية، وكيف عبرته، ونظروا إلى حين أجابتهم قائلة :

- من المؤكد ستشدد حراسته بعدما أفقد يامن أحدهم وعيه .. كانت فرصة وحيدة لعبوره، لن تفلح تلك الحيلة مجددًا ..

كان حديثها عن أمر نفق المنطقة الغربية يعني عدم وجود سبيل إلى سرداب فوريك، وحديثها عن اتهامي بالخيانة يعني عدم اكتسابي وحدات ذكاء من جديد للمعيشة داخل زيكولا، فسكتنا، ونظر إلى جدي دون أن ينطق، كان يعلم أنني قد حسمت قراري منذ نطقت الفتاة بحاجة أصدقائي إلى.

***

وكان الأوان ظهرًا حين تركتُ نادين مع جدي وصديقه يتناقشون بأمر الكهرباء التي أبهرتها، وصعدتُ إلى الطابق العلوي بحثًا عن مني دون أن يجد لساني مايتحدث به إليها، و أبصرتُ باب غرفتها مغلقًا فمكثتُ بالردهة أرتّب كلماتي، ثم دلفتُ إليها، فوجدتها تقرأ كتابي الذي عدتُ به من أرض زيكولا للمرة الأولى منذ زواجنا، ولاحظتُ إحمرار جفونها كعادتها إن بكت، فجلستُ بجوارها ولم أنطق بشئ، فلم ترفع

عينها عن الكتاب وواصلت قراءتها لصفحاته، فقطعتُ ذلك الصمت، وقلتُ هادئًا:

- كنت أنا أفقر أهل زيكولا .. ولولا أسيل كان زماني اتدبحت يوم عيدهم ..

فلم تجيبني، فسكتُ، ولم استطرد بأي كلمات عن حبي لأسيل أو حبها لي، كنت أعلم أنها تحبني كثيرًا وسيؤلمها حديثي عن أسيل فلم اشأ أن أجرح داخلها، و قبّلت رأسها، وتركتها وغادرتُ الغرفة، وجلستُ بالردهة ساكنًا أحدق لساعات ببابها المغلق، أنتظر أن تخرج إليّ وتصدر ايماءة حتى ..

ثم صعد إلى جدي، وأخبرني أن نادين قد غلبها النعاس فتركها نائمة بينما غادر صديقه، وجلس وقال مازحًا:

- واضح إن زيكولا قدر عيلتنا اللي مفيش مفر منه ..

فقلت:

- كنت المرة الأولى شايل همّك، دلوقت بقيتوا اتنين، أنت ومني ..

فقال باسمًا:

- ربنا اللي نجاك في المرة الأولى قادر ينجيك في المرة التانية ..

فأومأت برأسي موافقًا حديثه، فنظر إلى باب مني، وأكمل:

- قالت إيه؟

فقلت:

- مقالتش أي حاجة ..

ولم أكمل كلماتي حتي وجدتُ بابها يُفتح، وخرجت إلينا، وجلست علي مقعد بجوارنا، فساد الصمت بين ثلاثتنا لدقائق، وتلاقت أعيننا دون أن ننطق بشئ، قبل أن تقول فجأة دون مقدمات :

- أنا هاجي معاك ..

فقلت متعجبًا :

- مش هتقدري، الحياة هناك صعب تتحملها.

فقاطعتني متذمرة :

- فاكرة كل كلامك القديم عن حياة زيكولا، وقريت كتابك ..

فقاطعتُ كلامها، وقلت :

- ممكن منرجعش .

فقالت :

- خالد، أنا، هاجي، معاك .

***

(٢٦)

رحلةٌ جديدة

كان إصرار مني علي مرافقتي قويًا فهززتُ رأسي إليها موافقًا. ما كان يهمني حقًا هو إنقاذ أسيل، وما أراحني هي كلمات جدي إلى حين نظرتُ إليه بعد موافقتي اصطحاب مني، وبادرني قائلًا:

- متقلقش عليا، ربنا مبينساش حد ..

ودلفت مني إلى حجرتها مسرعة ثم عادت بكتابي القديم، وأشارت إلى جملة عابرة بين السطور تحدثت عن إسقاط خيانة رجال من زيكولا كان هدفهم نبيلًا، كنت قد قرأت تلك الجملة من قبل، لكن الكتاب لم يذكر إن كانت تلك الخيانات التي قصدها تشمل الاقتراب من سور زيكولا أم لا.

واستيقظت نادين مع حلول الليل، وجلست مع مني تحدثها عن نساء زيكولا وطباعهم، واختارت معها فستانًا يقارب فساتين نساء عالمها، ووشاحًا مطرزًا قالت أنه يشبه وشاح النساء الغريبات عن زيكولا ممن أردن تغطية رؤوسهن، أما أنا فاتجهتُ إلى خزانة ملابسي حيث احتفظتُ بملابسي الزيكولية - قميصًا وبنطالًا مهترئان - كنت قد عدتُ بهما إلى بلدتي قبل سبعة شهور.

***

وكانت الساعة الثالثة صباحًا حين غادرنا إلى البيت المهجور علي أطراف بلدتي، وعبرنا سوره أنا ونادين بسهولة، واحتاجت مني إلى مساعدتي، ودلفنا إلى داخله نحمل مصباحين كانت إضاءتهما قوية، ثم هبطنا عبر الباب الحديدي إلى النفق المظلم، وعبرنا ألواحه الخشبية إلى سلم السرداب فالتقطنا أنفاسنا، وأغلقنا مصابيحنا وأسرعنا نهبط درجه، وابتسمتُ حين نظرتُ إلى وجه مني الذي ارتسمت عليه الدهشة، وأخرجت هاتفها لتلتقط صورًا للسرداب فمنعتها عن ذلك، ثم تبدّلت دهشتها خوفًا، وأمسكت بساعدي حين رأت هيكلًا عظميًا راقدًا علي أرضية السرداب فطمأنتها، وأكملنا طريقنا واقتربنا من الوجه المنقوش علي جدار السرداب للسيد فوريك فتوقفتُ وأشرتُ إليهما بأن يتوقفا، وحدّثتُ مني بأن تركض في طريقها دون أن تلتفت خلفها مهما حدث، قبل أن يجذب إنتباهي هيكلين عظميين يفصلهما أمتار كانا علي مرأي بصرنا بالجانب الأخر من السرداب، وكانت عظامهما تُكسي ببقايا من اللحم علي غير باقي الهياكل العظمية المتناثرة بالسرداب، ولم أتذكر أنني رأيتهما مرتي السابقة، فنظرتُ إلى نادين وسألتها إن كانت قد رأتهما أثناء رحلتها فقالت ؛ نعم .. مثلهما مثل باقي العظام، فقلت في نفسي ؛ ربما ..

***

عبرنا الوجه المنقوش فاهتزت الأرض من أسفلنا فنظرتُ إلى أحد الهيكلين الغريبين سريعًا، وجثوتُ علي ركبتي، وشممتُ رائحته فلم أجدها نتنة، ثم اشتدت هزة الأرض، ونظرتُ خلفي لأرى الإنهيار قد بدأ فصحتُ إلى نادين ومني بأن تركضا.. وركضنا والإنهيار يسرع من خلفنا، تمسك يدي ويد مني بمصابيحنا، ودلفنا إلى الطريق الشرقي حين انقسم السرداب إلى طريقين، ثم اتجهت الأرض من أسفلنا إلى الأعلي

فظهر نور الصباح أمام عيني يتسلل عبر مخرج السرداب، فأسرعتُ وقفزتُ خارجه، وتبعتني نادين ثم تبعتها مني بعد لحظات كانت أنفاسي قد احتبست بها، ثم انهار المخرج وانهالت رماله لتغلقه بعد خروجها، ورقدت تلهث وتسعل لدقائق، ووجدتُ المصباحين قد توقفا عن الإضاءة مثلهما مثل هاتفينا، فنظرتُ حولي إلى رمال زيكولا وإلى شمسها التي أشرقت للتو، وملأتُ صدري بالهواء، وقلت بلهجتي الزيكولية :

- مرحبًا مجددًا أرض الذكاء .

***

سرنا في طريقنا إلى الطريق الرملي الممهد إلى زيكولا بحثًا عن عربة الأماريتي التي حدثتني عنها نادين، وأبصرت عيني بعيدًا عربتين كانتا في طريقهما إلى زيكولا.. وواصلنا سيرنا، قبل أن تصيح نادين فجأةً :

- الرسول الأماريتي ..

وأشارت إلى عربة خشبية ذات جواد واحد كانت تقف علي مقربة من الطريق، ويقف بجوارها شاب لا أعرفه، فأسرعت نحوه، وأسرعنا خلفها، واقتربنا منه فقالت له :

- لقد أوفيت بوعدي، ها هو خالد ..

فنظر إلي، كانت عيناه تتفحصني وتتفحص ملابسي المتربة، وقال بصوت قوي :

- كنت أثق أنك ستعود، أشكرك حقًا .

ومد يده ليصافحني فمددتُ يدي وصافحته، ونظر إلى مني مندهشًا، تكاد تعبيرات وجهه تنطق لتسأل عنها، فقالت نادين :

- إنها زوجته، لقد تزوجا منذ أشهر..

فابتسم الشاب، ورحب بمني وكان لايزال يمسك بيدي بقوة، وقال :

- سأقودكم إلى داخل زيكولا، السيدتان ستركبان بصومعة العربة، وأنت ستتشبث بأسفلها.

وأشار إلى إطار خشبي يقترب من الأرض كان يحيط بجوانب العربة السفلية عدا عجلاتها وتابع :

- كانت العربة مجهزة لدخول الطبيبة إلى زيكولا بهذه الطريقة لولا جاءت فكرة صناديق الذهب ..

فأومأت إليه برأسي موافقًا، وركبت نادين ومني بالصومعة، وانحنيتُ لأرى أسفل العربة ثم انزلقتُ أسفل إطارها الخشبي، وتشبثتُ بقائمين خشبيين، وعلقتُ قدمي بحلقتين حديديتين ثابتتين ..ثم زحف الأماريتي من خلفي ومرر وشاحين جلديين عريضين، أحدهما أسفل جذعي، والآخر أسفل ساقي، وثبتهما بإحكام، ثم ودعني قائلًا :

- سأسير ببطء .

وزحف خارجًا، وتحركت بنا العربة في طريقها إلى أرض زيكولا .

***

صارت الأصوات خارج الإطار الخشبي أكثر صخبًا حين توقفت العربة للمرة الأولى منذ تحركنا، ورأيتُ أحذية حراس باب زيكولا الجلدية تقترب من العربة، وسمعتُ صوت بابها يُفتح فحبستُ أنفاسي، ومالبث أن أغلق بعدها بلحظات حتي تحركت العربة مجددًا، وأكملت طريقها إلى داخل زيكولا.. وتبدّل الطريق الرملي أسفلي إلى طريق مُعبد بقطع صخرية أسرع معها جواد العربة، وكاد يسقطني لولا الوشاحين المثبتين أسفلي، وانحرفت العربة عدة مرات بشوارع زيكولا،

قبل أن تبطئ من سرعتها وينحرف جوادها للمرة الأخيرة ويتوقف، ووجدت الأماريتي يطرق بيده الإطار الخشبي، ويقول:

- لقد وصلنا أيها الغريب ..

فانزلقت بجسدي عن الوشاحين وزحفت خارجًا، كانت العربة تقف أمام درج بيت يحيطه سور من قوائم حديدية، أدركتُ أننا عبرناه مع انحرافها الأخير، وكان الأماريتي ينظر بعيدًا كأنه يتيقن بألا يراني أحد، ثم أشار إلى بأن أدلف مسرعًا إلى داخل البيت الذي فتحت بابه فتاة عشرينية لم أكن أعرفها ابتسمت وهمست إلى فرحةً:

- لم يكف النجم عن الضياء ليلة أمس ..

ثم أشارت إلى غرفة علوية، وقالت:

- إنها بالأعلى ..

فركضتُ أخطو درجات السلم الداخلي إلى الطابق العلوي، وفتحتُ باب غرفتها لأراها؛ كانت نائمة في سكون، قصيرة الشعر شاحبة، فقدت من الوزن ماجعلها نحيلةً للغاية وجعل وجهها ضامرًا بارز العظام، فارتجف جسدي، وخفق قلبي بقوة، وتقدمتُ نحوها لا أستطيع تمالك دموعي، وجلستُ بجوارها وأمسكتُ بيدها، وانهمرت دموعي بغزارة حين نظرتُ إلى وجهها الساكن وتذكرت ضحكاتها الجميلة ونظراتها إلى السماء عبر نافذة عربتها بحثًا عن النجم أسيل، وقبلتُ يدها باكيًا حين تذكرت كلماتها بأنها لن تغادر زيكولا إلا لسبب قوي للغاية، كنت أنا هذا السبب فتمتمتُ إليها آسفًا، وكان الأماريتي ومني ونادين والفتاة

العشرينية يقفون خلفي دون أن أهتم لوجودهم، ثم غادرت مني وتبعتها نادين، وظل الأماريتي وخادمته، فقال الأماريتي هادئًا :

- لقد عانت كثيرًا ..

فمسحتُ دموعي بذراعي، والتفتُ إليه فأكمل :

- أحضرت إليها أمهر الأطباء في بلادي، لم يستطيعوا فعل شئ سوى تلك السوائل التي تحمي جسدها، وأعلنتُ الحرب علي زيكولا، ثم جئتُ بها إلى هنا خشية أن أفقدها إن طالت الحرب.

وأخرج زفيره، وتابع :

- لكنني فشلتُ في إعطائها وحداتِ ذكائي ..

فقلت بلهجتي الزيكولية :

- لست مجرد رسول إذن كما أخبرتني نادين ..

فقال :

- إنني الملك تميم ملك أماريتا، و كما وعدتُ أصدقاءك، سأوقف تلك الحرب بعد عودتك .

وأكمل :

- لقد علمتُ بشأن قبلة أسيل إليك ..

وابتلع ريقه، وتابع:

- لم يذكر قانون زيكولا شيئًا عن معاملات الخائن القديمة، لا أريد منك سوى أن تعيدها جزءًا من ثمن قبلتها، تستطيع أن تستعيد به وعيها .

كنت أرى نظراته إلى أسيل كلّما تحدث، فأدركتُ أنه يحبها كثيرًا، وأومأت إليه برأسي موافقًا، و إلتفتُ إلى أسيل، وأمسكت بيدها واقتربت من شفتيها، لم أكن أعلم كم امتلك من وحدات الذكاء، لكني حدّثتُ نفسي بأن أعيدها ألفي وحدة مقابل قُبلتها، كان ضعف مادخلتُ به إلى زيكولا مرّتي الأولى، دون أن أعبأ بمصيري بعدها، وأغمضتُ عيني، ولامستُ شفتيها .

***

قمر

كنت أقف خلف سيدي الملك حين اقترب خالد من الطبيبة، ولمعت عيناي بالدموع حين رأيتُ دموعه، أريد أن أصيح إليها.

- انهضي سيدتي، إن حبيبك قد أتي .

ثم توقف الزمن من حولنا، وسمعتُ صوت دقات قلبي وأنفاسي حين إلتفَّ إليها. وأمسك بيدها، وأغمض عينيه وقبّل شفتيها قُبلةً طالت، تساقطت معها دموعه لتلامس وجنتيها، فنظرتُ إلى سيدي فوجدته ثابتًا لايحرك ساكنًا، ثم انتهى خالد فأمسك برأسه، فسأله سيدي إن كان بخيرفأجابه ؛ نعم ..

وحدّقنا جميعًا بالطبيبة، وعاد خالد إلى الخلف خطوات، وأسند ظهره إلى الحائط، كانت عيناه تنظر إلى سيدتي في ترقب، وتتمتم شفتاه بكلمات لم أسمعها، ومرت لحظة وراء أخرى دون أن يحدث جديد، ففوجئتُ به يندفع نحوها مجددًا يريد أن يعطيها مزيدًا من وحداته، لولا يد سيدي التي أمسكت بساعده وأوقفته، فحاول أن ينزع ذراعه، فصاح إليه سيدي ذاهلًا، وهوينظر إلى الطبيبة :

- أنظر..

أقسم أنني لم أصدّق عيني، وسقطتُ علي ركبتي ارتجف حين وجدتُ شفتي الطبيبة قد صارتا ورديتان اللون غير شاحبتين، وصرخ لساني دون إرادتي، ووضعتُ رأسي بين كفي، يكاد قلبي يقف، ولم أتمالك نفسي من البكاء، واقترب سيدي من الطبيبة التي كانت لاتزال نائمة، واحتضن رأسها، بينما جثا خالد علي ركبتيه، وأغمض عينيه الدامعتين، ودلفت نادين وزوجة خالد إلى الغرفة مجددًا بعد صرختي.

كانت المرة الأولى التي أرى بها دموع سيدي حين حدّثها:

- ستنهضين، وستنعمين بحياتك .. ملكتي.

كنا ندرك أن عقلها يحتاج وقت تدريجي كي يستعيد وعيه مثلما أخبرنا طبيب القصر، ووقفت زوجة خالد حائرةً تنظر إلى زوجها، وتنظر إلى الطبيبة، وجلس خالد مسندًا ظهره إلى الحائط يتمتم بكلماته، وينظر إلى سيدي الذي يحتضن سيدتي ويقبل رأسها، قبل أن يلتفت إليه، ويقول:

- إن بلادي بلاد كرم، ستحلّ بها أنت وزوجتك وأصدقاؤك، لكم منها ماشئتم ..

فأومأ خالد إليه برأسه إيجابًا ولم ينطق، كان ينظر إلى الطبيبة فحسب، ثم نظر سيدي إلى نادين، وقال:

- ستُطلق السهام المضيئة الليلة، ستُوقف الحرب، وسيعود إليك يامن، أخبرني أنه يحبك.

فابتسمت ..

كانت أكثر لحظاتنا سعادة، باتت الأمور واضحةً أمامي، سيدي سيوقف حربه ضد زيكولا، وسنغادر هذا البلد الملعون مع عودة جيشها إلى داخل سورها بعد أيام، وخالد وزوجته قد ينتقلان معنا إلى أماريتا، وإن كنت لا أعلم كيف ستعيش زوجته بالقرب من الطبيبة وقد رأت بعينها حب زوجها إليها، والأمر ذاته لملكنا الذي لا يعلم بعد ردة فعل الطبيبة حين تستيقظ وتجد خالد أمامها، ودق قلبي خشية أن تكون هذه اللحظات ليست إلا لحظات خادعة تسبق عاصفة مُهلكة لن تهدأ حتي تعصف بنا جميعًا .

***

(٢٧)

سيدةٌ عجوز

خالد

كنا جميعًا في انتظار إفاقة أسيل، لم تغادرنا إلا نادين، وأخبرتنا أنها ستبحث عن عمل بالمنطقة الشرقية حتي يوم رحيلنا إلى أماريتا أو حسبما يقرر يامن حين يعود، ثم هبطتُ إلى الردهة السفلية تبعتني مني التي لم تنطق بكلمة واحدة منذ دلفنا إلى زيكولا، بينما بقي الأماريتي وخادمته بجوار أسيل، ودلف إلينا إياد مع غروب الشمس فاحتضنني غير مُصدّق لعينه، ورحب بمني مندهشًا، ثم ركض يخطو الدرج إلى الغرفة العلوية ليري أسيل، وهبط مجددًا بعد دقائق وأسارير وجهه منفرجة، وجلس يحدثني عن حياتهم التي تبدلت كثيرًا بعدما غادرتهم .

***

وكان الليل قد حلّ حين أبصرتُ الأماريتي يهبط الدرج تمسك يده جرابًا قماشيًا، علمتُ فيما بعد أنها السهام المضيئة وقوسها المُطلق، ثم غادرنا ممتطيًا جواده في إتجاهه إلى صحراء زيكولا.. وصعدت مني إلى غرفة أعدتها لنا الوصيفة قمر، ثم أخبرتُ إياد عن حديث الأماريتي بأن نرحل جميعًا إلى أماريتا في خلال الأيام القليلة القادمة، فقال :

- أنا لن أرحل ..

وأكمل :

- لا أستطيع العيش خارج زيكولا، واعتقد أن يامن لن يفعل ذلك أيضًا ..

وسألني :

- هل سترحل معه ؟!

فقلت :

- لا أعلم، لم تمر إلا ساعات لي بزيكولا.

وتابعتُ :

- بعد اتهامي بالخيانة لن أستطيع مغادرة هذا البيت، ومني ضعيفة لن تتحمل العمل في زيكولا، ليس أمامي إلا مغادرة زيكولا، إما إلى بلادي أو إلى أماريتا ..

فسألني :

- كم أعطيت الطبيبة من وحدات ؟

قلت :

- ألفي وحدة ..

قال :

- لقد أعطتك الكثير حقًا يومها، إنك مازلت غنيًا بعد إعطائها ألفي وحدة، علي الأقل لديك ألفين آخرين ..

فأومأت برأسي، وقلت :

- نعم، أدركتُ ذلك بعد لحظات من إعطائها وحداتي.

ثم سألتُه :

- إن انتهت الحرب هل سيعود يامن إلى المنطقة الشرقية ؟

قال :

- نعم، ولن يستطيع أحد الاقتراب منه بعد ذلك الوشم، لقد نجا صديقنا من تهمة الخيانة ..

فسألته متعجبًا :

- ولماذا لم تفعل مثله وتنضم إلى الجيش ؟

قال :

- لا أحب الدماء، أنا سعيد بتكسير الصخور هنا، ولا أحد يعرفني غير يامن بهذه المنطقة ..

ثم تساءل :

- خالد، هل تحب زوجتك ؟!

قلت : نعم

قال :

- وأسيل ؟

فسكتُ ثم قلتُ :

- أحبها أيضًا ..

فقال :

- إذن لن تستطيع العيش في أماريتا ياصديقي ..

فواصلتُ صمتي، فقال :

- أتعلم لماذا لا أحب ؟

وأجاب نفسه حين نظرتُ إليه :

- الحب يجعل الرجال حمقى .

وتابع :

- لقد رأيتُ حب هذا الملك لأسيل، لقد حرك جيشه إلى بلادنا من أجلها، وكان يوّد الذهاب عبر سردابك، لولا أرشدنا يامن إلى نادين خشية ألا يعود فتصبح الحرب قدرًا محتومًا .

قلت :

- رأيتُ ذلك الحب في عينيه ..

وأكملتُ :

- لابد وأن هناك طريقًا آخرًا إلى سرداب فوريك ..

فضحك إياد، وهز رأسه نافيًا :

- تريدنا أن نعيد الكرّة مرة أخرى .

وكاد يكمل كلماته لولا صاحت إلينا قمر من أعلى قائلة :

- لقد حركت الطبيبة يدها ..

***

ركضنا أنا وإياد إلى الأعلي، ودلفنا إلى غرفة أسيل، كانت قمر تناديها:

- سيدتي، إننا هنا .

ولاحظتُ حركة أصابع يدها، لكن عيناها كانت لاتزال مغلقة، فقلتُ لقمر:

- مازال عقلها ينشط تدريجي، ستنهض في وقت قريب ..

ثم اتجهتُ إلى الشرفة، ووقفتُ خلف ستارة بابها القماشية دون أن أخطو إليها، ونظرتُ إلى الخارج عبر فُرجة بين شطريها المنسدلين، كان الشارع أمام البيت صاخبًا تنيره المصابيح النارية والقمر المكتمل بالسماء، فباتت تفاصيله جميعها واضحة جلية، امتلأ بكثير من أهل زيكولا السائرين رجالًا ونساءً، فمكثتُ مكاني متواريًا خلف الستارة خوفًا أن يراني أحدهم ويشي بي إلى جنودهم، لعنةٌ حقًا أن يعرفك الكثيرون .

ودار بخلدي أن يصيح أحدهم بصوته قائلًا : الغريب الناجي من الزيكولا، فيندفع الجنود إلى البيت، وينتهي كل شئ بالنسبة لي ولأسيل ولإياد ولمني، قبل أن ينشغل عقلي بحديثي مع إياد، وطريقي إلى سردابي مجددًا، وعادت إلى رأسي تفاصيل المنطقة الغربية مرة أخرى، ثم احتبست أنفاسي، وتشتت تفكيري حين رأيتُ تلك العيون تحدّق بي، كانت لسيدة في عقدها الخامس جلست فجأة بجانب الطريق أسفل مصباح ناري مواجهًا للشرفة، كانت ملامحها تختلف عن باقي نساء زيكولا، كان وجهها أحمرًا ممتلئًا بالتجاعيد، تنسدل عن جانبه خصالٌ مُجدلة من شعرها الرمادي الأشيب.. والتف حول رقبتها وشاح قماشي كان قديمًا مثل معطفها الأسود البالِ الذي تكوّمت بداخله، فبعدتُ عيني عنها للحظات ثم نظرتُ إليها مجددًا، فوجدتُ عينيها لاتتحرك

عني، فعدتُ خطوة للخلف فاختفت عن بصري ثم تقدمتُ بحذر مرة أخرى فالتقت عينانا. فحبستُ أنفاسي، وحدقتُ بعينها التي كانت تشبه عيني الصقر .

***

عدتُ إلى الخلف، وأغلقتُ شطري الستارة. فسألني إياد حين لاحظ اضطراب وجهي :

- ماذا هناك ؟

قلت :

- هناك امرأة غريبة كانت تحملق بي ..

فنهض إياد، ودسّ عينه بين شطري الستارة. وسألني وهو ينظر إلى الخارج :

- أين ؟

فقلت :

- تجلس أسفل مصباح علي جانب الطريق أمامك مباشرة، امرأة مسنة ترتدي معطفًا أسودًا .

قال :

- لا أرى أحدًا ..

وعاد بجسده، فمددتُ رأسي، ونظرتُ إلى مكانها فلم أجدها، فقلت :

- كانت تحدّق بعيني بغرابة، أتمني أن يسرع الأماريتي، علينا مغادرة هذا البيت، لابد وأنها أسرعت لتخبر جنود زيكولا ..

وكاد قلبي يتوقف حين وجدتُها تدلف إلينا فجأةً بحجرة أسيل، وتحدّق بي بعينيها العميقتين الزرقاوتين كأنها لاتري غيري بالغرفة، فاحتبست أنفاسنا أنا وإياد وقمر، قبل أن تظهر مني من خلفها، وتقول بلهجتنا المصرية :

- كانت بتخبط علي الباب بدون توقف، ومحدش منكم سمعها، نزلت فتحت لها، فطلعت علي الأوضة مباشرة بدون ماتنطق ولا كلمة ..

فتقدمت إلى السيدة، كان نعلها الجلدي يصدر صوتًا مع أرضية الغرفة الخشبية، وأنا لا أحرك ساكنًا تحدق عيناي بوجهها، ثم توقفت أمامي، ونطقت إلى متلهفة بلغة لم أفهمها، فنظرتُ إلى إياد علّه فهم ما قالته ..فبدا علي وجهه أنه لم يفهم مثلي، وأعادت كلماتها ذاتها إلي، وانتظرت حديثي وهي تحدق بي، فلم أنطق، فأعادت كلماتها للمرة الثالثة، وتساقطت دموعها علي وجنتيها .

لم أكن أفهمها لكني أدركتُ أنها تتوسل بشئ، فنظرتُ إلى مني التي طالما فاقتني في اللغات الأجنبية علّها فهمت ما قالته هذه السيدة التي تشبه أوروبي عالمنا، فهزت رأسها لي نافية بأنها قد فهمت أي شئ، فقال إياد :

- ليست زيكولية، يبدو أنها دخلت إلى زيكولا هذه الأيام ..

كان ذلك واضحًا لايحتاج إلى تفكير، ثم ضمّت السيدة أصابع يدها اليمنى قبل أن تفرد الثلاثة الأوسط منهم فقط، وتضرب بيدها أليسري علي صدرها باكيةً، وقالت جملة جديدة لم نفهم كلماتها المتشابكة، ثم سكتت فجأة ومسحت دموعها مهرولة، ونظرت إلى وجوه الآخرين بالغرفة المحدقين بها، ثم إلتفتت برأسها نحو باب الغرفة ونظرت عبره باستطلاع، ثم زحفت بجسدها كطفل أسفل سرير أسيل واختبأت، ولم

تمر لحظات حتى وجدنا الأماريتي قد عاد، وكأنها قد شعرت به فاندهشنا.

كان وجهه مضطربًا ليس كما رأيته قبل ساعات. دلف إلينا وكان الجراب القماشي بيده، فسأله إياد:

- هل أطلقت السهام المضيئة؟

قال:

- لا

فسألته في دهشة:

- لماذا ؟!

أجابني متوترًا:

- لم يكن الطريق النائي إلى وادي بيجانا خاليًا، وأكمل:

كان هناك ثمة جنود يقتلون أحدهم بعيدًا عن باقي جيش زيكولا ثم رحلوا،

فنظرنا إليه، ودقت قلوبنا خشية أن يكمل ماحدثتنا به وساوسنا، فأكمل متجهمًا:

- كان القتيل صديقكم، يامن

***

(٢٨)

اقليم اكتارا

قمر

ساد صمتٌ ثقيل بالغرفة زاغت معه الأعين، واندفعت الدماء إلى وجهي خالد وإياد، وانتفخت عروق رقبتهما كأن صاعقة أصابتهما، بينما تسمرت مني تنظر إلى زوجها، قبل أن يصرخ إياد إلى سيدي بعد لحظة من الذهول:

- ماذا تقول ؟!!

قال سيدي متجهمًا:

- كنتُ في طريقي إلى وادي بيجانا، وكان القمر يضئ مسافة كبري أمامي حين وصلتُ إلى وادي التلال الصغري وسمعتُ صهيلًا مفاجئًا، ثم لمحتُ ظلالًا بعيدة لأشخاص يمتطون جيادهم كان أحدهم يحمل شعلة، ويمسك آخر بحبل يجرّ شخصًا يهرول خلفهم مترجلًا بصعوبة، فخففتُ من سرعة حصاني، وترجلتُ حذرًا في انتظار أن يبتعدوا عن طريقي، ثم دوّت صرخة مكتومة أدركتُ معها أن هذا المجرور قد قُتل، وكنتُ قد اقتربتُ منهم، متواريًا خلف تبة صغري حين امتطوا جيادهم ورحلوا دون أن

يبصروني، كانوا سبعة جنود وقائدهم، ثم سمعت أذني خرخرة احتضار القتيل فدنوتُ منه .

والتقط سيدي أنفاسه، ثم أكمل بعد برهة من الصمت :

- لم يكن إلا صديقكم يامن، موثوق اليدين، معصوب العينين، منزوع الثياب إلا من سروال قصير، تسيل دماؤه أسفل عنقه المشقوق ..

ثم سكت، وأكمل من جديد كأنه تذكر شيئًا :

- كانت يده اليمنى مشوهة، أزال أحدهم بخنجره جلدها الموشوم .

فأمسك خالد برأسه، كان يتمالك نفسه بصعوبة بينما لم يستطع إياد أن يتمالك نفسه، وصرخ باكيًا، وضرب بقدمه صندوقا خشبيًا كان أمامه فأحدث ارتطامه صوتًا قويًا، ثم وضع رأسه بين كفيه، وصاح ذاهلًا:

- لا يحق لأي زِبكولي أن يقتل يامن، لقد كان يحمل وشم جُند زِبكولا ..

وصرخ إلى سيدي :

- هل سمعته يقول شيئًا ؟

فهز سيدي رأسه نافيًا ولم ينطق ..

***

لحظات من التشتت مرة أخرى كعادة أوقاتنا بهذا البيت، وكان خالد يجلس مسندًا ظهره إلى الحائط شاردًا تلمع عيناه بدموعها في صمت، قبل أن يسأل سيدي :

- لماذا لم تكمل طريقك إلى وادي بيجانا ؟

قال سيدي :

- كنتُ قد وعدتُ يامن بالنجاة، أخبرتُه واثقًا يومها أنني أفي بوعودي، لكن وعدي لم يتحقق ..

وأكمل :

- حين نزعتُ العصابة عن عينيه الغائرتين ..شعرتُ أنها لاتقول إلا شيئًا واحدًا ؛ لا تفعلها ..

ثم سكت سيدي ..

كان خالد قويا متمالكًا، أومأ برأسه إلى سيدي، وعاد إلى شروده، وبدا أنه يفكر بما حدث، كان هذا الشاب يعجبني حقًا، لم يكن كباقي أهل زيكولا يخشي علي وحداته من التفكير، وكان ينظر إلى سيدي بين حين وآخر، ثم تعود عيناه إلى الشرود مجددًا، ثم نطق إلى سيدي من جديد :

- هل كان هناك قتلي غيريامن ؟

أجابه سيدي :

- لا

فنظر إلى إياد، وسأله :

- هل هناك في زيكولا ما يقضي بقتل أي جندي غيرخيانة جيشه ؟

هز إياد رأسه نافيًا يرتشف دموعه، فنطق خالد محدثًا نفسه بصوت مسموع :

- وإن خانهم، وهذا لم يكن ليحدث، لماذا يُقتل بعيدًا عن بقية الجيش، أعلم إن كان هناك خونة من الجنود فيُقتلون علي مرأي من الباقين ليكونوا عبرةً .

وأكمل :

- لم أرَ منضبطًا بالعمل مثل يامن، عملنا معًا لأشهر وعرفته جيدًا، كان مخلصًا لعمله لايحب إيذاء أحدًا، وكان يحب زيكولا كثيرًا .

وتابع :

- لم يكن ليخون جيشه أبدًا .

وتساءل وهو ينظر إلينا :

- ولماذا محوا آثار وشمه، وجردوه من ثياب الجُند ؟!

بعدها نظر إلى الطبيبة النائمة، وأطال نظرته، ثم قال وهو يحدّق بالفراغ :

- لقد كان انتقامًا، مثل انتقامهم من أسيل .. إن زيكولا تنتقم من أصدقائي واحدًا تلو الآخر.

وسكت واضعًا رأسه بين ذراعيه وأمال جذعه إلى ركبتيه، ثم وجدنا السيدة الغريبة تخرج إلينا من مخبئها زاحفةً علي ركبتيها ويديها، ثم نهضت وخضعت أمام سيدي كعادة العامة أمام الملوك لكنها كانت ترتجف، وكانت نظرة التعجب علي وجه سيدي بادية لنا جميعًا، فسألها :

- من أنتِ ؟!

فنطقت العجوز بلغتها الغريبة، وقالت جملة لم نفهمها، ففوجئنا بسيدي يحدثها بنفس اللغة التي نطقت بها، فنظرنا إليه، ورفع خالد رأسه إليه، وسأله :

- هل تفهم ماتقول ؟!

قال سيدي :

- نعم ..

وأكمل :

- إنها تتحدث اللغة الإيرجية، لغة اقليم إكتارا، بلاد أقصي الشرق، تعلمتُ كثيرًا من كلمات هذه اللغة قبل سنوات ..

قال خالد ناظرًا إليها :

- وماذا قالت لك ؟

قال سيدي :

- قالت أنها تعتذر لدخولها البيت دون استئذان .

ثم نظر إلى خالد، وسأله :

- من أتي بها إلى هنا ؟

قال خالد :

- كنت أنظر عبر الشرفة فوجدتُها أمامي تحدق بعيني، وخفتُ أن تشي بي إلى جنود زيكولا، لكنني فوجئت بها تدلف إلينا وتحدثنا دون أن نفهم منها كلمة واحدة، ثم اختبأت أسفل سرير أسيل قبل أن تعود بلحظات، فتعجبنا مما فعلته ..

فحدّثها سيدي بلغتها، فأجابته بكلمات كثيرة ثم سكتت. وقال سيدي :

- تقول أنها خدمت لسنوات طويلة بقصور حكام بلادها، وتعلم جيدًا وقع أقدام الملوك علي الدرج . لذا اختبأت حين سمعت وقع اقدامي، تقول أنها تخافهم كثيرًا، وتكرههم .

ثم بكت السيدة، وتشابكت كلماتها بدموعها، وتحدثت إلى سيدي، وضربت صدرها بيدها كما فعلت أمامنا سابقًا، وأشارت بثلاثة أصابع من يدها الأخرى مجددًا، ونظرت إلى خالد وأكملت حديثها. فحدّثها سيدي بلغتها، كان يبدو سؤالًا منه فهزت رأسها، وأكملت ..

***

كان سيدي يترقب وجهها وهي تتحدث، ونقف نحن كالبلهاء لا نفهم أي شئ، بينما كان إياد شاردًا لايعبأ بكلماتها، لايلبث أن يمسح دموعه فتتساقط غيرها، ثم نظرت العجوز إلى خالد مجددًا وهي تتحدث باكية، ثم نظرت عينا سيدي إلى الأرض وهز رأسه ..كانت نظراته إليها نظرات حزن أو شفقة أو تعاطف، لا أدري .. كنا ننتظر حديثه إلينا لنفهم قولها، ثم سكتت بعد وقت طويل من الحديث المتواصل المختلط بالبكاء، فقبّل سيدي رأسها، وصار جسدها يرتجف بقوة، وانهمرت دموعها بغزارة، حين بدأ سيدي يحدثنا قائلًا:

- إنها اتفاقية البشر مقابل الديون .. لم تنضم زيكولا إلى عهد مينجا بين بلادنا، لكن يبدو أنها طبقت اتفاقيتها مع بلاد أقصي الشرق أو ما يسمي بإقليم إكتارا، دون أن يعلم أحد ..قرأتُ قديمًا

أن سكان هذا الاقليم كثيرون للغاية، الآلاف المؤلفة، يمتازون بذكاء لا يوجد بسكان أي بلد آخر.. غير أنهم فقراء فقر مُدقع كذلك، لا تنتهي حروبهم فيما بينهم أبدًا ..يبدو أن ذكاءهم أثار شهوة زيكولا، ورأوا أنهم ذوي قيمة عن أهالي بلاد مينجا .

تقول السيدة أنها كانت تخدم بقصر ملكها يوم جاء إليه رسلٌ من زيكولا قبل أربعة سنوات، وبعد تلك الزيارة تبدّل كل شئ ببلادها .

- عربات كثيرة للغاية دلفت إلى بلادهم مُحملة بالأسلحة والبضائع والمؤن من شتي الأنواع، لكن فقراءها لم ينالوا منها شيئًا، بل دفعوا هم الثمن، عادت تلك العربات ذاتها مُحملة بالآلاف من فقراء إكتارا، عرايا .. مُكبلة أعناقهم بأغلال حديدية، من يرفع رأسه لتودع عيناه أهله ينهال السوط علي جلده فيمزقه .

كان هناك ثمة حرج علي وجه سيدي، وصمت برهة، فعلمتُ مايدور برأسه، لقد جال بخاطره ماحدث لنا أنا والطبيبة وغيرنا من فقراء بيجانا حين كنا ضحايا اتفاقه مع بلدنا، أو ربما تذكر حديث الطبيبة إليه حين حدّثته أمامنا عن ميزان العدل.

ثم أكمل :

- تقول أنهم كانوا يختارون الشبان والصغار، كانت العربات تأتي مرتين بالعام، إن بابهم لايُغلق، بات يُغلق ولا يغادره أحد، من يغادره يُقتل، أربعة أعوام باقليم إكتارا لايعلو صوت فوق صوت السياط علي الأجساد، كانت آخر العربات منذ أربعة اشهر،

حملت ثلاثة من أبناء هذه العجوز، وحين قبّلت قدم حاكمها ليعيد إليها أبناءها ضُربت بالسياط، وألقوا بها خارجًا .

ليس لديها غيرهم، جاءت خلفهم بعدما استطاعت الهرب، لم يهتموا لأمرها لكبر سنها، وأشفق عليها حارس كان يعرفها حين عملت بقصر ملكهم، وبدأت طريقها إلى هنا خلف أولادها تتنقل بين عشائر الوديان، ثم وصلت إلى زيكولا مع تاجر إحدى العشائر علم بأن زيكولا قد فتحت بابها ..

أربعة أشهر كي تصل إلى زيكولا، في طريق لايستغرق إلا مسيرة شهر واحد بالعربات، وظلت تبحث بين الوجوه، لم يعطها أحد اهتمام، ولم يفهمها أحد، ولم يطعمها إلا ذلك التاجر الغريب حين أعطاها قبل رحيله بضع قطع جافة من الخبز..

كانت قد تعبت حين جلست علي جانب الطريق اليوم، ووجدت عينيك فجأة، فأدركت أنك غريب عن هذا البلد مثل أولادها، وقد تكون رأيت أحدهم، فدلفت إليك لتستنجد بك ..

فقاطع إياد سيدي، وقال مبحوح الصوت :

- أربعة أعوام تحضر زيكولا رجالًا من اقليمها ؟!، لم أقابل أحدًا بزيكولا يتحدث هذه اللغة من قبل ..

وقال خالد متعجبًا :

- وأنا لم أرَ أحدًا منهم علي مدار أشهري الأولى بزيكولا، وانتظر .. مرتان بالعام ؟!، المرة الأخيرة منذ أربعة أشهر، ومسيرة العربات شهر واحد، أي دلفت إلى زيكولا قبل ثلاثة أشهر !!

فنظر إلى إياد، وسأله :

- كان باب زيكولا مغلقًا، أليس كذلك ؟!

قال إياد :

- بلي، لامجال للشك بهذا الأمر..

وأكمل :

- إن هذه العجوز تكذب، أو أصاب الخرف عقلها .

فقال خالد بصوت شارد، وهو ينظر إلى وجهها المُجعد وعينيها العميقتين :

- أو تمتلك زيكولا التي تنتقم منا مدخلًا آخرًا، لايعلم عنه الكثيرون من أهلها .

***

(٢٩)

خطابُ الحاكم

قال خالد هائمًا :

- أو تمتلك زيكولا التي تنتقم منا مدخلًا آخر، لا يعلم عنه الكثيرون ..

فنطق إياد :

- هذا مستحيل ..

ثم نظر سيدي إلى السيدة الغريبة، وحدّثها بلغتها، ولمّا انتهى هزّت إليه رأسها في حزن، وهمت لتغادر، فسأله خالد :

- ماذا قلت لها ؟

فأجابه :

- أخبرتها أننا لن نستطيع مساعدتها، لم نرَ أحدًا من أهلها من قبل، وسنرحل قريبًا ..

فقال إياد:

- أخبرها أن الحاكم سيلقي خطابًا إلى أهل المنطقة الشرقية صباحًا، سيجتمع الكثيرون هناك، ربما يكون جمعا ذا فائدة لها .

فأخبرها سيدي بذلك، فربتت علي يده، ثم انحنت بجذعها لسادتي جميعهم كأنها تشكرهم، ثم غادرتنا، ومال إياد علي جانبه وأغمض عينيه ونام موضعه، بينما غادرت مني إلى غرفتها، وظللتُ أنا بجوار سيدتي، ومكث سيدي وخالد بالغرفة، وكان يغلبني النعاس بين حين وآخر، ثم سمعتُ خالد يسأل سيدي :

- متي سيصل جيشك إلى الشاطئ ؟

أجابه :

- خلال تلك الأيام ..

فسأله متعجبًا :

- ألا تعلم لوصوله وقتًا محددًا ؟!

فقال :

- لا أستطيع أن أحدد موعدًا دقيقًا، ممر مضاب الريكاتا وسط بحر مينجا لا يمرر إلا سفينة واحدة، ولا أعلم كم تم تجهيز من السفن.

وأضاف قائلًا:

- لم امتلك الوقت، أخبرني الأطباء أن حياة أسيل في خطر إن طالت إغماءتها. فكلفتُ كبير قادتي بتجهيز جيشنا، أثق به تمام الثقة.

وتابع :

- وزادت ثقتي حين رأيتُ جيش زيكولا، لم يكن ضخمًا كما تخيلناه دومًا،

وسكت، فسأله خالد :

- هل أخبرتك أسيل أنها تحبك ؟

فصمت سيدي ثم قال :

- لا

فسكت خالد، وساد مع سكوته سكون الليل، وأغمضا أعينهما. فأسندتُ رأسي إلى ذراعي الممتد بجانب الطبيبة، واستغرقتُ في النوم لتمر ساعات تلك الليلة الطويلة، قبل أن تشرق الشمس وأطلق صرخة مدوية نهض معها جميع من بالغرفة حين شعرتُ بأصابع ناعمة تداعب شعري، ولمّا رفعت رأسي ونظرتُ إلى الطبيبة بعين نصف مُفرجة، وجدتها تنظر إلى .

***

وقفنا جميعًا مشرقةٌ وجوهنا بجانب سرير الطبيبة، سيدي عن يمينه إياد عن يمينه خالد، وعدتُ أنا إلى الخلف منفرجة أساريري، كانت أعينهم تحدق بعينيها فرحةً، بينما كانت هي تنظر هائمة في إتجاه واحد دون غيره، نحو خالد، ثم انهمر سيل من دموعها علي جانب وجهها، وهمست فرحةً بإعياء :

- خالد ..

فابتسم، وهزّ رأسه فرحًا، وربت علي يدها، فابتسمت وضاقت عيناها، ثم نظرت إلى إياد وإلى سيدي الذي كان يرتدي ثيابًا زيكولية، وبدت علي وجهها حيرة زادت بعدما نظرت إلى ذراعها المثبت به أنبوب

معدني رفيع، ثم حدّقت بسقف الغرفة ودارت عينها إلى الغرفة من حولها، وقالت :

- أين أنا ؟!!

فقال سيدي فرحًا :

- إننا في زيكولا ..

فنظرت إلى الفراغ أمامها كأنها تستوعب ما يكون قد حدث، ثم عادت وسألتنا :

- ماذا حدث ؟!

فابتسمنا جميعًا، وقال خالد بلهجته الغريبة ضاحكًا :

- فيه حرب هتقوم بسببك ..

ثم وجدتُها تحاول أن تنهض بجسدها، فأسرعتُ وساعدتُها، وثبتُّ وسادة وراء ظهرها، فسألتني :

- ماذا حدث يا قمر؟!

فهمستُ إليها باسمة :

- سأروي لك كل ما حدث سيدتي ..

فحركت عينها مجددًا إلى خالد، وأطالت نظرتها كأنها تتأمله، فغادر سيدي الغرفة، ثم أحضرتُ لها شرابًا ساخنًا، وساعدتها كي تحتسيه بأكمله، وكانت نظرات الحيرة لم تفارق وجهها، فقلت :

- لقد أحضركي إلى هنا سيدي الملك، منذ فقد عقلك وعيه بغرفتك الشرقية ..

فصمتت كأنها تتذكر، فبدأتُ أروي لها ماحدث منذ شهر مضي، وكيف وجدناها تصرخ شاحبة تلك الليلة، وعن خطاب سيدي إلى شعبه معلنًا حربه ضد زيكولا ليسقط خيانتها، كان خالد يجلس بجوارها ممسكة يده، ويندهش أحيانًا من حديثي هو الآخر، وأكملتُ لها عن عبورنا بحرمينجا علي سفينة ملكية، وعن ذلك النجم الذي لمع وحيدًا ليلة وصولنا إلى الشاطئ الشمالي، وعن عبورنا باب زيكولا وعبورها داخل صندوق للذهب ، والذي فشل سيدي في نقل ثمنه من الذكاء إليها بعدما قبّل يدها، فأحمرت خجلًا، ونظرت بطرف عينها إلى خالد .

ثم حدّثتها عن لقائي بإياد صدفة، ولم أزد بهذا الأمر، كنت لا أريد أن أتذكر مافعلتُه تلك الليلة، ثم أكمل إياد الحديث، وأخبرها عن اتهامها بتهمتين للخيانة، وعن ذلك القانون الذي أصدرته زيكولا فاقتص كل وحدات ذكائها، فوجد سيدي أن سبيلها إلى النجاة هو عودة خالد، ثم توقف عن الحديث حين دلفت مني إلى الغرفة، وسكتنا جميعًا، فنظرت إليها سيدتي، وسألتني عنها فسكتُ، فتعجبت من سكوتي، واضطرب وجه خالد، وسحب يده بعيدًا عن يد سيدتي، فنظرت إليه، وسألته بإعياء في ترقب :

- هي ؟!

فقال خالد :

- نعم، مني زوجتي ..

فأخفضت سيدتي عينها، ونظرت شاردةً إلى الغطاء الذي يغطي جسدها، وأحمر وجهها إحمرارًا شديدًا، وسكتت كأنها جُمدت، ثم التمعت عينها بالدموع، فغادرت مني، ونهض خالد هادئًا وغادر الغرفة، تبعه إياد الذي أغلق الباب من خلفه، و كانت سيدتي لازالت تخفض عينها، قبل أن ترتجف شفتاها، وتنفجر في بكاء عنيف، فاقتربتُ منها وضممتُ رأسها إلى صدري، وظلت تبكي إلى أن هدأت شيئًا فشيئًا، ثم مسحت دموعها وسألتني عن سيدي الملك، فهبطتُ الدرج إلى الردهة السفلية، فوجدتُ إياد وخالد يجلسان صامتين، فسألتهما عن سيدي، فأخبراني أنه قد خرج ركضًا خلف نادين التي جُنّت حين أخبرها بمقتل يامن.

***

كان الأماريتي قد هبط الدرج إلى الردهة السفلية، وجلس شاردًا مُخفض الأعين، ثم دلفت إليه نادين فجأة فرحب بها، وحين سألته عن ذلك الشرود علي وجهه أخبرها أنه بخير، ثم سألته عن الباقين فأضاف :

- إنهم بغرفة أسيل، لقد استعادت وعيها .

ففرحت، وكادت تصعد الدرج إليهم فسألته :

- هل أوقفت الحرب إذن ؟

قال :

- لا

سألته متعجبة :

- لماذا ؟

قال :

- سأوقفها، عليكِ ألا تقلقي ..

قالت باسمة :

- أريد أن يعود يامن ..

فصمت قليلًا، ثم قال :

- لا أعدك بذلك

فتركت سياج الدرج، وسألته :

- ماذا ؟

قال الأماريتي متجهمًا :

- لقد قُتل يامن بالأمس ..

فدق قلبها بقوة، ونظرت إليه قاطبة مابين حاجبيها، وعادت واقتربت منه، ثم صرخت به غير مصدقة :

- ماذا تقول ؟!!

قال :

- هناك أشياء كثيرة لم نعد نفهمها في زيكولا ..

فصرخت إليه مجددًا :

- لا تهمني زيكولا .. هل مات حقًا ؟

فأومأ إليها برأسه حزينًا، فأمسكت برأسها ذاهلةً، وركعت علي ركبتيها، وصرخت باكية، وظلّت تبكي وتضرب بيدها علي الأرض بقوة، ثم نظرت إليه فجأة كالمجنونة، يتطاير الشرر من عينها :

- من قتله ؟

قال :

- ثمة قائد زيكولي وجنوده، لا أعرفهم ..

فنهضت، وقالت :

- سأقتلهم جميعًا ..

ثم ركضت نحو باب البيت، وغادرته مهرولة، فنهض وركض خلفها

***

كانت شمس الصباح قد اشتد قيظها حين أسرعت نادين إلى شوارع المنطقة الشرقية، تجري حافية القدمين كمن فقد عقله، لا تعلم لها وجهة، ويخطو خلفها الأماريتي مسرعًا دون أن يركض، لا يريد أن يلفت الإنتباه إليهما لكنها لم تغب لحظة عن عينيه، وإن غابت ركض قليلًا ثم سار مجددًا، حتي وجدها قد توقفت بأحد الأزقة الجانبية، وجثت علي ركبتيها وانفجرت مجددًا في بكاءها، فاقترب منها دون أن تراه، وتركها تكمل بكاءها، وظل واقفا مواريًا جسده وراء جدار بيت، ثم جلس وأسند ظهره إلى ذلك الجدار، ونظر إلى سماء زيكولا، تسمع أذنه نحيبها، ثم سكتت فجأة فالتفت ومدّ رأسه إليها، فوجدها تحدّق كحيوان بري بجندي يقف علي مقربة منهما، وأمسكت بيدها حجرًا كان بجوارها، ونهضت تتحرك نحوه ببطئ تلتمع عيناها بغضب كان كفيلًا لهلاك صاحبه، وكادت تغادر الزقاق، فأمسك بها الأماريتي، وكمم فمها بيده، وجرّها إلى الزقاق مرة أخرى، وألقي بالحجر جانبًا، وهمس إليها :

- عليكِ أن تهدأي، ستقتلين أنتِ الأخرى ..

فصرخت به :

- دعني وشأني، إنك السبب فيما حدث ..

فسكت، وترك يدها، فنظرت إليه حانقة، ثم جلست موضعها، وعادت دموعها لتسيل علي وجهها، وقالت بصوت هادئ :

- كنت قبل سبعة أشهر مجرد جسد يشتهيه الرجال ليس أكثر، جسد يسعد بوحدات ذكاءهم مقابل إرضاء شهواتهم ، ثم اختبأنا معًا، فتبدّل كل شئ ..

وابتسمت ابتسامة مرة، وأكملت :

- كان خجولًا للغاية، كلّما حاولتُ غوايته أحمرّ وجهُه، واختلق حديثًا آخر، قبل أن يدّعي النعاس حتي وإن كنا ظهرًا، كان بسببي ينام اليوم بأكمله، أدركتُ بعدها أنه كان يسهر حين كنت أنام، ويوم بعد يوم وجدتُ جسدي لم يعد يشتهي الرذيلة، وحدّثني عقلي بأن أعمل مثل باقي نساء زيكولا الشرفاء إن نجونا، ثم حدّثته بذلك فاحتضنني خجلًا دون أن يقول شيئًا، شعرتُ أنني أسعد فتاة بهذا العالم وقتها

كنت في بداية اختبائنا ألعن أيامي، لكني في آخر الأيام أدركتُ أنها الخمسة أشهر المثلي بحياتي، وإن لم أكتسب وحدة ذكاء واحدة خلالها وأطعمت بأردأ الطعام كي أحافظ علي مخزوني .

كان يعلم أنني أحبه، لذا أخبرك متيقنًا أنني سأذهب عبر سرداب فوريك، لا من أجل زيكولا ولا من أجل الطبيبة، من أجله فقط، من أجل رجل جعل لي قيمة .

ثم هزت رأسها، وقالت :

- لم أكن أدرك قبله أن شعور المرأة بقيمتها يغنيها عن ثروات العالم جميعها ..

فقال الأماريتي هادئًا :

- هذا البلد ملعون بكل ما به، سنغادر وستعيشين حياة جديدة ببلدنا، لن أنسي مساعدتك لنا

فقالت :

- لم تعد تختلف كثيرًا، سيدي ..

ثم نهض، ومدّ يده إليها فأمسكت بيده ونهضت، وخرجا معًا إلى شارع واسع كان مزدحمًا بأهل زيكولا يسيرون في إتجاه واحد يعاكس إتجاههما، فأكملا طريقهما بصعوبة، وكادا ينحرفان إلى شارع آخر فوجدا جنديًا علي جواده يصيح بهما، وأشار إلى إتجاه مسيرة السائرين، وقال :

- هذا الإتجاه ..

فنظر إليه الأماريتي يستفهم مايقصده، ثم وجد عددًا من الجنود يأتون من خلفه، فقالت نادين :

- إنه خطاب الحاكم، سيدفعون الناس جميعهم إلى الساحة الشرقية، لقد عُلقنا معهم .

وأشارت إلى مسيرة أخرى بعيدة تدلف في الإتجاه ذاته، خلفهم بضع جنود ممتطين أحصنتهم، وصاح الجندي إليهما مرة أخرى :

- أسرعا وانضما إلى المسيرة، سيتوقف العمل بزيكولا خلال خطاب الحاكم ..

وأغلق الجنود الشوارع بأكملها، ودفعوا كل من بها إلى الطرق المؤدية إلى الساحة الشرقية التي عُرفت دوما أنها لذبح فقير يوم زيكولا، فانجرف الأماريتي ونادين مع زحام السائرين، وأكملوا سيرهم، وبدأت الطبول تدق من حولهم، وعلت الموسيقي المسيرة بعدما انضم العازفون إليها .

***

كانت الإبتسامة تعلو كافة الوجوه عدا وجهي الأماريتي ونادين، ووجه آخر مُجعد بدا حائرًا لا يفقه شيئًا مما يحدث من حوله، كان

سائرًا مع تيار السائرين بلا هدف، يتفقد الوجوه من حوله ومن خلفه فحسب، كان وجه السيدة الإكتارية المسنة التي التحقت بالمسيرة بعيدًا خلفهما، ثم وصلت المسيرة إلى الساحة الشرقية، ورأت أعينهما منصة كبري قد شُيّدت بقطبها البعيد .

وصار الزحام شديدًا، ولم يكف العازفون عن عزف موسيقاهم، وتراقصت بعض الفتيات مع رفاقهم من الشبان، وقام آخرون بحركات بهلوانية، فقالت نادين حانقة :

- أرض الرقص والبهلوانات ..

وازداد الزحام حتي أصبحت الساحة ممتلئة عن آخرها، وكان النهار قد انتصف أو كاد حين دقّت طبول كبري، كانت دقاتها أعلي صوتًا من طبول العازفين، وأُطلق بوقٌ عالٍ، فتوقف العازفون عن عزفهم، وارتقي المنصة بضع من الفرسان لمعت دروعهم مع آشعة الشمس العمودية، ثم صعد عدد من رجال أغلبهم شِيب الرؤوس، يرتدون عباءات يدرك الجميع أن ثمن الواحدة منها يفدي كثير من الذبح يوم زيكولا، واتخذوا مقاعدَهم بجانب المنصة، فقالت نادين إلى الأماريتي :

- إنهم المجلس الزيكولي الأعلي، هم من وضعوا قانون الخيانة .

وأشارت إلى أوسطهم، وقالت :

- أوسطهم هو كبير القضاة، من أعلن خيانة الطبيبة وخالد ..

فهز الأماريتي رأسه، وأمسك بيدها وتقدّم بها بين الصفوف في إتجاه المنصة، فقالت وهي تتجنب الارتطام بالآخرين :

- ظننتُ أنك لم تحب المجئ إلى هنا ..

فقال:

- أريد أن أسمع ما يقوله حاكمكم ..

واجتازا عددًا من الصفوف، قبل أن يُطلق بوقٌ آخر، فساد الصمت الزحام الشديد، وصعد المنصة حاكم زيكولا، كان وجهه متوردًا، من يراه من بعيد يظن أنه شاب، ليس في الخمسين من عمره، فنهض رجال المجلس الزيكولي، فحياهم وأشار إليهم أن يجلسوا مجددًا، ثم وقف أمام أهل زيكولا، وقال ساخرًا بصوت عالٍ إلى الوجوه التي ترقبت كلماته:

- لم يظهر أي أماريتي بعد .. لقد أصاب جيشنا الملل ..

فهلل السامعون، وحدّث من سمع من لم يسمع، ثم أكمل غاضبًا:

- يبدو أن طيبة بلادنا جعلت الطامعين يظنون أننا ضعفاء مثلهم. لقد آن الأوان لنضرب بيد من حديد علي هؤلاء الطامعين.

هل سمعتم من قبل عن كبري المعارك بهذا العالم ..

أريدكم أن تستعدوا لتقصّوا علي أحفادكم قصصًا كثيرة عن كبري معارك بحر مينجا التي سحقت بها زيكولا بلد ضعيف يسمي أماريتا، قبل أن يقودنا بحاروها الممزقة جلودهم إلى أرضهم لتصبح أرض الذكاء الجديدة.

إنني أعدكم بأن يُوزع ذكاء الأسري عليكم جميعًا.

فصفق رجال المجلس الزيكولي، وهلل السامعون بحماس، بينما نظرت نادين إلى الأماريتي الذي لم تتبدل تعابير وجهه منذ بدأ الحاكم خطابه، ثم فوجئت بمن تجذب ثيابه من الخلف، وتحدّثه بلغة غريبة مشيرة بيدها إلى جانب المنصة الذي يجلس به رجال المجلس ، كانت السيدة الإكتارية، فنظر الأماريتي بعيدًا نحو إتجاه يدها، وحدّق بفارس شاب حليق الشعر، لا يرتدي خوذة مثل باقي الفرسان، كان يقف ثابتًا صارم الوجه خلف من أخبرته نادين أنه كبير القضاة، وظل محدقًا به للحظات، ثم همس إلى نادين، وقال :

- أنظري إلى كبير القضاة ..

فقالت :

- ماذا به ؟

فقال :

- هذا الفارس الشاب الواقف خلفه، من قتل يامن ..

ثم أمسك يدها بقوة خشية أن تُجن مجددًا، وهمس إلى السيدة الغريبة، ثم تراجع إلى الصفوف الخلفية يجرّ بيده نادين، فوجد الجنود يحيطون بقطب الساحة الجنوبي، فأشار إليها أن تهدأ، وانتظرا حتي انتهى الحاكم من خطابه، وبدأ الناس في الإنصراف، فانصرفا بينهم، وعادا متجهمين في طريقهما إلى بيت رفاقهما .

***

خالد

أصابنا قلق كبير حين أخبرتنا مني قبل أن تعود إلى غرفتها أن الأماريتي قد خرج يركض للحاق بنادين التي بكت بهستيرية وخرجت تركض كأنها جُنت، ووصل قلقنا قمته لمّا تأخرت عودة أي منهما لساعات، ثم وجدنا أسيل تخرج من غرفتها تتكأ علي قمر، كانت تسير بصعوبة بالغة، وتطالها متألمةً بين خطوة وأخرى بأن تتوقف عن السير كأن جسدها قد بدأ في تيبسه بعد تلك الرقدة الطويلة، ويحتاج إلى استعادة مرونته مع الوقت، فنهضتُ لأساعدها، فأشارت إليّ كي أبقي مكاني، واكتفت بمساعدة قمر لها، حتي هبطت الدرج، وجلست علي مقعد بجوارنا، وساد صمت ثقيل، ثم غمز إياد بعينه إلى قمر، وصعدا سويا إلى الأعلي، وتركانا بمفردنا، ومرّت لحظات صمت أخرى، ثم نطقتُ هادئًا بجمل متقطعة جالت في رأسي :

- مكنتيش هتقدري تعيشي في عالمنا، وأنا مكنتش هقدر أعيش في زبكولا وأسيب جدي .

وصمتُ قليلًا ثم قلت :

- كنت بجري زي المجنون أدوّر عليكي بعد مانجيت من الدبح ..

وصمتُ برهة ثم تابعتُ :

- مكنش لازم تديني من وحداتك وأنتِ عارفة إنها خيانة .

فالتمعت عيناها بالدموع، فأكملتُ :

- مني كانت السبب إني أنزل سرداب فوريك وأوصل لزيكولا، وأقابلك، هي كمان طيبة وبتحبني جدًا، وأكيد مشتتة زيي دلوقت.

عمري ماتخيلت إن الأمور تسوء للدرجة دي .

ثم سكتُ .. لم أعد أجد من الكلمات ما أنطق به، كان يعتريني شعور بالخجل يضطرب معه داخلي اضطرابًا شديدًا، لا أستطيع أن أتجاهل حب مني لي، ولا أسيل التي أحبتني فأضرها حبها لي وعصف بحياتها كاملة ليجتاحني شعور لم يفارقني منذ دلفتُ إلى زيكولا ووجدتُها راقدة، أنني لم أكن سوى نذلًا كبيرًا، فقالت بصوت متعب تخنقه الدموع :

- كنتُ في سجن بيجانا، وهربتُ بين فقرائها إلى أماريتا بحثًا عن فرصة قد تلوح للعودة مجددًا إلى زيكولا من أجل هدف واحد، أن أعبر سرداب فوريك إلى بلدك، لأصل إليك وأكمل حياتي معك ..

وعضّت شفتها بمرارة.

وأكملت : .

- تقوّس ظهري من حمل الصخور في أماريتا لكني تحاملتُ حين رأيتُ طيفكَ أمامي يساندني .

وابتلعت ريقها، وتابعت :

- كان السمين يسبّني، فكنتُ أقول في نفسي .. من أجلك يا خالد .

وهربت دموعها إلى خدّيها :

- كان جسدي الضعيف يعاند كل عناء، ويتحمل كل شئ من أجل فرصة أصل بها إليك مجددًا .

ثم صمتت لوقت طويل كأنها تتذكر ما حدث لها أشهرها الماضية، ثم مسحت دموعها بأصابعها ولكنها مالبثت أن تساقطت حين قالت :

- لم أندم لحظة واحدة لأنني ساعدتك يومها ..

فقلتُ:

- الأمارتي يحبك كثيرًا .

فرمقتني بطرف عينها ولم تنبس بكلمة مجددًا، ثم دلف إلينا الأمارتي ومعه نادين بعد وقت قليل، وهبط إياد وقمر من الأعلي، لم تكن نادين بذلك الجنون الذي تحدّثت عنه مني، وبدا أنها هدأت خلال تلك الساعات بالخارج، فتساءل إياد متعجبًا :

- أين كنتم طوال تلك الساعات ؟!

فقالت نادين :

- أجبرنا الجنود علي حضور خطاب الحاكم .

فضرب رأسه كأنه قد نسي أمر ذلك الخطاب، ثم نظر الأمارتي إلى أسيل فنظرت إليه في عينه، ثم قال :

- علينا أن نغادر جميعًا الليلة، سنخيِّم بصحراء زيكولا حتي يعود جيشها إلى أسوارها ..

فقلت بلهجة زيكولية :

- لم التعجّل ؟ ماذا حدث ؟

فقال :

- يبدو أن هناك ثمة أمر عظيم لا نفهمه .. لقد كنت محقًا، إن زيكولا تنتقم من أصدقائك .

فنظرنا إليه جميعًا مشدوهين، وتابع :

- لقد رأيتُ اليوم قائد الجنود الذي قتل يامن بوادي التلال الصغري، أخبرتني نادين أنه حارس كبير قضاة زيكولا الذي أعلن خيانتكما يوم زيكولا الماضي ..

فانطبع القلق علي وجوهنا جميعًا، ثم أكمل :

- في الوقت ذاته أخبرتني المرأة الإكتارية أن هذا الحارس من كان يقود علي جواده رتل العربات الخشبية المُحملة بفقراء إكتارا العرايا إلى زيكولا، يبدو أن الأمر لم يكن مجرد خيانة لحفر نفق عبر سور زيكولا، إنه أمر خفي تزداد خطورته مع كل لحظة تمكثون بها في زيكولا .

ثم نظر إلى أسيل، وقال بكبرياء ملك :

- لقد أقسمتُ علي نجدتك أيتها الطبيبة، لم أنس للحظة واحدة نظرتك الأخيرة إليّ قبل إغماءتك، وسأظل أحافظ علي قسمي هذا.

كان يتحدث إلى أسيل كأنه تيقن أنها لم تبادله الحب، وأكمل إلينا :

- لقد أحببتكم جميعًا، ولا أريد إلا أمانكم، سأرحل الليلة، وسأطلق السهام المضيئة ليتوقف جيشي عن عبور الريكاتا، طالما أنتم آمنين معي .

فقال إياد :

- أنا لن أرحل ..

وقالت نادين :

- وأنا كذلك ..

فنظرت إلىّ مني التي هبطت إلينا مع آخر الحديث، ونظر إلىّ الأماريتي في انتظار حديثي، فصمتُ قليلًا ثم قلت :

- إن غادرتُ لا أستبعد أن تصدر زيكولا قانونًا آخرًا ينتقم منا، أو تعلننا خائنين مرة أخرى يوم زيكولا القادم فيقتصون مجددًا من وحداتنا، كذلك لن أصير نذلًا وأهرب مجددًا .

ونظرتُ إلى أسيل، ثم تابعتُ:

- أخبرني جدي أن هذا البلد قدر عائلتي، لقد كان محقًا، لقد مات يامن بسببي، علي أن أعلم لماذا قُتل، بعدها سأبحث عن مخرج للعودة إلى بلدي مرة أخرى، عذرًا سيدي .. سأبقى .

فقال لي :

- أنك مُدان بالخيانة، لن تستطيع العيش هنا، لن تكسب وحدات ذكاء لتعيش بها .

فنطقت منى بلهجتنا فجأة مقاطعة حديثه :

- عشان كدة أنا جيت معاه، نقدر ناكل ونشرب من وحداتي .

فنظرتُ إليها، فابتسمت وغمزت لي بعينها تطمئنني، فأومأ الأماريتي برأسه متعجبًا، لكننا صعقنا جميعًا حين قالت أسيل :

- وأنا أيضًا لن أرحل سيدي، لن أهرب من زيكولا مجددًا، أعلم أنك فعلت الكثير من أجلي، لكن كما قال خالد .. هي قدرنا .

ثم أكملت إليه :

- أعرف هذا القاضي، لم أحبه يومًا، ولطالما كرهني، لن يتركني وشأني إن علم أنني قد نجوت، عليّ أن أفهم لماذا يحدث لنا كل هذا .

فسألها :

- وكيف تعيشين ؟!

ففوجئنا بقمر تقول :

- إنني أدين بالكثير للطبيبة، لطالما اعتدتُ أكل الخبز في بيجانا، وسيكون شرفٌ لي أن تقاسمني سيدتي خبزي ..

فهزَ الأماريتي رأسه، وقال هادئًا :

- سيمسكون بكم، وستموتون جميعًا .

فسكتنا .. وسكت هو الآخر، ومرّت ساعة أخرى كانت الشمس قد اقتربت حينها من المغيب، فقال :

- لم يعد لي حاجة للبقاء في زيكولا ..

ثم وجدناه يودعنا، قائلًا :

- سأرحل إلى صحراء زيكولا في انتظار أن يعود جيشها إلى سورها بعد انتهاء الحرب ..

ثم نظر إلى قمر:

- اعتني جيدًا بسيدتك، إنكِ حرة مثل باقي فقراء بلدك .

فسألته أسيل متعجبة :

- هل فعلتها ؟!

قال :

- نعم، لقد تركتُ مرسومًا قبل رحيلنا بإلغاء كافة قوانين اتفاقية البشر مقابل الديون، وترك الحرية لهم أن يغادروا إن شاءوا ..

ثم ابتسم، وقال بصوت هادئ:

- كانت مفاجأتي لكِ حين نعود إلى أماريتا.

فنهضت أسيل بصعوبة، واحتضنته، وهمست إليه بكلمات لم أسمعها.. بعدها احتضنني وودعني، وهمس إلي:

- إنها لاتزال تحبك.

فابتسمتُ إليه ثم غادر البيت، وأعدّ عربته سريعًا، وانطلق بها في طريقه مغادرًا زيكولا مع غروب الشمس، وساد الصمت بيننا بعد رحيله، كنا نجلس بردهة البيت السفلية مجتمعين دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة، واشتعل ضجيج عقلي، يحاول أن يربط الأحداث المتتالية، هذا القانون الذي خرج فجأة معلنًا خيانة أسيل وخيانتي، هدفه الأساسي كان قتلنا ذلك اليوم، لولا أن لعنته لم تعبر سرداب فوريك فنجوتُ، ولم يتوقعوا أن تكون أسيل قد أصابت قلب ملك بلد كبير مثل أماريتا فساعدها بكل مايملك حتي نجت، ومقتل يامن رغم حمله وشم الجُند، هي خيانة في حد ذاتها، قام بها حارس من أصدر قانون الخيانة لموتنا، وهذه السيدة التي أرسلها القدر لنا لتحدّثنا عن إتفاق عقدته زيكولا دون أن يعلم أهلها،كان قاتل يامن من يقود عربات الفقراء إلى زيكولا.

وعاد إلى رأسي الهيكلان العظميان الحديثان في سرداب فوريك، دون أن أعلم إن كانا لهما صلة بما يحدث لنا أم لا، ثم قطعت تفكيري قمر حين هبطت إلينا من الأعلي تحمل جراب الأماريتي القماشي، وقالت وهي تفتحه:

- لقد نسي سيدي سهامه المضيئة وقوسها المطلق.

فقال إياد :

- اتركها، لابد أنه سيعود في الحال من أجلها .

لكني مددتُ يدي إلى ورقة مُصفرة كانت بين السهام، رُسم بها مخططًا من خطوط رفيعة متعرجة، وكُتب عليها بعض الكلمات، بينها وادي بيجانا أسفل دائرة صغيرة مُظللة، فقلتُ هادئًا :

- لن يعود، إنه لم ينسها، لقد تركها قاصدًا .

وأكملتُ بعدما نظروا إلي :

- لقد ترك لنا خيار الإنتقام من زيكولا .

***

(٣٠)

مسارٌ ثعباني

كان الوقت وقت الشفق حين انطلقت عربة الأماريتي في طريقها إلى خارج زيكولا، يجرّها حصانها نحو باب المدينة ركضًا دون توجيه كأنه أراد أن يغادر هذا البلد هو الآخر، ومتي عبرت العربة باب زيكولا حتي أخرج الأماريتي زفيره ولعنها في نفسه، وأكمل طريقه بالطريق الترابي الممتد أمامها في إتجاهه إلى الهضبة العليا التي خيّم بها مع أسيل وقمر وحارسيه قبل دلوفه للمرة الأولى إلى زيكولا، ليبيت بها ليلته، علي أن يكمل طريقه مع شروق الشمس إلى وادي بيجانا الصخري، أقرب الوديان الضيقة إلى بحر مينجا .

ثم حلّ الليل فأشعل مصباحه، وترجّل، وأمسك بلجام حصانه، وسحبه سائرًا نحو أعلي الهضبة تندفع الأرض من أسفله إلى أعلي، حتي وصل إلى وجهته، فأوقف حصانه وفكّ سرجه وعقله بمؤخرة العربة، ثم تقدم خطوات ووقف علي حافة الهضبة ينظر إلى زيكولا التي اشتعلت أنوارها لتضيئها وسط ظلام الليل، وهام في تفكيره .

***

في الوقت ذاته كان خالد ورفاقه مازالوا يجلسون أمام سهام الأماريتي صامتين، تعلو وجوهم الحيرة والقلق، ينظرون جميعًا إلى خالد الذي أمسك بأحد السهام متفحصًا له، كانت تلك السهام أكثر

طولًا من سهام رماة الحروب، وأثقل وزنًا، صُنعت من معدن مصقول تدلي من باطن نهايته القريبة فتيلٌ قطني رفيع، وثُبت أسفل نهايته البعيدة المدببة خزانًا زجاجيًا صغيرًا داخله سائل شفاف لم يعلم أحدهم ماهيته، ثم أخرج قوسه المطلق وتفحصه، لم يكن يختلف كثيرًا عن أقواس الرماة لكنه كان أكبر حجمًا، ثم أعاد السهم والقوس إلى الجراب القماشي، والتفت إليهم في انتظار حديثهم، فقال إياد ناظرًا إلى جراب السهام :

- هل لديك خطة واضحة ؟

فهز إليه رأسه نافيًا، فسكتوا جميعًا، ثم نطق خالد :

- أحاول أن أربط الأحداث برأسي ..

لكن يبقي اللغز في كبير القضاة، وحارسه ..

وأحضرت مني شرابًا ساخنًا، وقدّمته إليهم جميعًا، وحين اقتربت من أسيل نظرت في عينها مباشرة، ثم تابع خالد :

- وفق كتابي القديم، لسنا خائنين إن وجدوا أن عودتي إلى بلادي هدفًا نبيلًا، ووفق كبير القضاة، الموت في انتظارنا ..

قال إياد :

- لن نستطيع الإقتراب من كبير القضاة، لطالما أحاطه الكثير من الحراس ..

فأخرج خالد زفيره، وقال :

- أرى أن نرحل إلى المنطقة الغربية، يكمن اللغز وراء النفق، إن اقتربنا منه اقتربنا من حل هذا اللغز..

قال إياد :

- سأبقي هنا .

وقالت نادين:

- وأنا كذلك .

بينما قالت أسيل :

- سآتي معك يا خالد .

ثم تساءلت :

- لكن ماذا عن السهام ؟

فأجابها :

- لا أستطيع مغادرة باب زيكولا، و أنتِ كذلك، ومنى لا تستطيع امتطاء حصان ..

ثم نظر إلى نادين وإياد، وأكمل :

- ستبقي السهام علي الطاولة، متي أردتما أن تطلقاها لن يمنعكما أحد ..

فنظرا إليه يعلو وجههما قلق جليّ وصمتا، ثم قال إياد بعد برهة :

- لن أطلقها ..

فحرك خالد عينه إلى نادين، فقالت :

- تعلم ماذا سأقول .. لن أفعلها .

فساد الصمت من جديد .

كان الأماريتي راقدًا علي حافة الهضبة مغمضًا عينيه حين أشرقت الشمس ولفح لهيبها وجهه، فنهض واقترب من عربته، وسكب بعض الماء من قربته علي رأسه ووجهه، ثم أعد عربته ليبدأ طريقه إلى وادي بيجانا، ودلف بها هابطًا طريقها المائل، وعاد إلى طريق زيكولا الرملي، وحيى تجارًا أشاروا إليه بالتحية كانوا في طريقهم إلى المدينة، وداربخلده حين دلف إلى زيكولا ومعه أسيل داخل صندوق الذهب .. فابتسم ثم أبصرت عينه صندوق عربة يغازل به شاب فتاته فتضحك مغلقة عينيها، فتذكر ضحكات أسيل بمكتبة قصره حين كانت تصرّ علي رأيها وتقنعه، فيلقي بكتابه مستسلمًا إلى نيران مدفأته .

ثم صار الطريق خاويًا من العربات القريبة، فانحرف بعربته بإتجاه الشمال نحو طريق جبلي مكسّر تتناثر الأعشاب الجافة بأرضيته الصخرية . وسارت به العربة التي كانت تهتز اهتزازًا شديدًا قرابة الساعة، قبل أن ينحرف إلى وادٍ رملي تحيطه التلال من الجانبين، بدا طريقًا مهجورًا لم يزره أحد من قبل، فهز لجام حصانه كي يهم في سيره، وعادت إلى رأسه كلماته حين قال لمجلسه : سأحتل زيكولا من أجل أسيل .

اليوم أصبح قرار حربه في يد أسيل وأصدقائها، ومضي قليل من الوقت، وانتصفت الشمس بالسماء، ولم يشغله عن شروده شئ، ثم أوقف حصانه حين وقع بصره علي شئ منغمس بين رمال الطريق، لمع مع أشعة الشمس العمودية، فترجل واقترب منه والتقطه، ونفض عنه الرمال، كان نعلًا باليا ممزق السيور، تتفرع سيوره الجلدية إلى جانبيه من حلقة معدنية صغيرة مصقولة نُقشت عليها رموز إكتارية صغيرة، فعاد بذاكرته إلى قدم السيدة الإكتارية التي كانت ترتدي نعلًا يشبه هذا النعل، وهمس إلى نفسه :

- كان أحدهم يثق بأمه كثيرًا .

ونظر أمامه فوجد بجواره تبة تعلو الأرض قليلًا صعدها، فوجد ممرًا ضيقًا وراءها، بين تبتّين آخرتين، فخطا نحوه بضع أقدام، وانقبض صدره حين انتهى الممر فجأة، وكاد يسقط بمنخفض دائري واسع عميق، جدرانه العميقة عمودية ليست مائلة، يصل عمقه إلى أكثر من مائة قدم، وقطره قد يبلغ ثلاثين قدمًا، كأنه بئر ضخم جف ماؤه، يحيطه الجبال من جانبيه، فقال في نفسه :

- مُحال أن تمر العربات خلاله ..

ثم أبصر بقاعه بعيدًا مايشبه جمجمة حصان، فنظر إلى الجانب الآخر من المنخفض وقال :

- إلا لو ثُبتت ألواح كبري علي حوافه لعبور العربات، أخطأها هذا المسكين .

ثم وقع بصره عن يمينه علي حافة صخرية غير مستوية تلتصق بجبل عمودي تمرر بالكاد شخصًا واحدًا لو فلتت قدمه عن موضعها لسقط إلى الهاوية، فنظر إلى النعل بيده ثم ألقاه بعيدًا بقاع المنخفض، وقال :

- لم يعد لي شأن ..

ثم عاد إلى عربته، وأكمل طريقه إلى وادي بيجانا، وسارت العربة به لعشرات من الأمتار، قبل أن تعود السيدة الإكتارية وعينيها الباكيتين إلى رأسه، فهز رأسه علّها تفارق تفكيره، وصاح بحصانه أن يسرع، فجال بذهنه هتاف الآلاف من شعبه المحتشدين بساحة قصره يهتفون باسمه حين طلّ عليهم من شرفه قصره، ثم دق قلبه حين وجد جميع شعبه المحتشدين قد صارت ثيابهم معاطفًا سوداء بالية،

وصارت وجوههم آلافًا من وجه السيدة المجعد ذي العينين الزرقاوتين العميقتين، يتطلعون إليه وهو يقف بشرفة قصره والدموع تسيل علي وجوههم حتي ابتلت أرضية الساحة من أسفلهم، ويشيرون جميعًا بثلاثة من أصابعهم، ويضربون بأياديهم الأخرى علي صدورهم، لتحدث ضرباتهم صوتًا منتظمًا عاليًا كان يدق أعلي من صوت الطبول الكبري، كانت بينهم امرأة واحدة مختلف وجهها، ترتدي مثلهم معطفًا أسودًا باليا، وتضرب بيدها هي الأخرى علي صدرها، كانت أسيل، لم تكن تبتسم كعادتها، بل كانت شاحبة تسيل دموعها مثل باقي الوجوه، فأوقف عربته، ونظر إلى الفراغ أمامه للحظات، وملأ صدره بالهواء وزفره، ثم ترجّل، وحلّ حصانه عن عربته، وامتطاه، وصاح به لينطلق عائدًا نحو ذلك الممر الذي عبره قبل وقت قليل .

***

حين اقترب من المنخفض الصخري مجددًا هبط عن حصانه، وأمسك بلجامه، وسار بحذر إلى حافته الصخرية، كان عرضها غير منتظم لايتجاوز قدمًا واحدة، ونظر إلى أسفلها فابتلع ريقه ..

ثم خلع قميصه وعصب به عيني جواده، وهمس إلى أذنه بعدما مرّر يده علي رقبته برفق، ثم أمسك بلجامه ومدّ قدمه إلى حافة المنخفض، ولاصق بظهره الجبل العمودي، وتحرك خطوة واحدة، ثم جرّ حصانه برفق فتحرك الحصان من خلفه، ثم سار خطوة أخرى حابسًا أنفاسه دون أن ينظر أسفله، تمسك يده اليمنى نتوءات صخرية حادة بالجبل الملاصق لظهره أو جذورًا ضعيفة لأعشاب نبتت بين شقوق صخوره، وتمسك يسراه بلجام حصانه، يتحدث إلى حصانه كأنه بشري، يدرك أن خوف حصانه سيلقي بهما إلى الهاوية، وتحرك خطوة أخرى ثم أخرى، ثم توقف للحظات وحرك يده إلى رقبة حصانه وربت عليها برفق

دون أن يفلت لجامه، ثم كاد قلبه يتوقف حين أفلتت قدمه فجأة، قبل أن يتمالك نفسه، ويستعيد اتزانه مجددًا، فأغمض عينه يلتقط أنفاسه المتسارعة، فعادت إلى رأسه ألوف الوجوه المجعدة للمرأة الإكتارية بساحة قصره التي صارت أكثر عمقًا مثل المنخفض الصخري وقد توقفوا عن البكاء، ونظروا إليه صامتين في ترقب، قبل أن تهتف أسيل من بينهم باسمه، فهتفوا جميعًا من خلفها وعلت أصواتهم عنان السماء، ففتح عينه وخطا خطوة أخرى ثم أخرى ثم أخرى يجر حصانه من خلفه، حتي دنا من نهاية الحافة، وخطا خطوتين آخرتين ليمد قدمه إلى الجانب الآخر، وعبر حصانه من خلفه، فجثا علي ركبتيه لاهثًا، وقد شُخج ظهره من حدة الصخور.. وأزال قميصه عن عيني حصانه الذي صهل صهيلًا عاليًا، فاحتضن الأمارنتي رأسه غير مصدق بأنه قد فعلها، ثم عقد قميصه حول خصره وهو ينظر إلى الأفق أمامه، كان سهلًا منبسطًا من الرمال يتجه إلى أسفل، فامتطي جواده، وسار به مشيًا في إتجاه جبال شاهقة كانت ترقد متلاصقة في جميع الإتجاهات، تحيط حواف السهل جميعها عدا الجانب القابع به المنخفض الصخري، فسار بجواده موازيًا لها، يبحث عن طريق بينها، حتي وجد وجهته بعدما أبصر طريقًا ضيقًا بين جبلين شاهقين، بالكاد يمرر عربة خشبية واحدة فصاح بجواده، فانطلق إلى داخله .

***

كان الطريق يتوسط جبلين شاهقين انتصبت حافتهما بالأسفل عموديتين غير مائلتين، بينما اقتربتا بالأعلي كلما ارتفعا، حتي صارتا كأنهما متلاصقتين عند قمتيهما، كأنه جبل واحد شُق من منتصفه ليمتد هذا الطريق .

وانحرف الأماريتي بعد أمتار من ركض حصانه بداخله. فاختفي مدخله من خلفه، وخفَّف من سرعة جواده حين بدأ الطريق في التعرج والانحراف بشدة، وبات في تعرجه يشبه مسار الثعبان. وبين حين وآخر كان الأماريتي ينظر إلى السماء عبر الفُرجة العالية الضيقة بين قمتي الجبلين، لو أسقط أحدهم صخرة من أعلي لقتلته. ثم أوقف حصانه حين وجد جمجمة شخص تظهر منغمسة برمال علي جانب الطريق، وأدرك أن بقية عظام ذلك الميت تقبع بجوارها أسفل الرمال بعدما لمح عظمة أخرى منغمسة بجوارها. فجال بخاطره عربة كبري مزدحمة بعشرات من العرايا، مات أحدهم فتوقفت جياد العربة ليُلقي به علي جانب الطريق، ثم أكملت العربات سيرها دون اكتراث. حتي أن عربة أخرى دهست جثته فضحك قائدها مقهقهًا وسط نظرات خائفة من أطفال مُكبلين الأعناق داخل أقفاص العربات تنظر أعينهم مرتعدة إلى هذا القتيل الذين عرفوه بينهم يومًا ما .

ومضي وقت طويل دون أن يجد لهذا الطريق نهاية. ونظر إلى السماء فعلم أن الشمس في طريقها إلى الغروب فأسرع من سرعة جواده، ثم اصطبغت السماء بحُمرة الشفق حين أبصرت عيناه فُرجة بين الجبلين أدرك أنها نهاية هذا الطريق، فانطلق الجواد نحوها، وما إن عبرها حتي أوقف حصانه فجأة حين وجد أمامه سهلًا رمليًا آخر يمتد باستواء إلى سور شاهق اصطبغت صخوره الضخمة هي الأخرى بحمرة الشفق، لم يكن إلا سور زيكولا ..

***

(٣١)

بابٌ آخر

ترجّل الأماريتي عن جواده، ونظر بعيدًا إلى السور الشاهق أمامه، كانت الجبال تجاوره عن يمينه وعن يساره، لا تسمح بمرور عربات أو جياد، عدا تلك الساحة المنبسطة من السهل الرملي الممتد من الطريق الثعباني الذي قطعه بين الجبلين، ثم توارى بجسده حين لمح جنديًا يظهر ضئيلًا أعلى السور الشاهق ..

وانسدل ظلام الليل فترك جواده نائمًا موضعه، وجلس مسندًا ظهره مثنيًا ركبتيه يحملق بالسور أمامه والذي بدا مانعًا هائلًا من السواد أسفل ضوء القمر الذي كان أحدبًا، ثم مرت غيامة خفَت معها نور القمر، فنهض مسرعًا وركض مثنيًا جذعه تجاه السور، وحين اقترب منه لاصقه، وتحسس صخوره، تبحث يده عن باب لم تره عيناه، لكنها كانت جميعها صخرية لم يختلف ملمس إحداها عن الأخرى، فعاد ركضًا إلى موضعه حين خفَت ضوء القمر مع غيامة أخرى، وجلس موضعه مواريًا جسده بمخرج الطريق الثعباني، وواصل حملقته بالسور المظلم دون أن يغمض له جفن، ولأن ضوء القمر لم يصل إلى الطريق الثعباني المتعرج وبات ظلامه حالكًا عزم علي أن يبيت ليلته علي أن يعود أدراجه مع الفجر .

ثم غلبه النعاس مع منتصف الليل، لم يفتح عينيه إلا مع بزوغ النهار حين سمع صهيل جواده فتلفت بجانبه فلم يجده راقدًا موضعه كما تركه ليلًا، فتلفت بعيدًا بعين نصف مُفرجة فوجده يتمشي ببطء يأكل من أعشاب نبتت بالقرب من سور زيكولا، فوثب من رقدته، ونظر إلى الجندي الواقف بالأعلي، وكاد يركض إلى حصانه ليعود به ففوجئ بجندي آخر يظهر أمام حصانه ويقترب منه ببطء ثم انقض عليه وأمسك بلجامه، وصاح إلى الجندي بالأعلي فرحًا :

- سنتقاسم ثمنه من الوحدات ..

ثم امتطاه هابطًا إلى داخل الأرض عبر باب أرضي مائل كبير، أُغلق بعدما اختفيا بداخله مُحدثًا صريرًا سمعه الأماريتي، فهمس إلى نفسه :

- جندي واحد قد يغيّر مسار حرب كاملة .. المجد لطمع أهل زيكولا الأغبياء ..

ثم عاد بظهره خطوات إلى داخل الطريق الثعباني، قبل أن يلتف ويركض بأقصي سرعته في إتجاه المنخفض الصخري .

***

كان الضباب كثيفًا حين أشرقت الشمس لترسل آشعتها فوق ساحل بحر مينجا، وأعلى قمة عالية وقف جندي زيكولي نحيف جاحظ العينين ين مجموعة من الجنود اعتلي كل منهم قمة جبل من جبال الشاطئ التي ابتعدت عن ساحل مينجا الشمالي عشرات من الأمتار اصطف بها جنود زيكولا مزدحمين خلف متاريسهم الأمامية وأمام مجانيقهم التي تناثرت متوازية يفصلها أمتار قليلة، قبل أن ينقشع الضباب رويدًا رويدًا ليتقلص وجه الجندي فجأة، ويزداد

جحوظ عينيه غير مصدق مايراه، وفرك عينه المحمرة وعاد لينظر بعيدًا، ثم صاح إلى جندي من خلفه ذاهلًا: أنظر..

فاقترب صاحبه من الحافة، وابتلع ريقه خوفًا واضطرب وجهه حين وجد لون مياه بحر مينجا الزرقاء بعيدًا قد تحولت إلى لون أسود لامع، كان يقترب ببطء في إتجاه الشاطئ علي امتداد عرضه.

لم يكن ذلك السواد إلا الأسطول الأماريتي الذي تجاوزت أعداده ألفي سفينة، اصطفت جميعها في عشرات الصفوف لتبحر في إتجاه الشمال، تحمل كل سفينة مائة وخمسين من الجنود بأسلحتهم ودروعهم، تتقدمهم سفينة القائد جرير الذي وقف بخوذته ثابتًا بمقدمتها، وتحمل سفن الصفوف الوسطي مئات من الجياد مع عشرات الجنود، وفي الصفوف الخلفية اصطفت سفن كبرى يتوسط سطحها أبراج حديدية شاهقة بلغ ارتفاع قوائمها خمسة عشر من الأمتار، كانت مجانيق أماريتا التي يبلغ ارتفاعها مرة ونصف مثل ارتفاع مجانيق زيكولا، واصطف خلف كل منجنيق طاقمه المكوّن من ثلاثين جنديًا جميعهم طوال القامة وأقوياء البنية.

وعلي متن سفينة بالصفوف الأمامية صاح صبي داكن البشرة تسلق الصاري بساقين نحيفتين إلى الجنود المصطفين بدروعهم وخوذهم ورمحهم أسفله علي سطح السفينة:

- الشاااطئ

فصاحوا في حماس، وضربوا برماحهم دروعهم، وواصل تحديقه فرحًا إلى جبال شاطئ مينجا الشمالي التي ظهرت مع زوال الضباب. لم يكن إلا الفتي مضحك الذي تشبث بأعلي الصاري منذ عبور السفن هضاب الريكاتا من أجل مهمة واحدة كُلف بها مع آخرين اعتلوا صوار سفنهم، كانت ترقّب السهام المضيئة بالسماء.

وفي الطريق الثعباني الضيق كان الأماريتي يواصل ركضه، قبل أن يتوقف ليلتقط أنفاسه للحظات نظر معها إلى السماء عبر الفُرجة بين قمتي الجبلين، ثم أكمل ركضه مجددًا في اتجاه المنخفض الصخري ..

***

وكان الوقت وقت الضحى، حين وقف قائد أربعيني أعلي قمة جبلية علي شاطئ مينجا ينظر إلى سفن 'الأسطول الأماريتي التي اقتربت إلى بُعد مئات الأمتار من الشاطئ وتوقفت. وأحمرّ وجهه وكأنه لم يتوقع أن تأتي أماريتا بهذا العدد من السفن، ودار بخلده إن حُمّلت السفينة الواحدة بمائة جندي، لم يكن جيشه ليمس ربع هذا العدد، ثم صاح إلى فارس بجواره بأن تطلق المجانيق كراتها الزيتية الحارقة، ولم تمر لحظات بعد أمره إلا وانطلقت بالسماء علي امتداد الشاطئ كرات اللهب المتتالية لترتفع عاليًا في إتجاه الأسطول الأماريتي لكنها سقطت جميعًا بالمياه قبل أن تصل إلى السفن الأماريتية، أمام أعين القائد جرير الذي وقف بموضعه متجهمًا، ثم أشار إلى قائد آخر يكبره سنًا كان يقف بجواره، دون أن ينطق .

ولم يلبث أن أطلق بوقٌ عالٍ، فأُلقيت المجاديف الطويلة إلى المياه، وشرع البحارة في تجديفهم، فابتعدت السفن الأمامية المتجاورة عن بعضها ليزيد عرض الأسطول اتساعًا، ثم شقّت السفن الكبري المُحملة بالمجانيق طريقها بين السفن إلى الصفوف الأمامية، واصطفت متوازية، قبل أن يصيح قائد أوسطها إلى طاقمه، فانطلقت أولى الكرات، تبعتها عشرات الكرات من السفينة ذاتها ومن السفن الأخرى لتشقّ السماء في اتجاه شاطئ أماريتا .

كانت كرات معدنية ضخمة، قُطر الواحدة منها أربعة أقدام، حُمّلت بزيت يشبه زيت السهام المضيئة، ما إن يطلق المنجنيق إحداها حتي

تتحول في السماء إلى كرة من اللهب الحارق تجتاح من يقف بطريقها، وتساقطت جميعها علي صفوف الجيش الزيكولي المتزاحمين فأحرقت تجمعاتهم، وسقط بعضها علي العربات الخلفية المُحملة بكرات لهب المجانيق الزيكولية، فأحدثت انفجارًا هائلًا، تشتت معه الجُند خائفين تحت أعين قائدهم الذي قال لمن يجواره ببرود :

- يمتلكون مجانيق أطول مدى من مجانيقنا .. عُد بالصفوف إلى الوديان، حرب مكشوفة الآن لا تعني إلا هلاك جيشنا بأكمله قبل غروب الشمس .

***

مضي وقت قليل بعد انتصاف الشمس بالسماء، كان الأمارتي قد اقترب من نهاية الطريق الثعباني، ثم صعد السهل الرملي متعبًا إلى المنخفض الصخري، والتقط أنفاسه قبل أن يمدّ قدمه إلى حافته الملاصقة للجبل العمودي المجاور، وخطا خطوة وراء أخرى بحذر، يلاصق بظهره صخور الجبل من خلفه كما فعل في ذهابه، كان يظن أنها ستكون أكثر سهولة بدون حصانه، لكنه لم يكن يعلم أن جزء من منتصف الحافة قد انهار مع مرور جواده، فبات ذلك الجزء أقل بروزًا، وتوقف مكانه حين مدّ قدمه إليه وكاد يفلتها، فعاد بقدمه مجددًا، ونظر إلى الفراغ العميق أسفله، ثم رفع عينيه ومد قدمه عن آخرها مرة أخرى، واتكأ بها علي أطراف أصابعها، وأمسك بيده نتوءا صخريًا حادًا برز بين صخور الجبل، ثم خطا بقدمه الأخرى فلامس بطرفها الحافة دون أن يفلتها، فتنفس الصعداء، ثم أكمل خطواته بحذر، قبل أن يصل إلى جانب المنحدر الآخر، ويعبر التبة التي وجد بجوارها النعل اللامع، ثم أبصر صخورًا بيضاء قبعت بجانب الطريق، كانت الواحدة

في حجم طفل في الخامسة من عمره، فحمل سبعة منها، صخرة واحدة كل مرة، وصفَها في شكل هرمي أعلي التبّة .

ثم واصل ركضه عبر وادي التلال الذي قطعه يومه السابق، وغربت الشمس حين دلف إلى الطرق المكسّر فانزلقت قدمه وتقلص وجهه من الألم، ثم نهض وأكمل طريقه تعرج قدماه، لايفكر رأسه بشئ سوى الوصول إلى خالد وأسيل، ومرت ساعات قليلة أخرى بعد حلول الليل حين وصل إلى الطريق الرملي الممتد إلى زيكولا فأكمل ركضه نحو المدينة ثم سقط مجددًا ونهض، فسمع من يناديه قائلًا:

- إنني ذاهب إلى زيكولا .

- كم تدفع من الذكاء ؟

فنظر خلفه فوجد رجلًا مسنًا يقود عربة خشبية ذات صندوق يتكوم به ثلاث رجال وامرأتان، ومُثبت بجانب العربة شعلة أظهرت ملامحهم، وتابع المسن :

- خمس وحدات أو تكمل طريقك سيرًا ..

فأومأ الأماريتي إليه برأسه متعبًا، ثم قفز إلى صندوق العربة، وجلس بين الرجال الذين أفسحوا له مكانًا ضيقًا، ونظر إلى السماء التي امتلأت بالنجوم، ثم قال المسن ضاحكًا :

- إنك محظوظ، لم نكن لنعود إلى زيكولا في هذا الوقت لولا قيام الحرب ..

فسأله ذاهلًا:

- هل قامت الحرب ؟!!

فقال المسن:

- نعم .. لقد وصل الأماريتيون هذا الصباح، قابلتُ رجالًا في طريقي قالوا: لم تكف كرات اللهب عن التحليق منذ الظهيرة.

فنظر الأماريتي إلى سور زيكولا الذي ظهر بالأفق مع اقتراب العربة من بابها دون أن يقول شيئًا، وترك المسن يكمل ثرثرته عن مصير الحرب، ثم عبرت العربة باب زيكولا، فقفز منها وركض إلى بيت خالد ورفقته، وعبر بوابة سوره، فرأته منى التي كانت تقف بشرفة غرفتها بالطابق الأعلي، وقالت لخالد الذي كان يجلس علي مقعد شاردًا بالغرفة:

- لقد عاد الملك!

فنظر إليها، فكررت حديثها:

- لقد عاد الملك تميم بالأسفل ..

فنهض، وهبط إلى الطابق السفلي مسرعًا، وما إن فتح بابه حتي حدّثه الأماريتي بصوت متعب:

- لقد وجدتُ طريق الفقراء إلى أرض زيكولا ..

***

خالد

كان الوقت متأخرًا حين فوجئتُ بمني تقول متعجبة وهي تقف بالشرفة :

- لقد عاد الملك ..

فنظرتُ إليها غير مصدق حديثها، فكررت ما قالته، فهبطتُ مسرعًا إلى الأسفل مُدهشًا من عودته بعدما جالت الأخبار بأن الحرب الكبري قد بدأت علي شاطئ مينجا، وحين فتحتُ الباب صارت دهشتي أضعافًا بعدما وجدتُه مُترب الوجه ممزق الثياب، وحدثني متعبًا :

- لقد وجدتُ طريق الفقراء إلى أرض زيكولا ..

ودلف إلى الردهة تعرج قدماه، ويتألم وجهه قليلًا مع حركته، فأحضرتُ له بعض الماء، ثم سألته : أين ؟

فقال :

- ثمة طريق بعيد، لا أعتقد أن الكثيرين قد ساروا به من قبل ..

ثم سألني عن أسيل فأخبرته أنها نائمة بغرفتها، وكان إياد نائمًا بغرفة سفلية فأيقظتُه وانضم إلينا، ثم هبطت منى، وأكمل حديثه عن ذلك النعل الذي رآه كأن أحد الإكتارين تركه قاصدًا قبل أن يعبر حافة منخفض يبلغ عمقه عشرات الأقدام، ومنه إلى طريق ضيق بين جبلين ينتهي بسهل يجاور سور زيكولا، ثم عما حدث حين اقتاد أحد الجنود

حصانه إلى باب سفلي يبعد أمتارًا عنه، بدا بابًا لنفق يعبر سورها، فسأله إياد الذي كان ينصت مترقبًا لكل حرف يقوله ؛ إن كان يعلم هذا المكان من سور زيكولا الذي يحيط المدينة بأكملها .

فقال :

- وفق النجوم، إنه السور الشمالي .

ثم نزع قميصه متألما، كان ظهره محمرًا مليئًا بخدوش سطحية كثيرة، فتساءل إياد مجددًا :

- هل هناك علامة أخرى غير النجوم ؟

فقال :

- يحيطه الجبال الشاهقة ..

فهز إياد رأسه محبطًا، وقال :

- تحيط الجبال بسور زيكولا بأغلب مناطقه ..

فقال الأماريتي بجدية :

- أن يسلك فرسان زيكولا هذا الطريق الخطر بفقراء إكتارا بعيدًا عن أعين أهل زيكولا لن يكون إلا من أجل شئ عظيم ..

فقلتُ مؤيدًا حديثه :

- نعم، يرتبط هذا الأمر الذي نجهله بمصيرنا .

ثم تمتمتُ هائمًا :

- علينا أن نعبر هذا الباب .

فقال إياد :

- وفق هذا الوصف لن نصل إليه من داخل زيكولا .

وتابع الأماريتي :

- ثمة جندي كان يقف أعلي سور زيكولا، هو من يستطيع فتح هذا الباب الأرضي .

فصمتُّ مفكرًا ثم حدثته :

- أريدك أن ترسم لي هذا الطريق ..

ونهضتُ، وأحضرتُ الورقة بين السهام، فقال ناظرًا إلى جراب السهام :

- ظننتُ أنكم ستطلقونها ..

فسكتنا جميعًا، ثم أحضرت منى قلمًا كانت قد جاءت به من بلادنا بين ملابسها علّها تدوّن شيئًا عن رحلتها، ولم يكن هناك وقت لدهشته من القلم، فبدأ يرسم لي خطًا متعرجًا من باب زيكولا إلى الطريق المتعرج إلى طريق صخري إلى وادي التلال حيث تبّة يقبع فوقها سبعة من الصخور الصغري كان قد صفّها علي شكل هرم .

ثم سمعنا ضجيجًا مفاجئًا بالخارج، فصعدنا إلى أعلي، واتجه إياد مسرعًا إلى شرفة غرفتنا ليري مايحدث، وصعد بيننا الأماريتي الذي توقف أمام باب حجرة أسيل المفتوح، ونظر إليها للحظات وهي نائمة، قبل أن يكمل طريقه ويلحق بنا، ثم همس إلينا إياد بأنه أبصر نادين تدلف بين الزحام إلى البيت، فهبطت إليها مني لتحضرها ثم صعدتا سويًا إلينا، فسألتُها عن ذلك الضجيج بالخارج، فقالت :

- سيُغلق باب زيكولا مع شروق الشمس .

***

(٣٢)

وجوهٌ خائفة

تساءلنا جميعًا إلى نادين في نفس واحد :

- ماذا ؟!

قالت :

- انتشرت الأقاويل أن جيشنا بضخامته لا يمثل شيئًا بجانب أعداد جيش أماريتا .

وأشارت إلى الأماريتي وتابعت :

- يبدو أن السيد كان محقًا حين قال واثقًا أن جيشه باستطاعته هزيمة جيشنا .

ثم أكملت :

- سيعود الجيش طوال ساعات الليل إلى المنطقة الشرقية، سيدافع عن المدينة من وراء سورها، وساد الضجيج بعدما بدأت الأخبار عن ترحيل أهالي المنطقة الشرقية جميعهم إلى المناطق الأخرى بأمر من الحاكم لسلامتهم .. إن الشوارع بالخارج مليئة بالهرج والمرج في هذه الآونة، يتسارع تجار البلدان الأخرى للخروج عبر باب زيكولا قبل عودة مقاتلينا، ما إن يعبر أول الجنود عائدًا

ولن يستطيع أحد المرور خارجه، وسيُغلق عقب اكتمال عبور الجيش .. جئتُ إلى هنا لأحذركم، إن الحراس يدلفون إلى البيوت جميعها من أجل إخراج سكانها للرحيل قبل حلول الصباح، خشيتُ أن يراكم أحد ..

فقال الأماريتي :

- لم أتوقع أبدًا أن يسمح غرورهذا البلد بانسحابها إلى أسوارها ..

كان يبدو علي وجهه التشتت، شعرتُ أن جزءًا منه لا يريد الحرب وجزء آخر يريدها ليلقن زيكولا درسًا عن ظلمها ويسقط خيانتنا أو علي الأقل خيانة أسيل .

ثم أيقظت نادين أسيل وقمر، وحدثتهم سريعًا عما حدث، فدلفت إلينا أسيل والتي دُهشت من عودة الأماريتي، فابتسم حين رآها، وحدّثها عن ذلك الباب الذي وجده، فقالت :

- إذن نحن أمام أمرين بوجود ذلك الباب، إما نكون خائنين لصنعنا نفق أسفل سور زيكولا الغربي ويكون كبير القضاة خائنًا كذلك بعلمه بباب آخر بالسور الشمالي .

وإما يُطبق ذلك النص الذي ذكره كِتاب خالد، لهدف نبيل، وهو عودة خالد إلى بلاده، مثلما سيبرر القاضي خيانته بالنص ذاته إن اكتشف أمربابه، وبهذا لن نكون خائنين علي الأقل بهذه التهمة ..

قال إياد في خيبة أمل :

- لكننا لا نعلم طريقًا من داخل زيكولا إلى الباب ..

قالت وهي تنظر إليَ وإلى إياد وإلى نادين :

- سنبقي في زيكولا، سنبحث عنه ماحيينا. إنه السبيل الآن لنجاتنا من تهمة الخيانة ..

وأكملت :

- والتهمة الأخرى، بتحرركم من خيانتكم أثق أن عقولكم ستجد لي مخرجًا منها ..

فقالت نادَين التي كانت تنظر بعينها عبر شرفة الغرفة :

- علينا أن نغادر هذا البيت، لقد بدأ الحراس في الدلوف إلى بيوت هذا الشارع ..

فنظرتُ إلى أسيل علّها تخبرنا بوجهتنا القادمة، فقالت :

- إلى المنطقة الشمالية .

كنت أعلم انها ستقول ذلك لكني أردتُ أن أسمعها منها حين تذكّر ذهني كلماتها منذ أشهر أنها لا تذهب إلى تلك المنطقة، ووافقنا إياد على ذلك، أما نادين فقالت أنها ستتجه إلى المنطقة الجنوبية، وأخبرتنا عن حانة للمبيت بالمنطقة الشمالية، صاحبها ليس جشعًا كالباقين، وأحضر لي إياد معطفًا ذا غطاء رأس كبير، وقال :

- كنت ارتديه لأختبئ عن أعين الجند، إنك في حاجة إليه الآن ..

وارتدت أسيل معطفًا آخرًا أخرجته قمر من صندوق ثيابها، وغطت رأسها بغطائها، فقالت نادين وهي تنظر إلينا باسمة :

- تجار مثاليون .

***

خرجنا جميعًا إلى شوارع المنطقة الشرقية، كانت المرة الأولى التي أغادر بها ذلك البيت منذ دخولي زيكولا قبل أيام، كانت نادين محقة بأن نغادر قبل دلوف الجند إلى البيوت وأن نتوارى وسط هرج أهل زيكولا المتزاحمين، خاصة أن الحاكم قد أمر بتوفير عربات خشبية تنقل أهل زيكولا بعيدًا عن المنطقة الشرقية دون مقابل، كنا في حاجة إلى كل وحدة ذكاء، كانت أسيل لا تزال تثق بي، وأعلم أن منى تثق بي هي الأخرى وإن لم تنطق بشئ، الآن لم يعد لنا سبيلًا إلا إيجاد ذلك الباب قبل أن يمسكوا بنا أو نُقتل مثلما فعلوا مع يامن ..

كنا نسير بين الزحام تمسك مني بيدي وتمسك قمر بيد إياد، وتتحرك أسيل من خلفنا ببطء يجاورها الأماريتي الذي كان يتحرك متألمًا بعد تورم كاحله، ومن أمامنا سارت نادين، وكنا نتوقف إن توقفت أسيل تعبًا، ثم نكمل طريقنا، كانت المرة الأولى التي ألمح بها الخوف علي وجوه أهل زيكولا، لطالما سمعتُ علي مدي أوقاتي هنا عن قوة الجيش الزيكولي التي وصلت حد الغرور، فاستخدمه الأماريتي سلاحًا له ... لولا هذا الغرور لما فُتح بابها ليدلف بأسيل إلى زيكولا، دهاء ملك واحد هزم كل هؤلاء القادة المتعجرفين الأغبياء .

وتقدمت بنا المسيرة إلى الطريق الرئيسي الممتد من باب زيكولا، كانت العربات الخشبية علي مقربة منه تُحمّل صناديقها الضيقة بعشرات من الرجال والنساء والأطفال قبل أن تنطلق جيادها مبتعدةً عن المنطقة الشرقية، يحمل كل منهم مايستطيع حمله من أثاث بيته، ويحمل بعضهم أجولة ممتلئة عن آخرها، حين أسقطت امرأة جوالها من أعلي العربة وسُكبت محتوياته - كانت ثيابًا - انقض عليها الواقفين لاغتنامها متنازعين حتي مُزقت منهم دون أن يعبؤوا بصراخ السيدة، ولم تتوقف النزاعات عن الإشتعال بجوار العربات، ما إن يجذب أحدهم جوال الآخر فتُسكب محتوياته علي الأرض حتي يدبّ العراك،

ويسرع آخرون لاقتناص ما أسقطته الأجولة وإن كان طعامًا، فيسرعون لنفض التراب عنه والتهامه ..

لم أرَ من قبل خوف وجوه أهل زيكولا مثلما كنت أراه تلك اللحظات أسفل أنوار المشاعل. زيكولا القوية التي تباهي أهلها دومًا بقوتها بات أهلها عند أول اختبار حقيقي وجوهًا ذابلة مصدومة تخشى لحظاتها القادمة. أرض الرقص والاحتفالات لم تعد إلا أرض الخوف. أعلم أنهم يلعنون أسيل في داخلهم منذ تسربت إليهم الأخبار أن الأماريتي قد أشعل هذه الحرب من أجلها، لكنهم قد تجاهلوا عمدًا أنهم من اقتنصوا ذكاءها كاملًا دون أن تضر واحدًا منهم يومًا ..

علي مدار مسيرتنا كانت الأحاديث والإشاعات تتناقل بجوار مسامعنا، من يقول أن بحر مينجا صار لونًا أسودًا بالكامل، وسيسمي قريبًا بالبحر الأسود، ومن يقول أن كرات مجانيق أماريتا تصل إلى الشمس. أدركتُ وقتها أن هزيمة زيكولا صارت مسألة وقت، ثم أوقف تفكيري بوق أُطلق عاليًا، فقالت لي نادين وهي تنظر إلى الأماريتي وقمر:

- الآن حُكم عليهما بالبقاء في زيكولا، لقد عادت طلائع الجيش الزيكولي، لن يُسمح لأحد أن يغادر الباب مجددًا ..

وكنا قد توقفنا بين أهالي زيكولا المتكدسين علي جانب الطريق في انتظار عربات تتجه إلى المنطقة الشمالية بعدما غادرت جميع العربات ممتلئة عن آخرها حين مرت الجماعة الأولى من فرسان زيكولا. كان التجهم والشرود علي وجه قمر باديًا غير أن وجه الأماريتي لم يتبدل، لا أعلم إن كان يثق بأن جيشه سيقتحم هذا السور من أجله أم أنه سعيد لبقائه بجوار أسيل ، كانت نظراته إلى الجنود العابرين ثابتة، شعرتُ أنه يفتخر بقوة جيشه التي أعادت اولئك المغرورين إلى جحرهم

مجددًا، الآن بات الأمر محسومًا، لن يهدأ الجيش الأماريتي حتي يستعيد ملكه الذي يقف بجواري، سيأتون من أجله لا محالة ..

***

لم تأتِ العربات الخشبية المتجهة إلى المنطقة الشمالية مجددًا، وغادرتنا نادين، ولوّحت إلينا بيدها بصعوبة وهي أعلي عربة مزدحمة بالرجال والنساء بدأت طريقها إلى المنطقة الجنوبية، كانت عيناها تلتمع بالدموع لفراقنا، لم تعد الفتاة ذاتها التي قابلتها قبل أشهر بالمنطقة الشمالية ..

ثم اقترب الفجر من البزوغ، وكان الجنود المشاة لايزالون يعبرون إلى داخل زيكولا بعضهم جرحي تفوح رائحة الحريق من ثيابهم حين همس إلى الأماريتي، وأشار بعينه إلى فارس شاب حليق الرأس بجوار عربة خشبية فخمة خرج منها ثري مسن متورد الوجه يرتدي عباءة ثمينة، وقال : .

- كبير القضاة وحارسه ..

كان القاضي علي نفس الجانب الذي نقف به، يتحدث إلى المتزاحمين من حوله يطمئنهم بأن عودة جيشهم ليست إلا لتحقيق نصر حتمي، ويحفزهم واثقًا بألا يخشوا علي جيشهم القوي، وأن يكفّوا عن نقل الإشاعات التي ستعصف بهم، كان حارسه صارم الوجه، يمتطي حصانًا أبيضًا مميزًا عن بقية الجياد التي رأيتها في زيكولا، وكانت عيناه تتقلب بين جميع الوجوه من حوله .

ثم انتهى عبور الجنود المشاة، وكانت المجانيق في طريقها لتعبر سور زيكولا، كان غبارها أمام الباب المفتوح علي مصراعية واضحًا بعيدًا مع

زوال ظلمة الليل، ونظرتُ إلى الأماريتي فرأيته يحدّق بالحارس أيضا، وسألته هامسًا حين خطرت ببالي فكرة مفاجئة :

- لماذا عدت ؟

قال:

- إنني أفي بوعودي ..

ثم شعرتُ أن مافكرتُ به قد جال بخاطره هو الآخر، فسألته مجددًا وأنا أنظر إلى منى وأسيل :

- هل تثق بجيشك ؟

فأومأ لي برأسه إيجابًا، فقلتُ :

- وأنا أثق بك أيها الملك ..

فقال :

- وأنا أيضا، أثق بك ..

فتيقنتُ أنه أدرك حقًا ما أفكر به، ثم تحرك ببطء تجاه كبير القضاة وحارسه، وتحركتُ من خلفه تاركًا مني وأسيل وقمر مجاورين لإياد الذي اندهش من تحركنا المفاجئ سويًا بين الزحام مبتعدين عنهم.

***

(٣٣)

وشم النجوم الخمسة

كان الطريق الداخلي أمام باب زيكولا خاليًا في انتظار دخول المجانيق المجرورة، وتزايد عدد الجنود المصطفين المتشابكين الأيدي علي الجانبين ليمنعوا تجاوز أي من أهل زيكولا إلى الطريق، ومن حاول فعل ذلك لم ينجُ من لكمة قوية أو لسعة سوط من أحد الفرسان الذين ركضوا بخيولهم ذهابًا وإيابًا أمام صفي الجنود، فالتزم الجميع علي الجانبين في انتظار قدوم باقي العربات التي وعدهم بها الحاكم كي تنقلهم بعيدًا عن أرض المعركة المنتظرة ..

وصار الزحام هائلًا خلف الجنود مع مرور الدقائق، وكان كبير القضاة لايزال يتنقل بين المتزاحمين يطمئنهم من حوله، وتعمّق وسطهم فابتعد بضع أقدام عن حارسه الذي ظلّت عيناه تترقب الوجوه من أسفله دونّ أن يدري أن هناك من يتحرك بين الزحام تجاهه هو وسيده، كانا الأماريتي ومن بعده خالد مُغطي رأسه بغطاء معطفه، ثم توقف الأماريتي، ونظر إلى خالد، فنظر إليه هو الآخر من أسفل غطاء رأسه المنسدل علي جبهته، وأومأ له دون أن ينطق، فأكمل الأماريتي طريقه نحو كبير القضاة، ثم تعثرت قدماه فانهال بجسده علي أحد الجنود المصطفين فاعتذر منه، فدفعه الجندي غاضبًا، فواصل الأماريتي تحركه وهو يعتذر، لم يعلم الجندي أن هناك ما سُرق منه، بينما عبر خالد نحو جواد الحارس الحليق أمام أعين إياد الذي وقف

علي أطراف قدمه ليبصرهما، يدرك داخله مدي تهور هذا الثنائي، وأمسك بيد منى يطمئنها حين بحثت عينها الخائفة وسط الزحام عن زوجها الذي تحرك فجأة مبتعدًا عنهم دون أن يقول شئ.

وكان الهرج والمرج يسود الزحام قبل أن يتجاوز خالد أقرب الأشخاص إلى الحارس الذي انتبه إليه فجأة، ومدّ يده نحوه متوجسًا ونزع غطاء رأسه، فكُشف رأس خالد، وظهر وجهه المضطرب ينظر إليه في ترقب، فحدّق به كأنه تذكر تلك الملامح، في اللحظة ذاتها دوّت صرخات مفاجئة لنساء إلتففن حول كبير القضاة، فحرك الحارس بصره سريعًا إلى سيده ليجد الأماريتي قد أحاط رقبته ذات العروق المنتفخة بخنجر علي مرأي من المتزاحمين، فهرول يجذب لجام حصانه ليتحرك نحو سيده لكن خالدًا باغته وجذب طوق صديره المعدني فجأة بقوة ليسقطه من أعلي حصانه، وبلمح البصر كان خالد قد ارتقي الحصان ذاته وقفز به متخطيًا حاجز الجنود المتراصين علي جانب الطريق، وانطلق في طريقه نحو باب زيكولا وسط لحظة ذهول من رجل زيكولي رأي وجهه، ونطق في دهشة : الغريب .

وكان المنجنيق الأول يكاد يعبر باب المدينة حين تجاوز خالد في تهور الحيز الضيق بينهما، ثم عبر المنجنيق فسُدّ الباب بأكمله، ولم يلحق به أي من فرسان زيكولا الذين جُمدوا في مواضعهم لمّا وجدوا كبير قاضتهم علي وشك الذبح من شاب غريب لم يروه من قبل، ومتي استوعبت عقولهم ماجال خلال تلك اللحظات كان خالد قد فرّ إلى خارج زيكولا، وحاول أحد الجنود بالقرب من إياد أن يصوّب سهمه نحو خالد فدفع إياد رجلًا آخرًا من خلفه فارتطم به وأسقطه فاخطأ تصويبه دون أن يظهر إياد بأنه من فعلها، وابتسم وهو يهز رأسه قائلًا حين رأي خالد يعبر باب زيكولا فارًا :

- سيموتان متهورين.

ثم انحسر الناس بعيدًا عن الأماريتي الغاضب ليقترب الجنود أمامهم الحارس، وأحاطوا به حذرين في إطار نصف دائري، لم يعلموا أنه اطمأن لخروج خالد، ثم حرّك بصره بعيدًا فوجد أسيل ومنى وقمر يترقبن وجهه فرفع خنجره لأعلي وخفف من ضغطة ساعده علي أسفل فك القاضي، ثم أفلته فأسرع القاضي وعبر خلف جنوده ممسكًا برقبته حانقًا، فنزع الأماريتي قميصه وألقاه نحو الجندي الذي ارتطم به وسرق خنجره، وقال له ضاحكًا:

- احتفظ به ..

فاقترب الحارس منه ولكمه لكمة أسقطته ثم ركله بقدمه وأخرج خنجره تحت أنظار سيده، وأمسك بشعره وكاد يقطع عنقه لولا أوقفه القاضي حين صاح به كي يتوقف بعدما رأي علي كتفه الأيمن وشمًا كان يعرفه، ثم دنا منه غير مصدق لما يراه، وحدّق بوشمه، كان تاجًا يتوسط خمسة نجوم صغار في شكل دائري، فهمس القاضي:

- ملك المدن الأماريتية الخمسة.

ونظر إلى وجه الأماريتي الشاب فوجده يبتسم بعدما نجح وشمه في توصيل رسالته إليه بأنه ملك أماريتا قبل أن يُقتل، فصاح القاضي بحارسه أن يكبله.

***

وكان إياد قد ترك رفقته واقترب من الأماريتي حين اعتقله الجنود، ثم عاد مسرعًا إليهن، ونظروا جميعًا إلى الملك تميم والجنود يقتادونه عاري الصدر مُكبلًا وسط لعنات أهالي زِبكولا الذين هتفوا غاضبين

مطالبين بذبحه علي منصة بلادهم وقذفوه بالحجارة قبل أن يهتفوا بحياة كبير القضاة، فهمست أسيل إلى إياد :

- كان بوسعه أن يرحل هو علي جواد الحارس إلى جيشه ويترك خالد ليجز عنق كبير القضاة. لكنه خشي أن يقتلوا خالد دون تفكير، كان يعلم أنهم علي الأقل لن يقتلوا ملك أماريتا بهذه السذاجة.

وتابعت :

- قد يكون ضحي بنصر جيشه من أجلنا .

فقالت قمروهي تنظر إليه :

- لقد أقسم ألا يترك زيكولا إلا وأنتِ بجواره تبتسمين سيدتي .

بينما ظلت منى صامتةً بوجه مضطرب يعلوه التشتت وهي تنظر إلى العربة التي تحمله وتتحرك بعيدًا عنهم يلتف حولها الفرسان، فأمسكت أسيل يدها تطمئنها، وقالت :

- لقد وضع الأماريتي ثقته بخالد .. سيعود خالد من أجلنا ..

ثم أردفت :

- علي الأقل سيعود من أجلك ..

***

كانت الخيول التي تجر المجانيق المتبقية في طريقها إلى زيكولا حين شقَّ غبارها خالد ممتطيًا الجواد الأبيض لحارس كبير القضاة، ولم يكف عن الصياح به كي يزيد من سرعته ظنًا منه بأن هناك من يلاحقه، ثم توقف حين التفت ووجد نفسه وحيدًا في صحراء زيكولا لا يلاحقه أحد، فنظر إلى السماء وحمد ربه، وجال في رأسه خوف فرسان زيكولا أن يلاحقوه فيُغلق باب زيكولا وهم خارجها دون أن يعبأ بهم أحد، فيصبحون بلا مأوي ففضلوا التأنيب لهروب شخص واحد لا قيمة له عن حياة تائهة مُحتملة، حتى ذلك الحارس القوي لم يكن ليلاحقه بعدما شرع الأماريتي في جز عنق سيده، الأماريتي الذي فهم مقصده حين أبصرا سويًا القاضي يبتعد عن حارسه وسط الزحام، فطرأت بذهنه فكرة سريعة، فرصة لن يجد مثلها مرة أخرى، أن تكون عينا الحارس مُشتتة بين الزحام وقاضيه، التشتت الذي يخلق الإرتباك والضعف في اللحظة الحاسمة، لم يكن يتوقع أن يضحي الأماريتي بنفسه من أجل فراره بجواد الفارس، لكنه قد فعلها، وبات خارج زيكولا التي أغلق بابها بعد عبور آخر المجانيق دون أن يعلم مصير الأماريتي أو أسيل أو زوجته منى ..

وأكمل طريقه ترشده الورقة المرسوم بها الطريق إلى باب زيكولا الآخر، هذا الأمل الذي لم يتيقن منه، ثم انحرف إلى الطريق الصخري المُكسر وعبره إلى وادي التلال، وركض به جواده تبحث عيناه عن التبة التي تعلوها الصخور البيضاء السبعة حتي أبصرها فأوقف حصانه، وعبر التبّة ليجد المنخفض العميق فأخرج زفيره من هول عمقه، وقال :

- يا الله .

ثم أبصر عن يمينه الحافة التي عبرها الأماريتي فاقترب منها، ووجدها متآكلة ضيقة للغاية يستحيل عبورها.

فقال في نفسه متجهمًا:

- كان الأماريتي يدرك أنني لن أستطيع عبور الحافة .. حتى وإن عبرتُها، ليس لدي ما يؤهلني لاجتياز ذلك الباب المنتظر..

ثم عاد إلى طريق التلال مجددًا، وركب حصانه في طريقه نحو وادي بيجانا الذي رُسم بموضع آخر بالورقة كمكان لإطلاق السهام المضيئة، ودارت كلمات إياد برأسه حين قال أنه أقرب الوديان إلى بحر مينجا، فصاح بحصانه لينطلق مُكملًا طريقه في وادي التلال، وبعد عشرات الأمتار عبر عربة الأماريتي، كانت تقبع بالوادي دون جواد، وواصل طريقه، يحيطه السكون من كل جانب، فبدأ يتمتم إلى نفسه :

- من أجل أسيل، من أجل مني، من أجل الأماريتي، من أجل إياد، من أجل قمر ونادين، من أجل الفقيرة الإكتارية وأبنائها، ومن قبلهم من أجلك أنت يا يامن .

ومضت ساعات أخرى تحركت بها الشمس من مشرقها إلى مغربها حتي حلّ الظلام، فهبط عن حصانه، وسحبه سائرًا في طريقه دون أن يتوقف، يكرر كلماته :

- من أجل يامن، من أجل أسيل، من أجل مني، من أجل الأماريتي، من أجل إياد، من أجل قمر ونادين، من أجل الفقيرة الإكتارية وأبنائها ..

***

داخل زيكولا، واصل الجيش الزيكولي اصطفافه خلف سور مدينتهم وبابها، مُدعمينه بمتاريس حديدية كبري، وأعلي سورها تناثر الرماة علي مسافات متساوية يمسكون بأقواسهم مستعدين، ورحل عن المنطقة الشرقية شيئًا فشيئًا سكانها الذين كانوا قد تزاحموا فجرًا

علي جانبي الطريق فقلّ الزحام، وزادت الأحاديث والأقاويل مجددًا عن نصر زيكولا بعد اعتقال ملك أماريتا، هذا الخبر الذي لم يكن ليصدقوه أبدًا من قادتهم لولا أنهم رأوه بأعينهم بينهم يرفع خنجره محاولًا ذبح قاضيهم كبير المجلس الزيكولي المُخوّل بأمور الحرب، وسخر بعضهم من غباء ذلك الملك الذي لم يتجاوز ذكاؤه أفقر أهل زيكولا في اعتقادهم .

وفي الطريق إلى المنطقة الشمالية سارت عربة خشبية بطيئة يجرها بغلٌ سقيم نحيف مُقرّح الظهر تحمل أسيل ومني وقمر ومعهم إياد، لاتحمل غيرهم بعدما خشي إياد أن يري أحد الطبيبة، ودفع من ذكائه خمسين وحدة مقابل هذه التوصيلة إلى صاحب العربة، عجوز ضعيف النظر ظل يفاوضه علي ثمن الإنتقال إلى المنطقة الشمالية ساعة كاملة، وغلبه النعاس تاركًا بغله يكمل طريقه دون توجيه، كانت وجوهم جميعًا شاردة، لايعلمون ماذا سيحدث خلال أي لحظة من اللحظات القادمة ..تتحرك عربتهم في اتجاه الشمال حيث أمل مجهول قد وضعه أمامهم الأماريتي ..

لم تحرك منى عينها الملتمعة بالدموع عن السماء التي التحمت بالرمال علي امتداد بصرها، ولم تتوقف شفتاها عن التمتمة بالدعاء كي يعود خالد، ولم يتوقف عقل أسيل عن التفكير بمصير تلك الحرب ومصير الأماريتي الحبيس بمكانٍ لا تعرفه، مثلها مثل إياد الذي نظر إلى سور زيكولا الشاهق بعيدًا، وقال في نفسه ؛ لطالما كنت مليئًا بالأسرار أيها السور، وبجواره قمر التي وضعت ذقنها علي ركبتيها المضمومتين إلى صدرها، لا يفارق بالها مشهد سيدها مُكبلًا مجرورًا إلى عربة وسط الفرسان بينما كانت عيناه تنظر واثقة بين الجموع باحثة عن شخص واحد يطمئن أنه مازال حرًا، كانت الطبيبة التي تجلس بجوارها .

***

(٣٤)

محاكمةٌ عاجلة

في المنطقة الوسطي، احتشد الكثيرون مع منتصف النهار حول قصر الحاكم تطالب هتافاتهم بقطع عنق الأماريتي الذي يزحف جيشه نحو بلادهم، كانت أذناه تسمع هتافهم وصيحاتهم الحانقة وهو يجلس ساكنًا مُكبلًا بإحدى غرف القصر يقف أمامه ثلاثة من الفرسان جامدين كتماثيل، ويعلم في نفسه أن الحاكم سيلقاه في أي لحظة من لحظاته القادمة، ربما تأخر نقاشه مع قاضيه ورجال مجلسه بشأن مصيره، وكلّما مرّ الوقت زادت صيحات المحتشدين بالخارج، ثم وجد حارس القاضي يدلف إليه عابس الوجه ويمسك ذراعه بغلظة دون أن يقول شيئًا ثم جرّه من خلفه إلى ممر انتهى بباب خشبي مفتوح علي مصراعيه ما إن عبره حتي وجد نفسه ببهو القصر الرئيسي، وكان الحاكم الذي رآه من قبل يلقي خطابه يجلس بكرسي كبير يتوسط البهو تجاوره مقاعد أخرى علي الجانبين جلس بها رجال المجلس الزيكولي الذين أبصرهم من قبل علي جانب المنصة، وأوقفه الحارس فأشار إليه الحاكم كي يلتفت بجسده إلى اليسار فحركه الحارس بيده، فنظر الحاكم إلى الوشم علي كتفه، وأشار مجددًا إلى الحارس كي يعيده مواجهًا له، وكانت الصيحات لا تزال بالخارج حين قال الحاكم :

- يتعجل شعبي ذبحك أيها الملك ..

فابتسم الأماريتي وقال :

- لطالما تعودتم الذبح هنا أيها الحاكم .

فقال الحاكم وأظهر تعجبه :

- أعلم أن الجيوش والبلدان ترسل جواسيسها، لكن أن يكون الملك ذاته جاسوس جيشه شئ لم أعتده ..

ثم سأله بجدية :

- لماذا جئت إلى بلادي ؟

فقال الأماريتي :

- كنت أريد تجنب الحرب فحسب ..

فضحك الحاكم ساخرًا :

- وكيف تتجنبها إذن ؟

فسكت الأماريتي ولم يذكر شيئًا عن أسيل أو أصدقائها، ولم يجبه، فقال الحاكم :

- أردت أن تغزو بلادنا من أجل خائنة ؟!

وأردف :

- أرسلت إليّ طالبًا العفو عنها ورفضتُ، كان عليك أن تحترم رفض بلادي ..

فقال الأماريتي :

- إنها لم تضر أحد بزيكولا، لقد اتهمتموها بالخيانة دون محاكمة، ولم يكن مقصدها إلا هدف نبيل .

فسأله :

- وما الهدف النبيل إذن من وراء خيانتها ؟

قال :

- كان هناك غريب لم يستحق الذبح، كان يبحث طوال أشهره عن عودته إلى عالمه، ولم يكن هناك طريقٌ إلى سردابه إلا عن طريق نفق يعبر سور زيكولا ..

فضحك الحاكم :

- عالمة وسرداب، تمتلك مخيلة عظيمة أيها الشاب .

ونظر إلى كبير قضاته وسأله :

- ما رأيك بهذا الهدف النبيل ؟

فهز رأسه نافيًا ساخرًا من الأماريتي، فتابع الحاكم :

- رأيت ؟ .. لم يصدّق القاضي ما تحدثت بشأنه، لذا وجبت الخيانة

فكاد يفلت لسانه عن أمر الباب الآخر لزيكولا لكنه تراجع خشية أن يلفت الإنتباه إليه، ونظر إلى القاضي وقال بكبرياء ملك :

- لاحاجة لرأيك أيها القاضي، سيُطبق عهد الرسل القديم قريبًا .

فقال الحاكم :

- هذا ما جاء من أجله جيشك إذن ..

وتابع :

- تظن أنني سأستجديك لعودة جيشك إلى بلاده، قد تكون فاجأتنا بأعداد جيشك لكن إن أصبح أعداد مقاتليك أضعاف ما سمعتُ

عنه لن يستطيعوا عبور سور زيكولا، ونستطيع أن نعيش هنا ألف عام، ولنرى كم يتحمل جيشك من وقت للبقاء في صحرائنا، ولنرَ ماذا سيفعلون حين يُلقي رأسك على سهم إليهم كتحية منا .

ونظر إلى رجل يرتدي ثياب عسكرية بين مجلسه :

- أيها القائد متي يُتوقع أن يصل جيشه ؟

فأجابه :

- ظهيرة بعد غد .

فنظر إلى القاضي، وقال :

- أيها القاضي ستُجري محاكمة عاجلة أمام أهل زيكولا بساحة المنطقة الوسطي بشأن خيانته في التوقيت ذاته .. ظهيرة بعد غد .

وقال للأماريتي :

- منذ عبورك باب بلادنا وأصبحت زيكولي مثلنا، لنرَ ماذا يقرر كبير القضاة بشأن خيانتك، سيحضر المحاكمة جميع الجنود الجرحي، إن أقرّ القاضي خيانتك ينتقل ذكاؤك إليهم بالتساوي، ولو نال الواحد منهم نصف وحدة فقط .

وتابع :

- وستكون أول من يذبح بتاريخ زيكولا بيوم غير عيدنا بموافقة من المجلس الزيكولي .

ونظر إلى الرجال الجالسين، وسألهم :

- أليس كذلك ؟

فأومأوا إليه بالموافقة فقال :

- لقد أقر المجلس ذبحك بعد غد في حال إقرار خيانتك ..

وأشار إلى الحارس كي يعيده إلى غرفة حبسه، قبل أن يوقفه مجددًا ويقول :

- أتعلم .. إنك أغبى من قابلت من الملوك، لطالما حفر الغبي قبره بنفسه .

فقال الأماريتي :

- نعم أيها الحاكم، لديك كل الحق فيما قلته .

***

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ولم يزل خالد يكمل سيره نحو وادي بيجانا، وإن أصابه تعب توقف لدقائق قليلة قبل أن يواصل طريقه مجددًا، يعلم أنه لايمتلك وقتًا لإضاعته. وكانت النجوم تضئ أحيانًا الطريق من فوقه إضاءة خافتة فيمتطي حصانه ليقطع مسافة طويلة، ويسود الظلام الحالك أحايين أخرى تمر معها الغيوم لتحجب نورها فيترجل ويسحب حصانه خشية أن يتعثر..

وكان اتساع الوادي يضيق كلّما تقدّم في طريقه، وصارت التلال علي الجانبين جبالًا عمودية شاهقة، وأصبحت الأرض غير مستوية تهبط وتصعد بانحدار شديد تتناثر بها صخور كبيرة فخفف من سرعة جواده، ومر وقت قليل ثم هبَّ فجأة نسيم منعش يحمل رائحة يود البحر، فأدرك أنه اقترب من ساحل مينجا وملأ صدره بالهواء، وما إن زادت إنارة الطريق قليلًا مع النجوم حتي ارتقي حصانه وركض به في الوادي الضيق ، وعبره إلى سهل واسع من الرمال، وواصل ركضه يلفح

وجهه هواء بارد لم يتوقف منذ تجاوزه الوادي الصخري، قبل أن يجد نفسه أمام شاطئ رطب بللت المياه رماله. فنظر من حوله علي امتداد بصره .. كان الظلام فحسب .

وكان الفجر علي وشك الطلوع وزادت برودة الجو لمّا هبط عن حصانه وعزم علي الانتظار، ووقف أمام البحر ينظر إلى الفراغ المظلم أمامه وتدور برأسه أفكار ووجوه شتي، ثم رقد علي ظهره ممسكًا لجام حصانه، ونظر إلى السماء، قبل أن ينهض فجأة، ووقف موجّها ظهره إلى البحر، وهمس إلى نفسه :

- البحر في اتجاه الجنوب .

ثم نظر أمامه وقال :

- الجبال في اتجاه الشمال .

ونظر إلى يمينه :

- إتجاه الشرق .. بيجانا .

ونظر إلى يساره :

- إتجاه الغرب .. زبكولا ..

وكررها :

- جنوب .. شمال .. شرق .. غرب .

ثم امتطي حصانه، وركض به موازيًا للساحل في إتجاه الغرب، يهمس إلى نفسه آملا بألا يجد جيش أماريتا قد ابتعد كثيرًا عن ساحل مينجا .

***

في ذلك الوقت كان السكون يسود أرجاء زيكولا عدا المنطقة الشرقية التي لم تهدأ من حركة الجنود والفرسان بها، والمنطقة الشمالية التي اعتادت أن يكون ليلها نهارًا ونهارها ليل، دون أن يعبأ سكانها بهذه الحرب التي قد تعصف ببلادهم أو يضعوا لها أي بال، وأمام حانة علي أطرافها قبعت العربة الخشبية الصغيرة التي حملت إياد ورفقته يرقد بجوارها بغلها النحيل، وفي صندوقها الضيق تكوّم صاحبها العجوز أسفل غطائه الصوفي نائمًا في انتظار الصباح ليعود إلى منطقة أخرى بعيدة عن هذه المنطقة، وداخل الحانة تزاحم الكثيرون من السكارى الذين علت أصواتهم، يضربون بأكواب خمرهم طاولاتهم مع غناء بعضهم ورقص آخرين، يتخلل صخبهم ضحكات فتيات الليل المجلجلة، واللاتي التففن حول الطاولات بين الرجال، وبين وقت وآخر ترافق إحداهن أحدهم إلى الطابق العلوي لتزداد الضحكات والصرخات بالغرف جميعها عدا غرفة واحدة صامتة جلست بها أسيل ومني وقمر لايستطيع النوم أن يقترب من أي منهن، وتدق قلوبهن خوفًا وترتعد أجسادهن كلّما سمعن صرخات إحدى الفتيات، وتنظر أعينهن نحو باب الغرفة الذي أوصاهم إياد بإحكام إغلاقه، إياد الذي جلس بأحد أركان الحانة علي طاولة يضع رأسه علي كفه، وتغفل عيناه بين حين وآخر، وإن اقتربت منه إحدى الفتيات تطلب وحداته مقابل مرافقتها بإحدى الغرف هز رأسه رافضًا، وكاد يغلبه النوم مع بزوغ الفجر لولا ذلك الفارس الذي دلف إلى الحانة لتهدأ الأصوات وتتوقف الفتيات عن ضحكاتهن ليحملقن به ثم قال :

- ستُجري محاكمة عاجلة لملك أماريتا أمام أهل المدينة بساحة المنطقة الوسطي ظهيرة غد، يوصي الحاكم بحضور الجميع ..

ثم غادر، فعاد الضجيج من جديد وكأنهم لم يدروا بما قاله، فنهض إياد متخطيًا طاولاتهم، وأسرع إلى الخارج وراء الفارس فوجده قد

امتطي جواده وابتعد إلى داخل المنطقة الشمالية، ووجد بجواره العجوز نائمًا أسفل غطائه فهزه وأيقظه. فنظر إليه العجوز ساخطًا نعسًا، فقال إياد:

- لا تغادر وحيدًا، سنعود معك غدًا إلى المنطقة الوسطي ..

فقال الرجل:

- خمسون وحدة أخرى وطعام لليوم.

فهز إياد رأسه موافقًا ثم دلف إلى داخل الحانة.

***

أمام بحر مينجا كان ظلام الليل قد بدأ في زواله مع بزوغ الفجر حين واصل الجواد الأبيض ركضه في اتجاه الغرب، يمتطيه خالد الذي كانت تبحث عيناه علي امتداد بصرها عن أي أثر للجيش الأماريتي، قبل أن ينحرف الساحل بزاوية شبه عمودية فانحرف معه، فأبصر السفن الأماريتية ترفرف راياتها الحمراء فوق صواريها، ثم وقع بصره علي رايات أخرى لاحت في الأفق فوق هضاب الشاطئ بعيدًا، فهزّ لجام حصانه كي يسرع في اتجاهها.

ومضي وقت قليل تقدّم معه كثيرًا، فظهرت مع استواء الأرض جماعات كثيرة من الجنود من أمامه، كانت كل جماعة تكوّن من عشرات الصفوف يصطف بها مئات الجنود، غير الذين ظهروا فوق خيولهم مُصطفين في جماعات أخرى، ثم رأي جسرًا خشبي يشقّ مياه البحر إلى سفينة كبيرة، وتصل ألواح خشبية سميكة بين السفينة والجسر ليعبر من فوقها منجنيق شاهق يجرّه بصعوبة أربعة أزواج من الخيول، ثم أوقف حصانه حين فوجئ بسهم يخترق الرمال من أمامه

جاء من أعلي، وهبط عنه رافعًا يده، فاقترب منه ثلاثة من الفرسان، فبادرهم قائلًا:

- أنا صديق الملك تميم .

***

دلف خالد خلف فارس إلى خيمة تواجد بها القائد الشاب جرير، وقال الفارس :

- قال أنه صديق الملك ..

فنظر إليه جرير الذي كان يقف أمام خريطة مُجسمة بوسط الخيمة وقال بشغفٍ :

- هل جئت برسالة من الملك تميم ؟

فقال خالد :

- لا لقد جئت بهذه ..

وأخرج الورقة المرسوم بها الطريق إلى الباب الآخر لزيكولا، فنطق جرير وهو يمعن النظر بالورقة :

- خط الملك تميم !

قال خالد :

- نعم إنه طريق إلى باب آخر لزيكولا .

وتابع :

- لقد أمسك به جنود زِيكولا من أجل فراري عبر بابها بذلك الحصان الذي جئت به .. وتابع :

- كان الملك يؤمن أن وراء هذا الباب أسرارًا لم تبح بها زِيكولا من قبل، ستساهم في نجاتنا من تهمة الخيانة ..

لقد عاد إلى زِيكولا من أجل عهده بنجاة أسيل إلى الأبد، ثم فوجئنا بعزم زِيكولا إغلاق بابها فجأة، كان يدرك أن إغلاق باب زِيكولا ونحن بداخله ستكون نهايتنا جميعًا .

وجالت برأسينا قبيل إغلاق باب زِيكولا فكرة أن نعبر الباب الآخر باستخدام جواد الحارس الذي اعتاد عبوره، ولإلهاء ذلك الحارس وتشتيته كان لابد أن يُعرض أحدنا للاعتقال، أنا أو هو، فوجدتُه من يقترب نحو القاضي - سيد الحارس - وآثر أن أعبر أنا إلى خارج بابها . . لن ترحمه زِيكولا .

ثم نظر إلى الخريطة المُجسمة أمامه، وقال :

- أيها القائد لديَّ خطة لاجتياز ذلك الباب السري، أريدك أن تساعدني بها .

فقال جرير:

- وماذا إن كان فخًا منك ؟

فابتسم خالد :

- لم يكن ليخبرني ملكك عن مكان إطلاق السهام المضيئة ..

فابتسم جرير وقال :

- حسنًا

فنظر خالد إلى الخريطة أمامه مجددًا، ووضع عليها الورقة المخططة، وقال وهو يحرك إصبعه علي وادٍ مُجسم بها :

- سنسلك هذا الطريق .. ثم سنعبر مرتفع هنا، سيقودنا إلى منخفض عميق دائري واسع ..

ونظر إلى جرير وقال :

- لقد رأيتُ المجانيق تعبر إلى الجسر عبر ألواح خشبية طويلة، ستفي تلك الألواح بالغرض .

فهز جرير رأسه موافقًا، فتابع خالد :

- أخبرني الملك تميم أن هناك طريقًا متعرجًا ضيقًا يصل إلى سور زيكولا ..

وأكمل :

- ليس موجودًا بخريطتك .

وتابع :

- قال الملك أن الباب الأرضي يوجد أمام نهاية ذلك الطريق المتعرج، يتسع لدخول عربات كانت تنقل عشرات الفقراء إلى زيكولا، دون أن يدري أهلها، أتوقع أن يكون جيش زيكولا بأكمله خلف السور الشرقي، لن يتواجد إلا أعداد قليلة من الجنود

بالمناطق الأخرى مع اطمئنان زيكولا بسرية ذلك المدخل، عدد قليل من الفرسان نستطيع اقتحام ذلك الباب، ونكتشف شيئًا قد يفيد براءتنا قبل اشتعال الحرب .

فسأله جرير:

- كم تريد من الفرسان ؟

فقال خالد وهو يفكر:

- مائة فارس وكفي .

فقال جرير:

- لا .. سيعبر ذلك الطريق ثلثا جيشي، مائة وخمسون ألف مقاتل .

***

(٣٥)

ممرات سرية

انطبعت المفاجأة علي وجه خالد حين أخبره جرير عن عزمه عبور الطريق الثعباني بثلثي جيشه، وتابع جرير قائلًا :

- لقد اشتعلت الحرب بالفعل أيها الصديق . لديهم الآن الملك تميم، ونعلم كثيرًا عن غرورهم، لن يفاوضونا من أجله ..

فقال خالد :

- لكن الطريق ضيّق لن يتحمل هذا العدد الضخم، سيضيع المزيد من الوقت .

فأشار جرير إلى طريق بالخريطة المُجسمة أمامه، وحرك قطعة خشبية في شكل منجنيق صغير به نحو زيكولا التي مُثلت بمربع بارز يحيطه سور صخري منحوت، وقال :

- إن مجانيقنا ثقيلة للغاية، ستحتاج يومًا بأكمله لتجتاز الطريق إلى زيكولا، لذا سيصل الثلث المتبقي من الجيش إلى السور الشرقي مع صباح غد ..

ثم أشار إلى طريق آخرجانبي .. كان وادي التلال، وأكمل :

- لدينا إذن يوم بأكمله للتقدم نحو السور الشمالي، مهما كان الطريق ضيقًا نستطيع أن نباغتهم في التوقيت ذاته، لقد تركوا لنا فرصة عظيمة بانسحابهم إلى داخل زيكولا .

***

وكان الأوان قُبيل الظهيرة حين بدأ الجيش الأماريتي زحفه تجاه الغرب في طريقه إلى زيكولا، جحافلٌ من الجنود والفرسان اصطفوا في عشرين فيلق متتابع، يفصل بين كل فيلق وآخر عشرة من الأمتار. كان ينتظم بالفيلق الواحد أربعة آلاف جندي تتوهج خوذهم ودروعهم أسفل أشعة الشمس، بين كل جندي وآخر قدم واحدة، وكانت أقدامهم ترتطم سويًا بالأرض فتصدر وقعًا قويًا تناغم مع دقات الطبول التي تدق عاليًا بينهم، وتتناثر بينهم رايات حمراء كبري نُقش عليها خمسة من النجوم السوداء وُزعت في شكل دائري، ويتبعهم بالصفوف الخلفية ثلاثة آلاف جندي طوال القامة أقوياء البنية قُسموا علي مائة منجنيق - يجرُ كل منجنيق أربعة أزواج من الخيول - كانت عجلاتها الحديدية تصدر جلبة هائلة وغبارًا كثيفًا اندفع بأكمله نحو عربات كانت تسير بمؤخرة الحشد وتحمل كرات اللهب المعدنية ..

وفي اتجاه الشرق تقدّم الجانب الآخر من الجيش الأماريتي، فرسان وجنود يضاعف عددهم من تقدّموا نحو زيكولا، يتقدمهم القائد جرير علي جواده، بجواره خالد علي جواده الأبيض بزيّه الزيكولي، وركضت بهم الخيول في صمت نحو وادي بيجانا ..

وكانت الشمس قد تعامدت بالسماء حين وصلوا إلى بداية الوادي خلف جماعة من ثلاثين فارس سبقتهم بمئات الأمتار كطلائع لهم، وكان

الممر ضيقًا، بالكاد يتسع لتجاور ثلاثة من الخيول. فخففوا من سرعة جيادهم حتي صارت مشيًا، ثم اتسع قليلًا فركض الفرسان بخيولهم مع انحدار الأرض هبوطًا وصعودًا. وكاد خالد يسقط حين حاول مجاراتهم لكنه تشبث بسرجه وأعاد اتزانه، فنظر إليه جرير وتساءل إن كان بخير فأومأ إليه إيجابًا، وأكملا ركضهما يتبعهما الآلاف من الفرسان والمشاة.

واتسع الطريق أكثر فأكثر فتجاور خمسة من الفرسان بكل صف، وصارت الجبال العالية علي الجانبين تلالًا أقل ارتفاعًا، وبعدما تجاوزت المقدمة الأرض المنحدرة بات الطريق رمليًا مستويًا وأصبح ركض الخيول أكثر سهولة، فحثّ خالد حصانه كي يسرع .

***

خلف سور زيكولا كان الجيش الزيكولي يكمل استعداداته، وجوه متجهمة من الجنود المتراصين تدق قلوب بعضهم متسارعة إن تحدّث أحدهم عن كرات اللهب الأماريتية، وخلف الصفوف سارت خمسة من العربات المُترفة تحمل الأولى حاكم زيكولا والأخريات رجال المجلس الزيكولي، وترجلوا يحمسون جنودهم ..ووقف الحاكم أمام جماعة من الجنود يحثهم علي الصمود، ويعدهم بمضاعفة أجرهم من وحدات الذكاء ليصبح عشرين وحدة من الذكاء عن اليوم الواحد، فصاحوا مهللين في حماس .

وفي غرفة بالمنطقة الوسطي أضاءتها القناديل النارية المُعلقة، كان الأماريتي يجلس علي مقعد حديدي يميل جذعه ورأسه للأمام مُكبلة يده وقدميه مغمضًا عينيه نائمًا، بجواره قدر من الثريد لم ينقص منه شئ، قبل أن يفتح عينيه لمّا دلف إلى الغرفة رجل ثلاثيني قصير مترهل الجسد يحمل حقيبة وضعها علي طاولة جانبية وقال : إنني حلاق المنصة، وأخرج آلة حادة تشبه سكينًا صغيرًا ووضعها جانبًا بجوار

الحقيبة. ثم أخرج وعاء زجاجيًا وفتح غطاءه ففاحت منه رائحة نفاذة، ودس يده به ليخرج مادة خضراء لزجة وضعها علي رأس الأماريتي ودلّك بها شعره ثم وضع المزيد منها ودلّك الشعر بقوة دون أن يحرك الأماريتي رأسه أو ينبس بكلمة واحدة، كانت عيناه تنظر شاردةً إلى الفراغ أمامه فحسب ..ثم أمسك الحلاق سكينه وبدأ يزيل شعره عن آخره، وما لبث أن انتهى في دقائق قليلة كان بعدها الأماريتي حليق الرأس، وقال الحلاق ضاحكًا وهو يعيد أدواته إلى حقيبته :

- يقولون أن حلق رؤوس الموتي يدفع الفقر عن زيكولا .

فصاح به أحد الحراس الواقفين كي يغادر الغرفة في الحال دون أن ينطق المزيد من الكلمات .

واقتربت الشمس من المغيب حين وصلت مقدمة فرسان أماريتا إلى التبَة المجاورة للمنخفض الصخري والتي مُيزات بصخورها السبعة، وأشار إليها خالد صائحًا لمّا أبصرها، فقللت الخيول من سرعتها وتوقفت بأمر من القائد جرير، كان حشدًا هائلًا امتلأ معه وادي التلال عن آخره بأجساد الخيول والفرسان والجنود، لم يكن خالد يعلم أنه حين توقفت المقدمة بجوار التبة المقصودة كان جنود المشاة بمؤخرة الحشد لا يزالون يندفعون إلى بداية الوادي، ثم ترجل جرير عن جواده وبعض من رجاله، وعبروا التبة وراء خالد، وتوقفوا علي حافة المنخفض الصخري، قبل أن يأمر جرير بسرعة تثبيت الجسور الخشبية .

***

كانت ساعة واحدة قد مرت بعد حلول الليل حين أبصر جندي حاد البصر يقف أعلي سور زيكولا نيران بعيدة بصحراء زيكولا تتوهج بين

ظلام الليل الحالك، لم تكن إلا شعلًا حملها الجنود الأماريتيون المتدافعون في طريق زيكولا الرملي والذين توقفوا للمرة الأولى بأمر من قائدهم لينالوا قسطًا من الراحة بعد مسيرة النهار بأكمله ..

أما الذين عبروا المنخفض الصخري فلم يتوقف سيلهم، وكانت الألواح الخشبية قد صنعت خمسة من الجسور بين الحافتين، صُنع كل جسر من ثلاثة ألواح متجاورة تربطهم أحبال سميكة فأحكمت تلاصقهم دون ترنح، وعبر الخيالة مترجلين يجرّون خيولهم بيد ويحملون شعلًا بيدهم الأخرى، غير مصابيح ثُبتت مُشتعلة علي جانبي الجسور، فأصبحت معها الرؤية أكثر وضوحًا، وكان جرير وخالد قد أسرعا عبر الطريق الثعباني بين الجبلين العموديين خلف فرسان حملوا شعلًا أضاءت الطريق المتعرج من أمامهم، واندفع من وراءهم مَن عبروا جسور المنخفض يحملون شعلهم، وأكملت جيادهم طريقها ركضًا يتجاور اثنان أو ثلاثة منهم بكل صف، ينظر بعضهم إلى ارتفاع الجبلين بالأعلي حيث تظهر نجوم السماء عبر الفُرجة بين قمتيهما، ومضت ساعات أخرى واصلوا معها تقدمهم إلى الشمال .

***

وكان الفجر علي وشك الطلوع فتحركت عربة العجوز الخشبية تحمل أسيل وإياد وقمر ومني إلى المنطقة الوسطي بين عربات أخرى تحركت جميعها لتشهد المحاكمة العاجلة لملك أماريتا، وانتشرت أخبار بين المسافرين أن حاكم زيكولا قد وعد بتوزيع وحدات خزينة كاملة من الذكاء علي حضور تلك المحاكمة فعزم الكثيرون علي السفر إلى المنطقة الوسطي، حتي أن الحانات التي ازدحمت كل مساء أصبحت تلك الليلة خاوية يسودها السكون، وصار الطريق الرملي بين المنطقة الشمالية والمنطقة الوسطي صاخبًا مثله مثل باقي الطرق التي تتجه إلى

المنطقة الوسطى، تتناثر به العربات والخيول والبغال والسائرون رجالًا ونساءا وأطفالًا يصبّون لعناتهم علي ذلك الملك الذي ظن يومًا أنه يستطيع هزيمة بلادهم، وغنّوا في جماعات متباهين بقوة بلادهم، لا يعلمون أن أجساد جنودهم قد بدأت في ارتجافها خوفًا بعدما أبصروا مع شروق الشمس تصاعد الغبار بكثافة بالغة علي بعد أميال، كانت المجانيق الأمارتية تمضي قدمًا في طريقها إليهم، تجرّها خيولها دون توقف خلف آلاف من الجنود زادت ضربات أقدامهم بالأرض كلما اقتربوا من وجهتهم المقصودة، أرض وحدات الذكاء .

***

علي مقربة من نهاية الطريق الثعباني توقفت الخيول الأمارتية، وترجل خالد وجرير وسارا إلى نهايته يواريان جسديهما، ورأى من أمامهما سور زيكولا شاهقًا علي بعد قرابة ثلاثمائة مترٍ من سهل رملي، وأشار خالد أمامه وقال لجرير:

- هناك يقبع الباب الأرضي حسب وصف الملك تميم ..

وتابع وهو يبصر جندي يقف أعلي سور زيكولا :

- هؤلاء القوم لا يفكرون علي الإطلاق خوفًا من فقدان ذكائهم .

ثم عادا إلى فرسانهم، فقال خالد لهم :

- أيها السادة أريدكم أن تخلعوا خوذكم ..

فنظروا إلى جرير فبادرهم وخلع خوذته فخلعوا خوذهم، فمرّ بينهم لمسافة أمتار ينظر إليهم ثم صاح بصوته إلى فارس شاب أبصره بصفٍ بعيد كي يتقدم نحوه ..كانت رأسه حليقة، يشبه في جسده حارس القاضي، وقال له حين اقترب ووقف أمامه مترجلًا:

- ما رأيك أن تكون أول من يدخل زيكولا ؟

فضرب الفارس بقدمه الأرض، ووضع قبضة يده على صدره فابتسم خالد وقال وهو يركبه جواد الحارس الأبيض :

- لقد قطعنا كل تلك المسافة وعرّض ملكك حياته للموت من أجل هذه اللحظة ..

لا تنظر خلفك، فقط اندفع إلى السور واثقًا ..

لايستطيع أحد بهذا الإرتفاع أن يحدد ملامحك، أنت من هذه اللحظة حارس كبير قضاة زيكولا .

فملأ الشاب صدره بالهواء وأخرجه ببطء، فضرب خالد مؤخرة حصانه فانطلق في طريقه يعبر السهل الرملي، يترقبه خالد وجرير اللذين توارا وراء نتوءين صخريين تدق قلوبهما، غير أحد الرماة الذي صوب سهمه مشدودًا عن آخره إلى الأعلي تجاه الجندي البادي، وكانت عين خالد تتحرك بين الشاب علي الحصان أمامه وبين الجندي بالأعلي ..ثم قلّل الفارس من سرعته واقترب من السور فلم يحدث شئ . فنظر خالد إلى الجندي بالأعلي الذي لم يبد أي رد فعل ..، فوجد الفارس يدور بحصانه وجعله يشبّ علي قوائمه الخلفية ويصهل عاليًا صهيلًا متتاليًا فانفرجت أساريره حين سمعت أذناه صريرًا استمر للحظات انطلق معه الجندي إلى داخل الأرض بميل عبر باب أرضي فتح مائلًا عن آخره، فضرب كتف الرامي برفق فانطلق سهمه إلى أعلي السور ليخترق جسد الجندي ويسقطه من أعلي إلى السهل لتندفع الخيول بفرسانها يتقدمهم خالد وجرير نحو باب زيكولا الجديد .

***

كان الباب الأرضي المائل يؤدي إلى نفق واسع تستطيع عربتين كبيرتين المرور به متجاورتين، عُلقت علي جانبيه علي مسافات متساوية مصابيح نارية مشتعلة جعلت معالمه واضحة. كان يشبه في تصميمه سرداب فوريك غير أن جدرانه الصخرية لم تكن منقوشة. وظهرت بسقفه قوائم حديدية أفقية تدعم صخوره ..

وركضت الخيول يعلو صهيلها بعدما ضرب جرير بسيفه الحاد زوجًا من السلاسل الحديدية كانت مُثبتة بباطن الباب الأرضي السميك وتمتد منه إلى مجري صخري لتلتف حول اسطوانة حديدية كانت مصدر صريره. استقامت منها السلسلة إلى أعلي عبر فُرجة مربعة بسقف النفق ليتحكم بالباب جندي السور. وكان ثمة سلم حديد قائم يتدلي عبر الفرجة ذاتها. وتعددت فتحات النفق بسقفه بالأمتار الأولى منه. ثم ظهرت جماعة من جنود زيكولا لم تزيد أعدادهم عن بضع عشرات حصدت سيوف الأماريتين رؤوسهم في طريقها ..وأكملت الخيول طريقها بالنفق تندفع بهم الأرض مائلة إلى أسفل .

كانت الحشود في تقدمها من الطريق الثعباني إلى النفق الأرضي عبر السهل الرملي تشبه أسراب النمل المسرعة إلى جحرها في صفوف طويلة لاتنتهي، ثم أبصر خالد عربات اصطفت قابعة علي جانب النفق. فتذكر السيدة الإكتارية وحديثها عن نقل فقراء بلادها في عربات كانت صوامعها أقفاص من قوائم خشبية. وكانت الخيول قد قطعت ما يزيد عن أربعة أميال حصدت به رقاب عشرات آخرين من جنود زيكولا حين انتهى النفق بباب خشبي مفتوح علي مصراعيه إلى ردهة كبرى دائرية كان قطرها يقارب السهل الرملي أمام السور. يتفرع منها ممرات ضيقة لا يزيد عرض الممر الواحد عن خمسة أقدام علي امتداد محيطها. بينهما ممرين واسعين أحدهما يمينًا والآخر يسارًا يصل عرضهما إلى عرض النفق الذين دلفوا منه ..

وظهر بالأفق جنود آخرين كانت علي وجوهم المفاجأة والخوف كان مصيرهم الإعتقال، ثم هبط خالد عن جواده ومعه جرير وأمسك بجيادهما جندي، وتقدما مع بعض الجنود إلى أحد الممرات الضيقة كانت المصابيح النارية المعلقة علي جدرانه مضاءة، لتظهر أبوابًا حديدية متجاورة مُغلقة علي امتداد جانبي الممر، بين كل باب وآخر بضع أمتار فضرب جرير قفلًا كبيرًا كان يغلق أقرب الأبواب إليه وركل الباب بقدمه وفتحه ..كانت غرفةً مظلمة تفوح بها رائحة كريهة، ما إن دلف إليها خالد حتى سمع جلبة مفاجئة وهمهمات مكتومة، فاقترب بشعلته خطوات بداخلها فظهرت ملامح لوجوه سقيمة تشبه ملامح سيدة إكتارا، واقترب آخرون من خلفه بشعلهم بينهم جرير فظهرت من أمامه أجسادهم عارية .. متكدسين .. مُكبلة أطرافهم بسلاسل حديدية والتفّت حول أعناقهم سلاسل أخرى موصولة بحلقات كانت مُثبتة بالحائط ..كانت أعينهم تظهر مع ضياء المشاعل خائفة، ترتعد أجسادهم، فاقترب منهم أكثر، كانت وجوهم شاحبةً شحوب يعرفه، شحوب فقراء زيكولا، وظهورهم مجروحة ممزقة في خطوط من أثر السياط، كان عددهم بالغرفة يتجاوز خمسين في غرفة لا يتجاوز طولها أو عرضها عن بضع أمتار، بينهم أطفال لايتجاوز عمرهم عشر سنوات لم تفلت ظهورهم من آثار جلدها، فدق قلبه في ذهول هو وجرير الذي لم يصدق مايراه، وأمر جنده بأن يفتحوا كافة الغرف بالممرات ..

كان عدد الممرات علي حواف الردهة الدائرية اثنا عشر، امتدوا منها كأشعة الشمس، بكل ممر ثلاثين غرفة علي جانبيه، يتكدس داخل كل غرفة عشرات من العرايا شاحبين حليقي الرأس نحيلي الجسد تلتصق جلودهم بعظامهم، غرف أخرى امتلأت بفتيات شاحبات لم يتجاوز عمرهن عقدهن الثاني حُلقت رؤوسهن مثل غيرهم من الذكور،

تُغطي أجسادهن فساتين بالية ممزقة كانت تظهر أكثر ما تستر. كان خالد يتنقل بغرفة وراء أخرى بشعلته في ذهول. كانت الجلبة ذاتها تحدث مع فتح كل باب .. جلبة خائفة. النظرات ذاتها. نظرات الذعر والقهر من عيون مكسورة مستسلمة تنتظر موتها .

وبدأ الجنود يضربون سلاسلهم وأغلالهم بسيوفهم. ثم جاء جندي إلى القائد جرير وأخبره عن غرف بالممرات الشرقية تختلف عن باقي الغرف التي وجدوها. كانت غرفًا متسعةً نظيفة تُعلق مصابيح نارية علي حوائطها. بالغرفة الواحدة عشرة أسرّة يرقد عليها رجال ونساء ملامحهم زيكولية نائمين موردي الوجوه مُثبتة بأذرعتهم أنابيب معدنية مثل التي ثُبتت لأسيل من قبل .

كان خالد يتحرك بين أسرّتهم، ويتنقل من غرفة لأخرى ومن ممر لأخر غير مُصدق عينيه. ثم انتبه إلى الطريقين الشرقي والغربي. كان بأرضية كلاهما زوج من القضبان الحديدية. وتتوقف بكل طريق عربة من صندوق عميق يستند علي أربعة عجلات حديدية صغيرة أُطرها مقعرة تلائم القضبان الممتدة. فاقترب من عربة الطريق الغربي فوجد بها جثثًا عارية شاحبة مُبللة، ومكدّسة إلى منتصف صندوقها. كأنها تنتظر أن تمتلئ عن آخرها لتبدأ في تحركها. فأبعد عينه عنها .

وكان النفق قد امتلأ عن آخره بجنود أماريتا حين تولّت مقدمتهم أمر بعض الجنود كانوا مختبئين بغرف بنهاية الممرات، وأسروهم مع آخرين يرتدون ثيابًا زيكولية. لم يكونوا جُندًا. وجُمعوا في منتصف الردهة خائفين بينهم شاب لم يكف عن الارتعاد. وحاول الفرار إلى الطريق الشرقي فأمسك به فارس، وعاد به إلى القائد جرير. فصرخ الشاب في خوف :

- لست إلا طبيبًا أُجبر علي العمل هنا .

فأشار جرير إلى فارسه بأن يعيده إلى وسط الردهة مع الباقين، والتفت إلى العرايا الذين بدأوا يخرجون ببطء من الغرف واحد تلو الآخر يتلفتون حولهم في ذهول، ويتحسس بعضهم رقبته فتتقلص وجوهم الشاحبة من الألم، كانت الأغلال قد تركت آثارها علي أعناقهم ومعاصمهم فباتت جلودها متآكلة متقرحة، كانت نظراتهم زائغة، ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يخرجون من الأبواب المفتوحة متثاقلي الأرجل، تحدق أعين الواحد منهم بوجوه وأجساد غيره كأنه يتأكد إن كانوا هم من عرفهم من قبل، وخرجت الفتيات عبر أبواب غرفهن، كانت أيديهن تحاول أن تغطي أجسادهن المكشوفة، وتتحسس بعضهن رؤوسهن الحليقة للمرة الأولى بعد فك أغلالهن، فسالت دموعهن دون توقف.

حتي امتلأت المرات بهم، ووقفوا ينظرون بأعين متحجرة إلى جرير وخالد من أمامهم صامتين، ثم تقدَم أحد القادة إلى القائد جرير بعد قليل من الوقت، وقال :

- هناك غرف كثيرة أخرى خالية، لم يعد أحد بالغرف .. عدد الفقراء ثلاثة آلاف ،

فاقترب خالد ممن قال خائفًا أنه طبيب بوسط الردهة، وسأله :

- أين الباقون ؟

قال الشاب وهو يجثو علي ركبتيه واضعًا رأسه بين ذراعيه خوفًا :

- لقد سلكوا طريق الموت، وأشار إلى الطريق الغربي حيث وقفت العربة ذات الصندوق العميق، وأكمل :

- لم تتحمل عقولهم نقل ذكائها بالكامل إلى الخزائن .

وأشار برأسه نحو الغرف النظيفة المتسعة وتابع :

- ومن تحمّل عقله ذلك، لم يعد له قيمة، فتُرك ليموت جوعًا .

ثم قال وهو ينظر إلى الفقراء العرايا بالممرات :

- إن هؤلاء لم يؤخذ ذكاؤهم بالكامل بعد .

فهبط خالد علي ركبتيه أمامه وسأله في ذهول :

- يقتلون من أجل ذكائهم ؟

فهز الشاب رأسه إيجابًا في خوف، وقال :

- نعم .. يمتلك الإكتاري الواحد علي الأقل عشرة آلاف وحدة ذكاء

فقال خالد :

- لابد أن يكون هناك مقابل للذكاء، ما هو المقابل الذي ينالونه إن كان الموت حتميًا في النهاية ؟!

فقال الطبيب :

- الذكاء مقابل الرحمة ..

فضرب خالد رأسه بيده ودقِ قلبه وهو ينظر إلى أجسادهم الممزقة بالسياط، وهمس إلى نفسه :

- مقابل الرحمة .

ثم سأله :

- كم مات منهم ؟

أجابه :

- يأتي لنا كل عام عشرون ألف إكتاري علي مرتين، منذ أربعة أعوام

فقال خالد شاردًا :

- ثمانون ألف فقير، لم يتبق منهم إلا ثلاثة آلاف مسلوب ذكاءهم .

فتابع الشاب متوسلًا:

- إننا أجبرنا علي العمل هنا لإنامة الخزائن وإمدادهم بسوائل مغذية ومنومة، وغمر الموتي بسائل اخترعه عالم زيكولي لمنع انتشار رائحة جيفهم، نحن أسري مثلنا مثلهم مثل الخزائن، لم يسمح لنا الجنود للرحيل أبدًا منذ قدومنا .

فنظر جرير إلى الجنود الأسري بجانبه، ونطق إلى كبيرهم :

- هل جاءت أخبار عن ملك أماريتا ؟

فنطق متباهيًا :

- سيُحاكم ظهيرة اليوم .. وسيقتل ..

فدسّ فارس أماريتي من خلفه سيفه في مؤخرة عنقه، فسأل جرير جنديًا آخر، وأشار إلى الطريق الشرقي :

- إلى أين يؤدي هذا الطريق ؟

فأجابه مرتعدًا :

- ينتهي بباب أرضي إلى منطقة جبلية قريبة من المنطقة الوسطي، وقرب نهايته يوجد ممر إلى قصر خزائن الذكاء التابع للمجلس الزيكولي .

فسأله خالد :

- والطريق الغربي ؟

قال الجندي :

- تُلقي الجثث خارج سور زيكولا .

فامتطي جرير جواده، وصاح برجاله :

- لنذيق هؤلاء القوم عقاب فعلتهم ..

فصاحوا جميعًا، بينما امتطي خالد جواده، واتجه إلى الطريق الآخر، وحين نظر إليه جرير قال :

- هناك أمر عليَّ أن أتحقق منه أولًا .

***

كانت الألوف من أهل زيكولا قد بدأت في تجمعها بساحة المنطقة الوسطي لحضور محاكمة الأماريتي ، ساحةٌ رملية واسعة تقع بالجانب الغربي لهذه المنطقة شُيِّدت بها منصة كبيرة تشبه منصة الذبح بساحة المنطقة الشرقية. أحاطها عدد قليل من فرسان وجنود زيكولا، وكانت المرة الأولى التي يتجمع بها أهل زيكولا قلقين القلوب رغم أحاديثهم الواثقة عن نصر جيشهم، لا تعلو وجوهم فرحتهم المعتادة في تجمعاتهم، حتي الموسيقي التي عُزفت بينهم بدت كئيبة مرتعشة، ولم يتراقص إلا قليل منهم توقفوا عن رقصهم حين وجدوا جرحي معركة الشاطئ من الجنود قد تقدموا إلى الصفوف الأمامية ..

وعلي مقربة من طرف الساحة الجنوبي هبط إياد ورفقته من عربة العجوز، ودلفوا بين المتزاحمين يتقدمون الصفوف إلى الصفوف الأمامية يغطي رأس أسيل غطاء رأسها المعتاد، وتغطي مني رأسها بوشاح كانت قد أتت به من بلدها، بينما لم تتبدل ثياب قمر أو إياد، وأكملوا تقدمهم نحو المنصة تنظر أعينهم بالسماء إلى الشمس التي لاتزال بجانبها الشرقي .

في الوقت ذاته كانت الخيول الأماريتية تنطلق كالعاصفة في الطريق الشرقي من النفق، تندفع بهم الأرض من أسفلهم إلى أعلي كلما تقدّموا، ويصيح جرير بمقدمتهم : إلى الملك، فيصيحون من خلفه في حماس شديد، بينما انطلق خالد في الطريق الغربي يركض حصانه بين القضيبين الحديدين المُثبتين علي امتداده، ويضئ الطريق من أمامه مصابيح نارية كانت مُثبتة مضاءة علي جانبيه .

وأمام سور زيكولا الشرقي باتت الحشود الأماريتية الزاحفة علي بعد مئات الأمتار منه، كانت دقات طبولها الكبري تصل إلى آذان الجنود أعلاه، ثم أُطلق بوقٌ عالٍ فتوقف الحشد عن تقدمه، وأُطلق بوقٌ آخر

آخر واختلف ايقاع دقات الطبول ليصبح أكثر سرعة، فبدأت خيول المجانيق بالصفوف الخلفية تنحرف بمجانيقها شمالًا وجنوبًا في تناوب، فهمس جندي زيكولي كان يمسك بقوسه أعلي سور زيكولا إلى زميله في ذهول :

- سينتشرون علي امتداد سور زيكولا بأكمله ..

***

وكانت ساحة المنطقة الوسطي قد امتلأت عن آخرها بأهل زيكولا حين دقّت طبول صغري علي جانب المنصة فصعد إلى أعلاها رجال المجلس الزيكولي واتخذوا مقاعدهم، ثم صعد من خلفهم كبير القضاة واتخذ مقعدًا بمنتصف المنصة، فهتف الحاضرون مطالبين بموت الأماريتي، ثم دقّت الطبول إيقاعا مختلفًا وأُطلق بوقٌ فساد الصمت وصعد إلى المنصة حاكم زيكولا واتخذ مقعد كبير بجانب المنصة الأيسر مواجهًا لرجال مجلسه، فهلل الكثيرون مجددًا، وتعجبت منى ونطقت إلى إياد بلهجتها :

- سايب جيشه يحارب وقاعد هنا ؟!

قال إياد :

- لقد تعمّد توقيت المحاكمة، وجوده بين الناس هنا في هذا الوقت يوحي بثقته بجيشه .

فضمّت منى شفتيها متعجبة، ثم دقت الطبول دقات بطيئة متتابعة، فصعد إلى المنصة الملك تميم حليق الرأس عار الصدر، مُكبل اليدين والقدمين يجرّه حارس القاضي، فنبضت قلوب أسيل ومنى

وقمر وأحمرّت وجوههن بينما بدا إياد ثابتًا ينظر إلى الأماريتي الذي ما إن صعد المنصة حتي زاد الصخب وتعالت الصيحات الساخطة مطلقين السباب واللعنات، فأشار إليهم الحاكم كي يهدأوا فعاد الصمت رويدًا رويدًا، ووقف كبير القضاة وانحني إلى الحاكم ليبدأ محاكمته فسمح له، فنظر إلى الوجوه الزيكولية أسفل المنصة، وقال :

- أيها السادة، لقد وكّل لي السيد الحاكم شرف محاكمة هذا الملك .

وتحرك وتابع :

- لن أتحدث عن محاولته قتلي، لست إلا شخصًا واحدًا لا قيمة له، لكني سأتحدث عن محاولته قتلكم جميعًا، لقد أرسل هذا المعتدي جيشه ليهلك بلادنا ويدمر حضارتنا، ليقتل من يقتل، ويتخذ الباقين عبيدًا لشعبه، ويخضع نساءكم لإرضاء شهوات رجالهم، غبي يظن أن بلادنا كباقي البلدان، لايعلم أن سور زيكولا يحيط بنا كالفولاذ لايمكن تجاوزه، وإن جاء بمجانيق من السماء.

فصاحت الحناجر من جديد، وهتفوا :

- خائن .. خائن ..

فأكمل القاضي :

- نعم أيها السادة، لا أرى فيه إلا خائنًا لبلادنا .

فتابعوا صائحين :

- خائن .. خائن .

كان الأماريتي يقف شاهق الرأس ينظر إلى الوجوه التي تحملق به بعيون شرسة وتصرخ بخيانته، فقال القاضي :

- إنني أحكم بخيانته، وبتوزيع وحدات ذكائه كاملةً علي جرحانا من الجنود مقابل ما عانوا من آلام ..

ونظر إلى الجنود الجرحي أمام المنصة، وقال :

- هنيئًا لكم أيها الأبطال .

فانفرجت أسارير الجنود، وعلا الهتاف ووصل ذروته، فرفع القاضي يده إليهم كي يهدأوا وتابع :

- ليس هذا فحسب، لقد أقرّ المجلس الزيكولي بجواز ذبحه اليوم وإرسال رأسه علي سهم إلى جيشه .

فهتفوا من جديد، تعلو وجوهم سعادة شامتة بهذا الملك أمامهم، وواصلوا نعته بالخيانة، وتدافعوا وهم يقفون علي أطراف أقدامهم لينظروا إليه وهو يفقد ذكاءه بأكمله، بينما اضطرب وجه إياد وهز رأسه لايصدق مايحدث، ونظر إلى الأرض من أسفله، والتمعت عينا منى بدموعها وحاولت أن تتمالك نفسها من البكاء، ووقفت قمر علي أطراف قدميها لتنظر إلى سيدها، واحتبست أنفاسها حين وجدت وجهه وجسده قد بدءا في شحوبهما سريعًا، كان يغمض عينه محاولًا تنمل آلام رأسه، وعصر جفونه متألمًا، ثم فتحهما فصارتا حمراوتين كالدماء، ورفع يديه المكبلتين وأمسك عنقه يقاوم اختناقه، فتعالت الصيحات من حولها، ثم جثا علي ركبتيه ينظر بين الوجوه أمامه، كان صدره ينخفض ويرتفع متسارعًا وعيناه الحمراوان تحملق بالوجوه، ثم حاول

أن يقف مجددًا فتعثر وسقط، وبات جسده شاحبًا للغاية، مثل شحوب الطبيبة تلك الليلة بالقصر، وحاول أن يقف مرة أخرى، فانهمرت دموعها علي وجهها هي ومنى التي لم تستطع تمالك نفسها حين سقط جسده علي المنصة وبدأ في انتفاضاته انتفاضات شديدة متتالية استمرت معها صيحات الزيكولين، ثم ظهر السياف علي المنصة يلمع سيفه الكبير مع الشمس، فزادت صيحاتهم، قبل أن يسكتوا فجأة وتتحول صيحاتهم إلى همهمات بعدما ترقبت وجوهم جسد امرأة نحيلة تحركت بصعوبة أعلي المنصة يغطي رأسها غطاء معطفها، اقتربت من جسده المنتفض وجثت علي ركبتها بجواره واحتضنت رأسه، واحتبست الأنفاس جميعها حين كشفت غطاء رأسها وهي تنظر إليه، ليظهر وجه الطبيبة أسيل ليس شاحبًا. وظلت تنظر إليه، تسيل دموعها علي وجنتها، حتي هدأت انتفاضات جسده رويدًا رويدًا ثم توقفت، فنظرت إلى الوجوه المحدقة بها، وقالت باكية بصوت ضعيف:

- لم يكن خائنًا، لم يكن ليدمر بيوتكم أو يتخذكم عبيدًا، أراد أن يتجنب الحرب فحسب.

كانت الوجوه جميعها تنظر إلى وجه أسيل الباكي في دهشة، قبل أن ينهض القاضي عن مقعده، ويقول:

- خائنة أخرى، هنيئًا لأهل زيكولا وحدات أخرى من الذكاء، أيها السادة .. من لم يستطع منكم نيل وحداته المرة السابقة فلينالها الآن، إنني أعلنها خائنة من جديد.

فنظرت أسيل بعيدًا علي امتداد بصرها، وابتسمت باكية، ثم نظرت إلى القاضي، وقالت:

- اللعنة عليك.

والتفتت إلى الحاكم، وقالت:

- وعليك أيضًا سيدي الحاكم.

ثم نظرت أمامها مجددًا وهي تحتضن رأس الأماريتي، كان الغبار قد تصاعد إلى السماء علي مقربة من جنوب الساحة، وتعالت معه الصرخات بالصفوف الخلفية حين ظهر سيلٌ هائل من الفرسان الأماريتية يقودهم القائد جرير يندفع نحوهم.

***

كان جواد خالد قد خفّف من سرعته حين دنا من نهاية الطريق الغربي بعد ساعات من الركض به، وكما توقّع انتهى سقف ذلك الطريق بباب يشبه الباب أمام الطريق الثعباني، وكانت ذراعًا حديدية طويلة مُثبتة بجداره أسفل مصباح ناري، فاقترب منها وجذبها للأسفل ليصدر الباب صريره ويُفتح مائلًا للأسفل، فظهر من أمامه نور النهار، وتقدّم إلى الخارج ممسكًا لجام حصانه، وتجاوز الباب الأرضي المائل ليجد سور زيكولا شاهقًا من خلفه يجاوره سهل رملي واسع يمتد إلى سلسلة من الجبال المتلاصقة لاحت علي بعد مئات الأمتار، وسرت بجسده رعشة ودق قلبه حين تقدّم للأمام وعبر مرتفع أرضي فأبصرت عيناه تلألأ، لم تكن رملية بل كانت من جثث متراكمة شاحبة منتفخة

البطون زائغة الأعين لرجال ونساء وأطفال، غير جثث أخرى تناثرت علي امتداد السهل، وهياكل عظمية كثيرة ظهرت من أسفل الجثث المتراكمة وبين الرمال ..فهمس إلى نفسه في ذهول :

- مقبرة فقراء إكتارا، وجه زيكولا القبيح ..

ثم امتطي حصانه، ودلف إلى السهل بين أكوام الجثث، وكلما تقدّم رأت عيناه جثثًا مكتملة وأخرى عظام يكسو بعضها لحم، وأخرى عظام ذابت لحومها، وكان سور زيكولا قد انحرف مائلًا فأسرع بجواده موازيًا له يحاول تفادي دهس الجثث المتناثرة، ونكز حصانه كي يزيد من سرعته، وتوقف بعد قرابة ميل واحد كان سور زيكولا قد وصل إلى نهايته ليلتقي ضلعه المائل الآخر، رأس المثلث الذي بحث عنها كثيرًا مرته الأولى بزيكولا، وترجل عن حصانه واقترب من السور عند إلتقاء ضلعيه، كانت بأسفله فتحة نفق المنطقة الغربية الذي عبره إلى سردابه، ونظر بعيدًا إلى حفرة منخفضة بالأرض دون أن يتحرك.كانت بداية سرداب فوريك، وجال بخاطره الهيكلان العظميان الحديثان به، وقال في نفسه :

- كانا من فقراء إكتارا، نجا من الموت هنا، لكنهما لم ينجوا من السرداب .

ونظر من خلفه بعيدًا تجاه مقبرة الفقراء، وقال :

- كانوا يريدون قتلنا جميعًا،كل من شارك بهذا النفق، أرادوا قتلي أنا وأسيل بقانونهم، وبحثوا عن إياد ويامن، وحين رأي أحدهم يامن لم يغفر له وشم يده، كانوا يظنون بغبائهم أننا دلفنا عبر النفق إلى مقبرتهم ..كانوا هم من يخشوننا، ظنوا أننا قد عرفنا سرهم الأعظم، فسارعوا لحصد أرواحنا .

ثم امتطي حصانه، وركض به عائدًا في اتجاه باب النفق الأرضي .

***

ختامٌ

قمر

كنت قد تيقنت أنها النهاية، سيدي علي حافة الموت شاحب أعلي المنصة، السيدة أسيل أعلنها القاضي خائنة مرة أخرى، السياف يقف بسيفه اللامع في تحفز، قبل أن تتعالى صرخات النساء فجأة بالصفوف الخلفية ويتدافع النّاس من خلفنا بقوة، فسقط جسدي بين أجساد كثيرة سقطت مع التدافع، وارتطمت رأسي ودارت بي وكأن الزمن توقف من حولي، وصار كل شئ أمام عيني ضبابيًا يتحرك ببطء شديد، وأصبحت أصوات الوجوه المذعورة مُخفمة متداخلة: تصرخ جميعها قائلة :

- الأماريتيون !

وتصرخ منى بجواري، وهي تهز جسدي :

- لقد نجحوا، لقد عادوا ..

كانت أعداد الأماريتين كثيرة للغاية، أسراب قادمة لا تنتهي يقودهم القائد جرير، لم يكن هناك إلا مئات قليلة من الجنود الزيكولين يحيطون بنا، علموا أنهم لن يستطيعوا فعل شئ، وأعلنوا استسلامهم بعدما لاذ حاكمهم ومجلسه بالفرار، وسقط أهل زيكولا جميعهم من حولنا واضعين أيديهم فوق رؤوسهم، وهدأت ضجتهم بعدما لم يؤذهم

جندي أماريتي من قريب أو من بعيد، وأسرع القائد جرير إلى المنصة حيث رقد جسد سيدي بجواره سيدتي التي لم تشحب إلا قليلًا بعدما شتَّت هجومه عقول من أرادوا نيل ذكائها. ثم اهتزت الأرض فجأة من أسفلنا ودوي صدي صوت عنيف فعلمنا أن مجانيق أماريتا قد بدأت في إطلاق كرات لهبها بتتابع تجاه سور زيكولا .

***

كان يومًا مُخيفًا لن تنساه زيكولا وأهلها، لم تتوقف المجانيق عن إطلاق كراتها طوال ساعاته، ومع كل ضربة كانت الأرض تهتز من أسفلنا، وتحركت حشود الأماريتين الهائلة تجاه المنطقة الشرقية، لم يتركوا سوى بضع آلاف حاصروا الساحة الوسطي بمن فيها.

لم تكن الحرب الكبري التي توقعها الجميع، لم تدم المعركة إلا لساعات كان بها الجيش الزيكولي صامدًا مُطوقًا من الجانبين شرقًا وغربًا، قبل أن يدلف نحو باب زيكولا مع شروق الشمس حشدٌ من فقراء إكتارا عراة الأجساد يسيرون في ترنح كالموتى غير عابئين بالسهام التي تشق الأجواء ذهابًا وإيابًا، كانت وجوههم شاحبةً شاردة، تسير أقدامهم الحافية في إتجاه واحد مهما تساقط منهم، لا يضعون للموت بالًا، يقودهم خالد الذي عاد إلى المنطقة الوسطى بعد مغيب الشمس، واطمئن إلى الأماريتي الذي استعاد وحداته من جنود زيكولا الجرحي بعدما أجبرهم القائد جرير علي ذلك، واطمئن إلى صحة أ،يل واحتضن زوجته مني، قبل أن يتركنا وينطلق علي جواده إلى المعركة المشتعلة بالمنطقة الشرقية، يقود الفقراء من خلفه .

كان يؤمن أن أهل زيكولا وجنودهم بشرٌ بينهم صالحون وأنقياء رغم طمعهم وجشعهم، يعلم أنهم غير مذنبين بما فعله حاكمهم ومجلسه، فسعى كي يوقف ذلك القتال، ولم تلبث أن تسربت الأخبار بين جنود

زيكولا عما فعلته بلادهم بأصحاب الملامح الغريبة الذين ساروا نحوهم، فاضطربت قلوبهم التي كانت تؤمن دومًا أن زيكولا أكثر البلاد عدلًا، وساد التشتت بينهم وخرّت عزائمهم، ووصلت إلينا الأنباء مع منتصف النهار أن الجيش الزيكولي قد استسلم وأعلنت هزيمته.

وبسرعة النار في الهشيم انتشرت الأخبار عن الممرات والأنفاق السرية ذات الأبواب الأرضية أسفل جبال المنطقة الشمالية، وعلي عكس ما عهدنا فما أن عاد خالد بالفقراء إلى المنطقة الوسطي بعد انتهاء الحرب حتي وجدنا أهل زيكولا أنفسهم يخلعون ثيابهم ليستروا بها أجساد الفقراء العارية، ويقدّمون لهم طعامهم، ويربتون علي أجسادهم، ومنهم من قبّل رؤوسهم يعتذرون عما حدث لهم.

***

طُبق عهد الرسل القديم وأُسقطت خيانة سيدتي الطبيبة أسيل والغريب خالد ونادين وإياد، وبالطبع خيانة ملكنا الذي أمر بإفاقة كافة خزائن الذكاء النائمة، ووُزع علي كل فقير من فقراء إكتارا الناجين عشرين ألف وحدة ذكاء.

كُلف أطباء زيكولا جميعهم بمتابعة حالات الفقراء الصحية تقودهم الطبيبة أسيل التي تنقلت بينهم، وعادت إليها ابتسامتها التي عُرفت بها دومًا وهي تداعب أطفالهم وبناتهم.

بالنسبة لخالد ومني فقد قررا مغادرة زيكولا مع اليوم الرابع بعد انتهاء الحرب، كانت لحظة لا تُنسي ربما سأظل أحكي عنها كثيرًا مستقبلًا، احتضنه سيدي وهو يشكره، واحتضنته نادين، وكانت الطبيبة أسيل تقف بجواري حين توقف أمامها للحظات، فابتسمت إليه واحتضنته، وسمعتُها تهمس إليه:

- شكرًا لأنك عدت من أجلي .

وأكملت :

- تمتلك زوجة طيبة، لا تجعلها تحزن يومًا .

فابتسم ثم صافحني، وصافحتنا منى جميعًا، وركبا عربة فخمة شقّت طريقها إلى المنطقة الغربية ليعبرا نفقهما إلى سرداب فوريك، ورافقهم إياد بالعربة .

لم يُعرف حتي الآن لماذا رفض المجلس الزيكولي هدم نفق المنطقة الغربية بعد اكتشافه، غير أن الملك تميم قد أمر بهدمه بعد عبور خالد ومني، كذلك الأنفاق الكبري والممرات أسفل المنطقة الشمالية بعد مشورة رجال من كبار زيكولا كانت تثق بآرائهم الطبيبة أسيل، كما وعدهم بإصلاح ماخربته مجانيق أماريتا بسور بلادهم .

***

وكان اليوم الثاني عشر من انتهاء الحرب حين اصطفت خيول وعربات على وشك التحرك تحمل أهل إكتارا بعدما فضّلوا العودة إلى بلادهم عن البقاء في زيكولا، كانوا جميعهم يرتدون ثيابًا جديدة اختلف ألوانها، وصارت وجوهم متوردة غير شاحبة بينهم السيدة الإكتارية تحتضن ولدها صبي يُقارب عشرة أعوام - كنا قد عرفنا أنها فقدت ولديها الآخرين - وكنت أقف بجوار سيدتي علي جانب الطريق بين الزحام حين لوّحت لنا بيدها تشكرنا وتقبّل ولدها الذي لوّح إلى الطبيبة بشدة، فسمعتها تقول شاردة :

- تمنيتُ لو رأي السيد سيمور ذلك.

وتابعت وهي تنظر إلى باقي الأطفال الإكتاريين الضاحكين :

- حلقات متصلة من القدر، لو فُقدت حلقة واحدة لاختلفت مصائر شتي .

وكانت بين قافلتهم عربات مُحملة ببضائع ومؤن كثيرة بعدما أعلن الملك تميم أن زيكولا ستسدد كل عام حصة من المؤن والعتاد إلى إكتارا تعويضًا عما أذنبته،كما لبّي طلبهم الذين نقلوه إليه عبر السيدة الإكتارية، وحملت العربات الوسطي أقفاصًا خشبية كُبل بها حاكم زيكولا السابق ومجلسه الذين أُعتقلوا ووُجهت لهم تهمة قتل مايفوق سبعين ألف إكتاري، ولم يعترض أهل زيكولا علي ذلك، وضحكنا حين وجدنا نادين تقترب من عربة كبير القضاة وتمدّ يدها وتصفعه بقوة قبل أن تتحرك العربات في طريقها إلى المنطقة الشرقية لتعبر باب زيكولا .

***

أوفي الملك تميم بوعده بأنه جاء إلى هذا البلد لإسقاط خيانة الطبيبة فحسب، ولم يبق بزيكولا أكثر من شهر لم يتدخل خلاله من قريب أو من بعيد بقوانين زيكولا، وترك لأهلها حرية اختيار حاكم زيكولي جديد كما اعتادوا دومًا كل خمسة سنوات، وعاد مع الجيش الأماريتي إلى سفنه وأغلق باب زيكولا من بعدهم .

أُلغيت اتفاقية البشر مقابل الديون باكتشاف مقبرة الفقراء أو ماسُميت بعد ذلك بالأرض المحرمة، وقاد الجيش الأماريتي بقيادة القائد جرير حروبًا ضد البلاد التي أرادت تطبيقها ..

بعد أيام من رحيل الملك وإغلاق باب زيكولا، اتخذتُ طريقي إلى المنطقة الغربية، إلى إياد الذي أقنعني بالبقاء للعيش في زيكولا، أستطيع أن أقول الآن زوجي إياد ..

وأخيرًا، لم تعد الطبيبة أسيل إلى أماريتا واحتلت مكانتها مرة أخرى كطبيبة زيكولا الأولى، ورحب الملك تميم برغبتها، غير أن الأسطول الأماريتي قد ترك سفينة ملكية واحدة يتناوب عليها أطقم البحارة، انتشرت الأقاويل أن تلك السفينة ستظل راسية مكانها أبد الدهر حتى تقرر الطبيبة يومًا أن تعبر هضاب الريكاتا مجددًا .

***

بعد عام ونصف ..

في بلدة اليهو فريك، كان الهدوء يسود الليل قُبيل الفجر وكان الجو حارًا خانقًا حين دوّت صرخات رضيع أيقظت منى التي أسرعت إلى سريره الصغير، وحملته إلى صدرها ثم سارت به نحو الشرفة فتوقف عن بكائه، وكادت تعود به إلى سريره، قبل أن تلمح نجمًا بالسماء يلمع بعيدًا في عزلة عن باقي النجوم، فحدّقت به وأطالت نظرها إليه، ونطقت غير مصدقة :

- أسيل !!

ثم التفتت إلى سريرها، كان خالد ينام علي جانبه واضعًا رأسه بين وسادتين ، لم تكن تعلم أنه قد فتح عينيه حين شعر قلبه بقلق مفاجئ..

في الوقت ذاته، كان شراع السفينة الراسية قرب شاطئ بحر مينجا قد انتفخ، وأسقطت مجاديفها الطويلة إلى الماء لتبدأ إبحارها في إتجاه الجنوب .

.. تمّت بحمد الله ..



AMARETA

لم أرَ من قبل خوف وجوه أهل زيكولا مثلما كنت أراه تلك اللحظات أسفل أنوار المشاعل، زيكولا القوية التي تباهي أهلها دومًا بقوتها، باتوا عند أول اختبار حقيقي وجوهًا ذابلة مصدومة تخشى لحظاتها القادمة، أرض الرقص والاحتفالات لم تعد إلا أرض الخوف، أعلم أنهم يلعنون أسيل في داخلهم منذ تسربت إليهم الأخبار أنها سبب مايحدث لهم ، لكنهم قد تجاهلوا عمدًا أنهم من اقتنصوا ذكاءها كاملًا دون أن تضر واحدًا منهم يومًا ..

